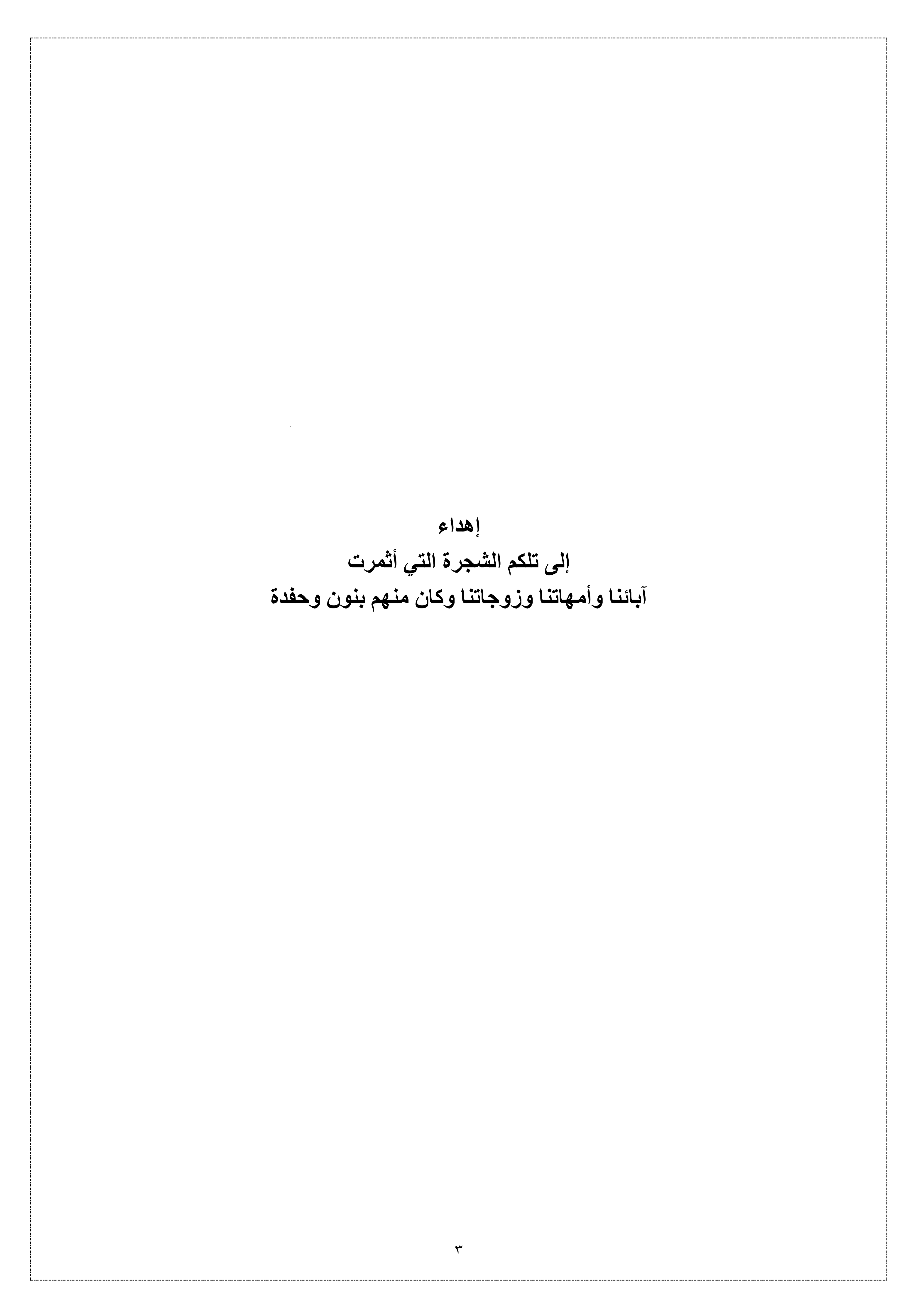
الإسلام
في القرن الحادي والعشرين

الدكتور
خالد الزواوي



بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى تلكم الشجرة التي أثمرت

آبائنا وأمهاتنا وزوجاتنا وكان منهم بنون وحفدة

مـــن قتـــل دون دينـــه فهـــو شـــهيد ..
ومـــن قتـــل دون أهلـــه فهـــو شـــهيد ..
ومـــن قتـــل دون دمـــه فهـــو شـــهيد ..
ومـــن قتـــل دون مالـــه فهـــو شـــهيد ..

حديث شريف



المقــدمــــــة

المقدمة

يوضح هذا الكتاب أهمية تجديد وتحديث الخطاب من منظور الإسلام في إطار المشكلات المعاصرة ، والتقنيات الحديثة ، والتكنولوجيا المتطورة ، والتقدم السريع في حياتنا العملية فقد كشفت الدراسة من هذا المنظور الإسلامي أن العالم يمر بصراعات خطيرة ، وإن لم نتدارك هذه الصراعات تخلفنا عن ركب الحياة ، فنحن بحاجة إلى جذب أنظارنا ، وانتباهنا إلى هذه التحديات التي تواجهنا ، وإلى الصراعات التي نحياها ونعيشها ..

ويبين الكتاب المحاور التي يقوم عليها هذا التجديد الذي ندعو إليه في الخطاب ، وكيف أن هذا التجديد أو التحديث يحافظ على الثوابت ، ولا يعمد إلى تغيرها ، بل يكون وفق فكر المخاطب ، وما يصطدم في حياته اليومية ..

ومن خلال الدعوة إلى المواطنة ، والعوامل المؤثرة فيها ، وما يجب أن يتحلى به المواطن ، يكون التجديد ، وهو ما يعكس حرية المجتمع الإسلامي الذي يشكل هذا التكوين الجديد بشكل أو بآخر مع الالتزام بالمبادئ والقوانين الإسلامية التي هي أكبر العوامل تأثيرًا في تشكيل المواطن ، ومن ثم في الحرص على التجديد والمطالبة به ..

وتفسير هذه الدراسة أيضًا مفهوم المواطنة ، ومفهوم التجديد من خلال تحليل يوضح أسباب الدعوة إليها ، مع بيان ما هي أساليب الدعوة السليمة ، وما يجب أن يكون عليه الداعية ، حتى يخرج المتلقي بالأثر المرجو من تكوين الإنسان ونموه ، ومراحل تطوره ، وارتباطه بالوطن تأثيرًا وتأثرًا ، بما يوضح كثيرًا من الحقائق المهمة في تحديث الخطاب ، والكشف عن الأساليب الجديدة في هذا الميدان ، وإلقاء الضوء على شخصية صاحب الدعوة ، والكشف عن العلاقات الأساسية بين المواطنين في الوطن الواحد ، وأنه لا فرق بين مسلم وغير مسلم على أرض مشتركة ، وتحت نظام واحد ، وقانون موحد .

وقد ربطت هذه الدراسة بين الفكر المعاصر في حياتنا الاجتماعية ، وبين الحياة في ظل الفكر الإسلامي ، فكشفت عن التأثير المتبادل بين الفكرين ، وفي ذلك ما يوضح أهمية التجديد .. ولابد من ألا نغفل تشكيل السلوك الاجتماعي الذي نبغيه من وراء ما ندعو إليه تشكيلاً معنيًا ، وتوجهًا خاصًا ، بحيث يكون الفرد عاملاً مؤثرًا في محيط دائرته التي تشمله هو والآخرين ، وتصبح هناك ضوابط اجتماعية إلى جانب الضوابط الذاتية فيستقيم المجتمع ، ويحيا حياة هانئة في إطار القيم والمبادئ الإسلامية ..

كما أوضحت الدراسة أثر التشريع الإسلامي في حياة الأمم والشعوب ، بعيدًا عن محاولات المقارنة بينها وبين التشريع الوضعي ، وبين المحاولات التي ساقها المعرضون للإساءة إلى الإسلام ، والإسلام براء من كل ما حولوا إلصاقه به من تهم وتشويه وإساءة .. مع التركيز على الحقوق الإنسانية التي دعا إليها الإسلام ، فكان أول من نادى بالجربة والعدل والمساواة والعمل والعلم وغير ذلك من حقوق كشفت عنها الدراسة ، ولا ينكرها أحد ممن يوازنون بين دعوة الإسلام إليها ودعوة الغرب لها .. فما شرعه الإسلام من حقوق هي ضرورات للمسلم وغير الملم ، وما تقول به الآخرون حول حقوق الإنسان ، قيمته لا يتجاوز حد قولهم فقط ..

وقد تضمنت الدراسة الرد على الذين سولت لهم أنفسهم الإساءة للإسلام والمسلمين ، والرد على غير ذلك من أقوال ورسومات وإعلام محاولين إلصاق دعواهم بما يشتهون ولكن الله ناصر المسلمين وناصر الإسلام .. وهنا تتضح الرؤية الصحيحة للإسلام التي يمكن اعتمادها في تطوير الخطاب وتوجيهه للآخر وفق الاتجاهات والنظريات الحديثة لدراسة الأديان .

هذا هو الإسلام ، ونحن نستعمل هذه الكلمة بأكثر من معنى ومفهوم ، نستعملها أولاً بمعنى الدين الإسلامي على الدوام ، ونستعملها أيضًا بمعنى المسلمين ، ثم نستعملها إلى هذا وذاك بمعنى التاريخ الإسلامي ، ونستعملها أخيرًا لتدل على مجموع الجهد الحضاري الذي تم ما بين الأندلس والهند فيما بين القرن الهجري الأول ، والقرن العاشر - على الأقل - وكانت لغته العربية وخليطته البشرية مطبوعة بطابع العروبة الثقافية ، ومتابعة الفكرية متصلة روحًا وجذورًا بالدين الإسلامي بالمسلمين المؤمنين به .. وتقول أيضًا : - عصور الإسلام ، وأيام الإسلام .. إن عدد الموضوعات التي يجب أن تضمنها حساب إسهاما ت الإسلام ضمن الإنجازات الإنسانية هو نظريًا عدد لا يحد تقريبًا ، ولكن كان من الضروري من الناحية العملية أن يقتصر حجم هذا الكتاب على حدود معقولة : على أن كل الميادين الأساسية قد غطيت بشكل متوازن .

وتقتصر موضوعات على إلقاء ضوء على ماهية الإسلام ، ومقصودة أيضًا على الإشارة إلى مفهوم الخطاب ، وإلى محاولة تجديد أو تحديثه أو تطويره ، والدعوة إلى ذلك ، ثم يتفرع من ذلك تناول أساليب الدعوة ، وأفكار الدعاة ، وقد يكن من المستحيل أن تتضمن موضوعات الكتاب الحركات الحديثة والمعاصرة للإسلام والمقارنة بيننا وبين الماضي ، وما يجب أن تكون عليه في المستقبل ، أو ماذا ستؤول إليه هذه الحركات .. وعلى كل حال فإن ما يقدم من موضوعات يكفي لإعطاء صورة صادقة وواضحة عن إسلامنا ، وعن ماذا نحن فاعلون من الدعوة إليه عن طريق الكتابة أو الخطابة أو الإعلام ، هذا الإسلام الذي يدعو إلى الوحدة والاتحاد والعدل والمساواة والإضاءة .. وإني لمقتنع مع ذلك ، بأن فهمها عميقًا لدور الذي لعبه الإسلام في الماضي ، هو الأساس الضروري من أجل تقييم صحيح لاتجاهات الحاضرة ..

وهناك سمة خاصة انتشرت في عالم المعرفة الإسلامية ، وكانت تتعلق بنشوء الشريعة الإسلامية ، هذه السمة هي التمييز الصارم بين الخاصة والعامة ، فكان رأي الخاصة هو الذي يؤخذ بعين الاعتبار في أي مسألة ، أما رأي العامة أو ما يمكن أن ندعوه بالرأي العام فكان يهمل تمامًا ..

إن تطور الإسلام سار وفق سلسلة عجيبة من التقدم والتأخر ، مع وجود بعض التباين البارز في تقدم العناصر المتعددة التي تكون الحضارة الإسلامية ..

لقد أدت حياة الرسول صلي الله عليه و سلم إلى بروز التنازع بين القيم العربية القديمة ، والقيم الإسلامية الحديثة ، وكان عهد الخلفاء الراشدين ثم العهد الأموي ، وفيه برزت الشريعة الإسلامية .. وهذا لا يتعارض مع تفوق العمل على الإيمان في بنية الإسلام ، إلى أن جاءت نقطة تحول بالنسبة للشريعة الإسلامية وذلك عند احتلال العثمانيين لمصر ، ونتج عن ذلك إحياء جديد ، وحدثت بداية جديدة في الشريعة الإسلامية ..

والكتاب ذو أهمية بالغة بالنسبة للقارئ المسلم والمسيحي على السواء ، فوضوح الرؤية من شأنه أن يزيل الكثير من العقبات ، ويفتح الطريق أمام حوار مع الآخر من أجل خير الإنسان وأمنه واستقراره ..

وبما أن الحوار قد أصبح إحدى السمات المميزة للعصر الحالي ، فإن قضية قد أصبحت تشكل في عالم اليوم ضرورة من ضرورات العصر للتغلب على العديد من المشكلات الحياتية على جميع المستويات ، وهذا ما دعت إليه المؤتمرات والندوات والملتقيات ، وأوصت به ، ونحن ندعو إليه من خطابنا ..

وإذا كان هذا أمر ملحًا في الأمور غير الدينية ، فإن الأمر يبدو أكثر إلحاحًا قي الوقت الحاضر ، وفي الدين خاصة لما له من أثر لا يمكن تجاهله في حياة الناس أفرادًا وجماعات .

ويغرينا في هذا المؤلف أنه يكشف عن حقائق مطمورة أو مجهولة للكثيرين منا ، ممن لا يعرفون نصيب المسلمين في حلبة الصراع مع الآفات والأمراض .. لقد كان المسلمون الأوائل من أشد الأمم طلبًا للمعرفة ، ورغبة في الإفادة منها في حياتهم .. فعلنا اليوم تكون كما كنا بالأمس ..

وإن كان الكتاب قد ألقى الضوء على ما هو سائد في خطاب دني في أيامنا هذه ، فتلك محاولة لتطويره وتحديثه ، فذلك يمهد السبيل إلى فهم واقعنا من خلال الجديد في خطابنا ، وتقديم الحلول لمشكلاتنا الحياتية المعاصرة ، والبعد عن التراكمات القديمة التي قد لا تتناسب مع الآخر ، ولا تتواءم مع تفكيره المنطقي ..

ويفصح عنوان الكتاب عن هذا المعنى ، وهو الانتقال من مرحلة الجمود إلى آفاق رحبة تتمشى مع التحديات الآتية من الخارج ، أو هكذا نقصد من معنى حول هذا العنوان ..

ولا يفوتني أن أنوه إلى أهمية الترجمة خدمة لما ندعو إليه من هذا البحث ، فللترجمة أثر ف معرفة ما يدور في عالمنا الإسلامي وحاضرنا ومستقبلنا وماضينا أيضًا ، وهي تنقل للآخر صورة عنا وعن حضارتنا وعن جهدنا الإنساني ، فالهدف هو تعريف الآخر بصورتنا ووجهات نظرنا ..

ولئن كان قد ظهر توجه أخير لمدار س ترجمة القرآن الكريم ليطلع عليها من لا يعرف العربية ، إلا أننا ندعو إلى أهمية الترجمة في نقل أفكارنا وتوضيح صورتنا للآخر ، ودعوتنا إلى الإسلام وإلى بيان حقيقته ، والرد على الذين أساءوا وأخطئوا إلى الإسلام والمسلمين ، ولنكن الدعوة بالحسنى واللين ، والقول الحسن ، حتى يتبينوا خطأهم ، ويستبشروا بما يجدونه منقولاً إليهم ليكشف عنهم الغشاوة ، ويزيل ما قد علق بأذهانهم من تشويه ، وصور غير واقعية .

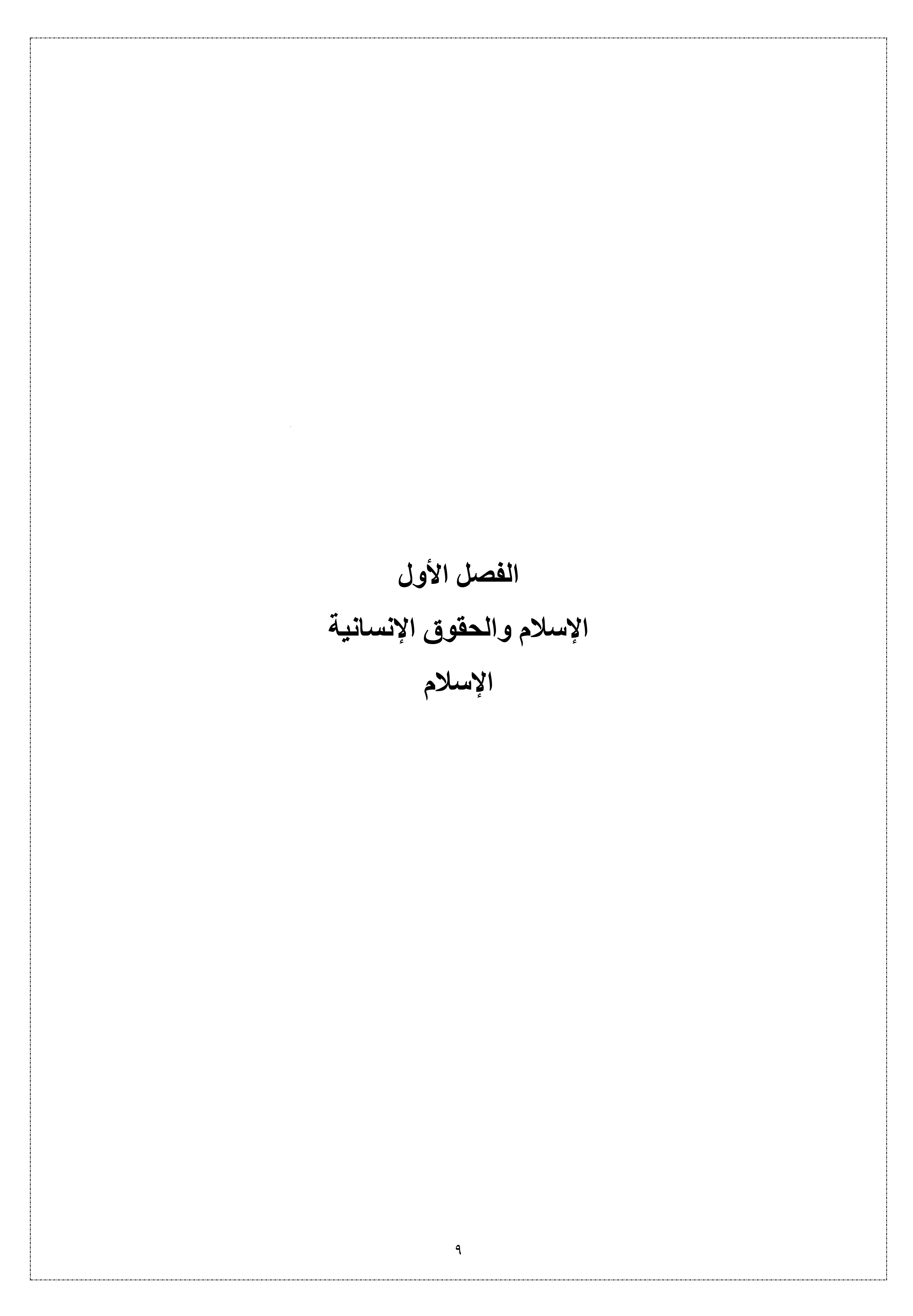
وإني لأرى أن هذا المؤلف يمهد لإرساء ، أسس موضوعية يكون عليها الخطاب الموجه ، لأجل فريد من الفهم والفعالية ، وتحقيق المصالح العامة ، كما أتوقع أن يحظى هذا الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه القارئ العربي الواعي لاسيما أنه يفتح آفاقًا جديدة لمقاربة الماضي بالحاضر والمستقبل في تاريخنا وثقافتنا وحياتنا اليومية الراهنة ، والإسلام راع لها .

ولعل هذا الذي قدمته ، وما عرضت له من أهمية التجديد من منظور الإسلام يفتح باب الدارسين والباحثين في هذا المجال من أجل خدمة الإسلام والمسلمين ، وأن أكون قد وفقت في تقديم كتاب من الكتب الضرورية للمكتبة العربية وللقارئ العربي ، ووفقت إلى تقديمه في حرف عربي أمين مبين .

والله من وراء القصد

د / خالد الزواوي


الباب الأول
هذا الدين



الفصل الأول

الإسلام والحقوق الإنسانية

الإسلام

الإسلام والحقوق الإنسانية:

الحقوق الإنسانة ضرورات فطرية للإنسان ، من حيث هو إنسان ، وإسلامنا هو دين الفطرة التي فطرنا الله عليها ، فمن الطبيعي والبديهي أن يكون الكافل لتحقيق هذه الحقوق .

وهناك وثائق وشرائع بلورت حقوق الإنسان ، منها وثيقة فرنسية نصت على حقوق الإنسان " الطبيعية " مثل حقه في " الحرية " وحقه في " الأمن " وعلى " سيادة الشعب ، كمصدر في المجتمع " وعلى " سيادة القانون كمظهر لإرادة الأمة " وعلى "المساواة بين جميع المواطنين " أمام الشرائع والقوانين .. ولقد فعلت هذه الوثيقة فعل السحر في الحركات الثورية والإصلاحية ، سواء في أوربا أو خارجها ، حتى جاء دور تدويلها ، فدخلت مضامينها في ميثاق " عصبة الأمم " سنة ١٩٢٠ م . ثم في ميثاق الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ .. ثم أفرزت ، دوليًا ، بوثيقة خاصة هي (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) الذي أقرته الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ م .

ونحن نجد الإسلام قد بلغ في الإيمان بالإنسان ، وفي تقديس " حقوقه " إلى الحد الذي تجاوز بها مرتبة " الحقوق " عندما أعتبرها ضرورات ، ومن ثم أدخلها في إطار " الواجبات " .. فالمأكل والملبس والمسكن والأمن ، والحرية والفكر والاعتقاد والتعبير والعلم والتعليم .. والمشاركة في صياغة النظام العام للمجتمع والمراقبة لأولياء الأمور .. والثورة لتغيير نظم الضعف أو الجور والفسق والفساد .. كل هذه الأمور هي في نظر الإسلام ليست فقط " حقوقًا " للإنسان من حقه أن يطلبها ويسعى في سبيلها ويتمسك بالحصول عليها ، ويحرم صده عن طلبها .. وإنما هي " ضرورات واجبة " لهذا الإنسان ، بل إنها " واجبات " عليه أيضًا ، ولا سبيل إلى حياة الإنسان بدونها ، ولابد من وجودها ومن تمتع الإنسان بها ، وممارسته لها .

بل إن الإسلام ليبلغ في تقديسها إلى الحد الذي يراها الأساس الذي يستحيل قيام " الدين " بدون توفرها للإنسان " ، فعليها يتوقف الإيمان ، ومن ثم التدين بالدين ، وصلاح أمر الدين موقف على صلاح أمر الدنيا ومترتب عليه ، ويستحيل أن يصلح أمر الدين إلا إذا صلح أمر الدنيا ، ويعبر الإمام الغزالي عن هذه الحقيقة الإسلامية عندما يقول : " إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا .. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليها بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن .. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية ..

وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يتفرغ للعلم والعمل ، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة فإذن : إن النظام الدنيا ، أعني مقادير الحاجة شرط لنظام الدين .

أين يلتمس المسلم المعاصر ذلك السياج الفكري الذي يستطيع بإقامته حماية الحقوق الإنسانية ، التي تكفل له تحقيق جوهر إنسانيته ، وازدهارها طاقاته وملكاته ، والنهوض بواقع أمته وحضارته في العصر الحديث ، أين يلتمس المسلم المعاصر هذا السياج ؟

ويرى البعض أن التماس هذا السياج في الإسلام بديهة تصل - أو هكذا يجب أن تصل - عند الإنسان المسلم إلى حد الفطرة التي فطر الله عليها هذا الإنسان . فالحقوق الإنسانية ضروات فطرية للإنسان ، من حيث هو إنسان وإسلامنا هو دين الفطرة التي فطرنا الله عليها ، فمن الطبيعي والبديهي أن يكون الكافل لتحقيق هذه الحقوق .. ومن ثم أن يكون المصدر الطبيعي لمن يريد التماس هذا السياج .

ورغم اعترافنا واعتقادنا بصدق هذا المؤمن المستيقن ، إلا أننا نعترف ونعتقد ، كذلك ، بما يكتنف هذا الأمر من ضباب يبعث الحيرة لدى كثير من الإسلاميين ، وكثرة من المسلمين الذين يبحثون ، مخلصين ، عن المصدر الطبيعي لحقوق الإنسان المسلم في العصر الذي نعيشه ، والطور الحضاري الذي يستشرقه هذا الإنسان .

وهناك نفر يسهم في التشكك بصلاح الإسلام كي يكون المصدر الطبيعي لالتماس سياج الحقوق الإنسانية للمسلمين في العصر الحديث .

ولقد تلقف العلمانيون ، دعاة التبعية للحضارة الغربية التصورات والصورة المحسوبة على الإسلام وشريعته ، واستندوا إليها في رفضهم القاطع لصلاح الإسلام أن يكون المصدر الذي تلتمس منه حقوق الإنسان ، وخص هؤلاء العلمانيون إلى دعوتهم الأمة كي تلتمس الدرع الفكرية لحقوقها الإنسانية من حضارة الغرب ، وإنجازاتها بميدان حقوق الإنسان ، وليس في فكر الإسلام ..

وفي هذا حق كثير أريد به باطل أكثر ، الأمر الذي جعله ويجعله مصدر لضباب كثيف يعمي رؤية الذين يبحثون عن الجواب الصحيح والشافي للجواب الصحيح لسؤال : أين يلتمس المسلم المعاصر ذلك السياج الفكري الذي يستطيع بإقامته حماية الحقوق الإنسانية ، التي تكفل له تحقيق جوهر إنسانيته ، وازدهار طاقاته وملكاته ، والنهوض بواقع أمته وحضارته في العصر الحديث ..

وفي الإشارة إلى حقيقته موقف الإسلام الحق من حقوق الإنسان يتبين لنا أن الإسلام هو المتبع الأساسي لهذه الحقوق ، ونحن نستهدف من وراء ذلك تسليح المسلم بما يعينه على النهوض بتبعات النهضة الحديثة ، محققًا

التواصل الحضاري ، ومجسد الإرادة مولاه سبحانه وتعالى ، الذي خلقه وسواه وعدله ، وكرمه على سائر المخلوقات .. وهي كشف لما تميز به الإسلام وامتاز على المنظومات الفكرية الأخرى ، من قضية حقوق الإنسان ..

إن الهدف من وراء ذلك هو إنصاف الإسلام من أعدائه الذين يوجهون إليه الطعنات المسمومة صباح مساء .. وإنصافه أيضًا من بعض أبنائه الذين يسيرون في الركاب الفكري لهؤلاء الأعداء .. ويظل الهدف الأول والأساس هو : تسليح المسلم المعاصر بما يعينه على استخلاص حقوقه الإنسانية الواجبة من كل الغاصبين الذين فرضوا ويفرضون عليه وعلى أوطانه الكثير والخطير من التحديات ، ثم وضع لبنة في البناء الفكري الذي يعين هذا الإنسان المسلم على تصور معالم مشروعة الحضاري المتميز ، الكافل نهضة أمته لتعيش عصرها وتصنع مستقبلها ، دون أن تفقد هويتها ، وتقطع تواصلها الحضاري مع إسلامها الحق ، وأسلافها العظام ..

الإسلام والحرية :

الحرية الإنسانية - بالمعنى الفردي والجماعي والاجتماعي - في عرف الإسلام ، لأنه يرى في الحرية الشيء الذي يحقق معنى الحياة للإنسان .. فيها حياته الحقيقية ، ويفقدها يموت ، حتى ولو عاش يأكل ويشرب ويسعى في الأرض كما هو حال الدواب والأنعام .

لقد جاء الإسلام فأغلق كل المصادر والروافد التي تمد المجتمع بالرقيق ، ورغب في عنق الأرقاء بأن جعله قربه يتقربون بها إلى الله ، فمن أعتق رقيقًا أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من أعضاء معتقة من عذاب النار ، وقد هب القرآن الكريم ليعلم المسلمين أن البر الحقيقي ليس في استقبال المشرق أو المغرب للدعاء والصلاة .. ولكنه في أمور وأعمال أكثر من ذلك من بينها تحرير لأرقاء بشرائهم من مالكيهم واعتاقهم من الاسترقاق .. " .. ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتي المال على حبه ذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتي الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحن البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " (البقرة ١٧٧) .

ولقد بلغ تقديس الإسلام للحرية الإنسانية إلى الحد الذي جعل السبيل إلى إدراك وجود الذات الإلهية هن العقل الإنساني ، فحرر سبيل الإيمان من تأثير الخوارق والمعجزات المادية ، ومن سلطان النصوص والمأثورات ، بل ومن سيطرة الأنبياء .. فحجية النصوص المقدسة مترتبة على صدق الرسول الذي بشر بها .. وصدق الرسول مترتب على صدق وجود الذات الإلهية التي أرسلته وأوحت إليه هذه النصوص .. فلابد من سبق الإيمان بههذ الذات على التصديق بالرسالة ، والنصوص .. ولا سبيل إلى ذلك سوى العقل المتحرر من سيطرة الرسل وتأثير الخوارق وسلطان الماثورات .. وهنا قمة التحرير ونفي الإكراه في الدين بالدين : "لا إكراه في الدين قد تبين الر شد من الفس " (البقرة ٢٥٦) . " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (يونس ٩٩) " قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون " (هود ٢٨) .

لقد بعث الله سبحانه وتعالى ، رسوله صلي الله عليه و سلم ، هدى رورحمة ، وحدد أن هدف التبليغ هو أن يكون بشيرًا للمؤمنين بالنعيم ، ونذيرًا للمشركين بالعذاب .. ولم يبعثه الله جبارًا ولا متسلطًا ولا مسيطرًا ولا وكيلاً : " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرًا " (الأحزاب ٤٥) .

" فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " (الغاشية ٢١ - ٢٢) . " نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " (ق ٤٥) . " وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل " (الأنعام ٦٦) . " ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلنا عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل " (الأنعام ١٠٧) " قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ر بكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل " (الزمر ٤١) .

إن الإسلام يدعو إلى حرية الفكر والتفكير والأدلة على هذه الحقيقة أكثر من أن تحصى وترصد ويكفي أن نشير إلى أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن النظر بالفظ الصريح وتفترضه وتحت عليه تزيد على الخمسين ، وهي تستخدم فعل الأمر لتؤكد أن هذا النظر هو فريضة إلهية فرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان " فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين " (آل عمران ١٣٧) ، " قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض " (يونس ١٠١) . " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " (العنكبوت ٢٠) " فأنظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها " (الروم ٥٠) .

والآيات القرآنية التي تحدثت عن التدبر بمعنى التأمل والتفكر - تطلب ذلك من الناس وتستدعيه وتحث عليه . وآيات التدبر هذه توجب على الناس التدبر في القرآن الكريم " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا " (النشاء ٨٢) . " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (محمد ٢٤) ، " أفلم يدبروا القول أم

جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين " (المؤمنون : ٦٨) ، " كتاب أنزلناه إليك مباركًا ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب " (ص : ٢٩) .

وقد تحدث القرآن الكرينم في تسع عشرة آية من آياته .. وعن العقل في تسع وأربعين آية .. وعن اللب ، أي العقل باعتباره جوهر الإنسان وحقيقته في ست عشر آية ، وعن هذا العقل بلفظ النهي في آيتين . وتحدث عن التفكير كفريضة واجبة افترضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان : " كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون " (البقرة ٢١٩) . " أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثير من الناس بلقاء ربهم لكفارون " (الروم ٨) .

" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خالق السماوات والأرض ربنا ما خلقتا هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار " (آل عمران ٩٠ - ١٩١) . " فأقصص القصص لعلهم يتفكرون ط • الأعراف ١٧٦) . " كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون " (يونس ٢٤) . " وأنزلناه إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " (النحل ٤٤) . " وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون " (الحشر ٢١) .

فالتفكر فريضة وليس مجرد حق من الحقوق ..

فالنهوض بحقوق فرائض التفكر والتدبر والنظر والتعقل والتفقه هو الخاصية الإنسانية اللائقة بالإنسان المؤمن ، وبغيرها لا فلاح له في الدنيا ، ولا نجاه له من النار في الآخرة .. بل ولا مكان له في الدائرة الإنسانية ، إنما ينتقل إلى دائرة من هم أضل من الأنعام ..

ذلك هو مبلغ الحرية ومكانتها في الإسلام .. إنها ضرورة إنسانية واجبة .. وفريضة إلهية ، بغيرها لن تتحقق حياة الإنسان كإنسان .. فهي واجب لتحقيق وصيانة الحياة التي هي واجبة ، بل ومقدسة إذا ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أيضًا - كما أستقر عليه الرأي عند مفكري الإسلام .

الإسلام والعدل :

في الإسلام نجد قيمه العدل عالية متألقة ، تتصدر كل القيم الثوابت التي يدعو إليها الدين .. فهو المقصد الأول للشريعة ، وكل السبل التي تكفل تحقيقه هي سبل إسلامية شرعية ، حتى لو ينص عليها الوحي أو ترد في المأثورات . بل إننا واجدون العدول أسماء من أسماء الله الحسنى ، وصفة من صفاته سبحانه وتعالى .. وكفى بذلك دليلاً على المكان الأرفع للعدل في فكر الإسلام .

والعدل في العرف الإسلامي ، ضد الجور والظلم ، وهو يعني جماع فراج الإسلام وخاصية حضارته ، أي الوسطية والتوازن ، المدرك بالبصيرة ، والذي يحقق إنصاف بإعطاء كل إنسان ماله أخذ ما عليه منه .. ومن هنا كان حديث الرسول صلي الله عليه و سلم ، الذي عرف به الوسطية بالعدل ، والعدل بالوسطية ، عندما قال : " الوسطية : العدل ، جعلناكم أمة وسطًا " .

وإذا كان العدل هو الحق ، فإن مجاوزة الحق هي الظلم والجور .. وإذا وقع هذا الظلم في علاقة الإنسان بعقيدة الألوهية كان كفرا أو شركًا أو نفاقًا " إن الشرك لظلم عظيم " (لقمان ١٣) . وإذا وقع هذا التجاوز في علاقة الإنسان بعقيدة الألوهية كان كافرًا أو شركًا أو نفاقًا : " إن الشرك لظلم عظيم " (لقمان ١٣) وإذا وقع هذا التجاوز في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان سمي ظلمًا : " إنما السبيل على الذين يظلمون الناس " (الشورى ٤٢) ، وكذلك تكون تسميته عندما يكون التجاوز للحق واقعًا من الإنسان في حق نفسه وذاته : " فمنهم ظالم لنفسه " (فاطر ٣٢) ، وإذا كان الظلم ، فعد الشئون الدين والدنيا ، فإنه ظلمات يوم القيامة كما قال الرسول صلي الله عليه و سلم .

والعدل ، في شرعه الإسلام ، فريضة واجبة ، وليس مجرد حق من الحقوق التي باستطاعة صاحبها التنازل عنها إذا هو أراد ، أو التفريط فيها دون وزر وتأثيم .. إنه فريضة واجبة ، فرضها الله سبحانه وتعالى ، على الطاقة دون استثناء ، فرضها على رسول الله صلي الله عليه و سلم ، وأمره بها : " فلذلك فأدع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ولا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير " (الشورى ١٥) .

وهو فريضة واجبة على أولياء الأمور ، من الولاة والحكام ، تجاه الرعية والمتحاكمين : " إن الله يأمركم أن تئودوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمًا يعظكم به إن الله كان سميعًا بصيرا " (النساء ٥٨) .

وهذا الشمول لفريضة العدل ، يحدثنا عنه رسول الله صلي الله عليه و سلم ، عندما يدعو الآباء إلى العدل بين أبنائهم .. " أعدلوا بين أبنائكم " وعندما ينهي الولاة عن غش الرعية : " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو عاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة " . وعندما يحدث الولاة عن تكافؤ العقد بينهم وبين رعيتهم ، ويحذرهم من التفريط بما عليهم تجاه الرعية ، فيتحدث إلى الرعية عن علاقتهم بالأئمة فيقول ، " إن لهم (الأئمة) عليكم حقًا

، ولكن عليهم حقًا مثل ذلك ، ما إن استرحموا فرحموا ، وإن عاهدوا وأوفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

قالوا إن الخير في ذاته ، والشرشر في ذاته ، قبل أن تأتي الشريعة بتحديد ذلك (أو بعبارة أخرى قبل ورود الوحي ، كما يقول المتكلمون) وأنه يجب في حق الله أن يفعل الخير والصلاح لعباده .

ولما كان الله لا يريد الشر ، فهو كذلك لا يأمر به ، والإنسان هو الذي يخلق الشر ....

الإسلام والمرأة :

كان وضع المرأة في شريعة الرومان قائمًا على عدل الاعتراف بأية أهلية حقوقية للمرأة ، وكان وضعها بسبب جنس الأنوثة تحت " الوصاية الدائمة " فهي موروثة لا وارثة ، ومن ثم فهي شيء تابع للرجل .

أما في الجاهلية فقد كانت أحسن حالاً عما كانت عليه في مثل تلك الشرائع القديمة ، ومع ذلك فكان ينظر إليها نظرة ازدراء وتحقير ، فكان منهم من يئدها ، وفي أواخر القرن السادس الميلادي جاء الإسلام ، وعالج مشكلة المرأة بحزم وإيمان ، وأعلن كامل إنسانية وكرامة المرأة إلى جانب كامل إنسانية وكرامة الرجل ، مع كامل أهلية المرأة للحقوق والاستقلال ، مثل أهلية الرجل واستقلاله من غير فرق بينهما .

وكامل مسئولية المرأة إلى جانب كامل مسئولية الرجل . وفي هذا انتقل الإسلام بوضع المرأة من العدم إلى الوجود ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن المهانة إلى الكرامة .

وسوى الإسلام بين المرأة والرجل فيما توجب فطرتها التسوية فيه ، فسوى بينهما في العبادة ، قال تعالى : " فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض " (آل عمران ١٩٥) .

ويعترف القرآن الكريم للمرأة المسلمة بكفايات وحقوق في كل مظاهر التصرف والتدبير خاصة في ميدان الاقتصاد وميدان الأحوال الشخصية .

ومن ناحية أخرى ، عزز الإسلام مبدأ مسئولية المرأة إلى جانب الرجل ، ووزع المسئولية بين كل مسئول تبعًا للولاية الثابتة للجميع على اختلاف على اختلاف أعمالهم في المجتمع ، وعلى أساس أن كلا منهم مسخر للآخر من غير تمييز بينهم ، فولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ثابتة للجميع ، ومن ثم لم تقتصر هذه الولاية على فريق دون الآخر ، ولا الجنس دون جنس أخر .

إن الوظيفة الأولى للمرأة هي الأمومة ، فالمرأة أم الرجال ، وعلى قدر اهتمامها بتلك الوظيفة ، ينهض الرجال ، وتنهض الأمم .

ومع ذلك ولأن العمل شرف ، فإن الإسلام يبيح عمل المرأة خارج إن دعت الحاجة إليه ، ولم يكن في ذلك إهمال لبيتها وأولادها ، أو خروج عن الحياء أو الآداب الإسلامية ، وها نحن نرى في عصرنا الحديث أن المرأة قد اعتلت جميع المناصب ، وشغلت جميع الوظائف ، وأصبحت ضرورة للمجتمع ، وأحرزت تفوقًا ملحوظًا في كل الميادين ، واستحقت بحق أن نفخر بها وأن نشيد ، واستطعنا بذلك أن نواكب تقدم الشعوب ونهضة الأمم .. وهذا يجعلنا نشير إلى بعض أبعاد التنمية البشرية في الإسلام .

وينفرد الإسلام في هذا المجال بنظرة أوسع مدى ، وأرحب نظامًا ، فيحرص على أن تكون التنمية البشرية شاملة لكل جوانب الإنسان البدنية والعقلية والروحية ، ولذلك نراه يضع الأسس الفعالة لسلامة بدنه من الأسقام والأمراض ، وتنشيطه بالرياضة والعمل ، والحفاظ عليه من كل ما يؤذيه أو يوهن قواه أو يعرقل نموه .

فالإسلام يطلق لعقل الإنسان العنان ليفكر ويتعلم ويبحث ويهتدي ويكتشف ويخترع ويؤلف .

ويملأ قلبه يجب الإنسانية والعمل لخير البشرية ، وينفي روحه بالعبادات والقيم الفاضلة ، وفي هذا يقول رسول الله صلي الله عليه و سلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وقال كذلك : - " لا ضرر ولا ضرار " .

إن الله تعالى يصور البشرية في أحسن صورة حثالنا على أن نبقيها كذلك شكلاً وموضوعًا ، فقد قال الله تعالى : " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " (التين ٤) . وقال : " الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك " (الانفطار ٧ - ٨) .

ويميز الله تعالى هذه البشرية عن سائر المخلوقات بعقل مدبر ، ولسان معبر وإرادة تذلل العقبات وتهيمن على كل شيء ، ولهذا سخر لها ثروات الأرض والكون وطاقاته في البر والبحر والجو ، تصرفها بعقولها ، وتديرها حسب ما فيه صالحها ، وتكتشف أسرارها جيلاً بعد جيل . وقد جعل الله من العبادة النظر والتفكير في هذه الثروات ، حتى يدرك الإنسان فضل الله عليه ، فلا يخضع إلا له وحده ، وفي هذا قال : " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (الإسراء ٧٠) .

وفي سبيل التنمية البشرية ، يحرص الإسلام على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، فينكر على الإنسان أن يقتل ، أو يخرب أو يدمر . كما يعمل الإسلام في سبيل ذلك على تكوين الأسرة على أساس الاختيار الحرية وعلى المودة والحب والاحترام المتبادل .

ذلك هو منهج الإسلام في عملية التنمية البشرية ، منهج يشمل المجالات المادية والروحية ، ولذلك أرسل الله لرسل للبشر هداة ورعاة ومبشرين ومنذرين ، وحماة لهم من الانحراف عن منهج الله ، أو التردي في مهاوي الضلال ، وهو بذلك يحرص على كرامة الإنسان في كل مراحل نموه حيث يقر له مبادئ الحرية والمساواة والإخاء العدل ..

وتلك حضارة الإسلام . وشتان بينها وبين حضارة المسلمين اليوم الذين تخلفوا وتقنيا واقتصاديًا واجتماعيًا رغم ما يمتلكونه من ثروات وإمكانات .

الإسلام والشورى :

لم يقف الإسلام من الشورى عند حد اعتبارها حقًا من حقوق الإنسان .. وإنما ذهب فيها - كما هي عادته مع أعتبر في الحضارات الأخرى مجرد حقوق - ذهب فيها إلى الحد الذي جعلها " فريضة شرعية واجبة " على كافة الأمة حكمًا ومحكومين ، في الدولة وفي المجتمع ، وفي الأسرة وفي كل مناحي السلوك الإنساني .

فهو يتحدث عنها كفريضة واجبة على رسول الله ، صلي الله عليه و سلم ، في شئون الحكم والسياسة والعمران الدنيوي ، يقول الله سبحانه مخاطبًا رسول : - " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب القوم المتوكلين " . (آل عمران ١٥٩) .

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل للشورى هذه المنزلة .. فهي فلسفة سياسة الأسرة الصغيرة ، وفلسفة سياسة الرعية والدولة .. فلا غرابة إن رأيناه قد جعل منها واحدة من الصفات التي يتميز بها المؤمنون .. " فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا على ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون " (الشورى ٣٦ - ٣٩ ٩) .

فهذه الآيات ، وهي تعدد صفات المؤمنين تجعل من بين هذه الصفات أن يكون أمرهم شورى بيهم وليس حكرا لفرد أو فئة تستبد به وتنفرد من دون الناس ..

ولقد غدا السنة النبوية الشريفة من القرآن الكر يم مكان "البيان والتفصيل والتجسيد " : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " (النمل ٤٤) . " وما أنزلنا علي الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه " (النحل ٦٤) . فجاءت هذه السنة النبوية ، في الشورى ، بيانًا وتفصيلاً وتجسيدًا لما حواه القرآن الكريم في هذا المجال .. ونحن عندما نتأمل معنى الحديث الشريف الذي وصفت به عائشة ، أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، رسول الله صلي الله عليه و سلم ، فقالت : " إن خلق بني الله ، صلي الله عليه و سلم ، كان القرآن " عندما تتأمل هذا الحديث ، ندرك كيف كانت سياسة الرسول للدولة ، وسياسته لبيئته ، وسلوكه بين أصحابه التزامًا كاملاً بهذه الفلسفة التي شرعها الله في القرآن الكريم .

وهذه الشورى الإسلامية التي استقرت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة فلسفة للحكم وسبيلا لسياسة الرعية وخلقا للسلوك ، لم تذهب بانتقال الرسول صلي الله عليه و سلم ، إلى جوار ر به .. بل لقد استمرت حكمًا بعد حكم ، وخلافة بعد خلافة .. تلك هي الشورى الإسلامية .. وهكذا جعل الإسلام ويجعل ، من الشورى فلسفة الحكم الإسلامي ، ومنهج سياسة الرعية ، وطريق السلوك السوي للفرد والأسرة والمجتمع .. فريضة إلهية وضرورة شرعية ، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان .. إنها ديمقراطية الإسلام والمسلمين .. جعلها الله فلفة الحكم في الإسلام ، وترك للأمة كامل الحق وكل الحرية في " إبداع النظم والتنظيمات والسبل والوسائل " التي تقترب بغايات الشورى ومقاصدها من الفعل والعطاء عندما توضع في الممارسة والتطبيق ..

الإسلام والعلم :

العلم ضرورة لأية نهضة حديثة تنشدها أمة من الأمم ، وخاصة إذا كانت هذه الأمة تواجه تحديات كثيرة وقاسية ، يفرضها عليها أعداء كثيرون ، كما هو الحال مع أمتنا العربية الإسلامية ، وليس من شك في أن الفتوحات العلمية التي ازدانت بها حضارتنا العربية الإسلامية في عصرها الذهبي ، قد لعبت الدور المتميز في الازدهار ، الذي حققته هذه الحضارة ، وأن الإنجازات العلمية المتميزة التي صنعتها هذه الحضارة ، في مختلف فروع المعرفة العلمية - بمعناها الرحب - هي التي وسعت أفق هذه الحضارة ، وأعطتها الصبغة العقلانية التي تميزت بها ، وجعلتها منارة العلم لعدة قرون .

ولا تزال للعلم صلاحيته حتى اليوم لما له من قداسة وثبات لينتقل بالأمة من التخلف إلى التقدم ومن الركود إلى النهضة ، ومن الكسل العقلي إلى التوقد العقلاني ، ومن الخرافة الساذجة إلى الروح العلمية التي طبعت فكر الإسلام ونهج المسلمين الذين دعوا خصائص هذا الدين الحنيف .

ومنذ البدء ، لابد أن نعي دلالة الاستهلاك الذي بدأ به الوحي رسالة الإسلام إلى رسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، لقد كان استهلالاً يعلن ميلاد جديد للإنسانية ، بلغت فيه سن الرشد والنضج ، فكانت كلمته الأولى (اقرأ) مقترنة بالحديث عن القدرة الشارع سبحانه وتعالى ، وعن نعمة وآلائه ، ومنها العلم .. والتعليم .. " اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم " (العق - ١ ٥) تكلف بدأت به آيات الكتاب ، وصاحب هذا التكلف سبحانه : - " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان " (الرحمن ١ - ٤) . والذي إذا أقسم كان قسمه : " ، والقلم وما يسطرون " (القلم ١ ٩ .

فالعلم هو نور البصر والبصيرة .. بينما الجهل هو الظلمة " أفمن يعمل أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب " (الرعد ١٩) . وفي الحديث الشريف يقول الرسول صلي الله عليه و سلم) ، : " مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة " .

لقد كان العلم السبب والسر الذي من أجله استحق الإنسان شرف الخلافة ، في الأرض ، عن الله سبحانه وتعالى .. ففاز بهذا الشرف دون سائر المخلوقات بمن فيهم الملائكة المقربون : " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " (البقرة ٣٠ - ٣٣) . لقد رجح العلم كفة من في طبيعته الخطأ على الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

إن تطور العلم الذي أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهامًا كبيرًا ، أغنى كثيرًا الرصيد العقلي للإنسانية جمعاء بحيث ساعد بدوره على تكون نمط جديد من التفكير ، وظهور أساليب وطرائق متجددة - مبدعة في دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية ، بحيث يعاد تشكيل اللوحة العالمية من منظورة وحدة التاريخ العالمي ، والتطور الثقافي - الحضاري للإنسانية بأكملها .

إن عولمة الحياة الإنسانية المعاصرة ، تشكل في الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر ، فالنمو المتصاعد للثقل النوعي للبلدان النامية في الاقتصاد العالمي وفي السياسة الدولية ، ونهضتها الثقافية - التجديدية (سواء مرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها ، أو بتنشيط التراث الثقافي التقليدي لهذه البلدان وإحيائه مجددًا) والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثروة العلمية - التقنية ، وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى ، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيري ، والسياحة العامة ، كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم ، وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضًا .

إن العلم في كل زمان ومكان هو أسا نهضته الأمم وتقدمها ، فبالعلم تكن كلمة الأمة هي العليا ، وكلمة أعدائها هي السفلى ، والعلم في الإسلام هو كل علم أصله الله سواء كان دينيًا أو دنيويًا .

وقد بين القرآن الكريم أن العلماء الذين حسنت صلتهم بالله هم الذين يبينون الفضائل ويدعون لاعتناقها ، فالعلماء يبنون ولا يهدمون ، يصلحون ولا يفسدون ، تبعًا ونون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . والعلماء الحقيقيون هم الأكثر خشية لله وتقوى له ، فقال تعالى : - " إنما يخشى الله من عباده العلماء " .

ولقد انتشر في القرآن الكريم الآيات التي تعلن عن أن هذا الكتاب الكريم هو في الجوهر والأساس ، كتاب العلماء الذين أوتوا العلم ، قبل أن يكون كتاب الذين لا يعلمون .. أنهم هم المؤهلون لفقهه ، وعقل الآيات التي تحدث عنها والأمثال التي ساقها . أما غيرهم فلهم مرتبة التقليد للعلماء والفقهاء : " كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون " (فصلت ٣) ، " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (العنكبوت ٤٣) . " بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون " (العنكبوت : ٤٩) . " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين " (الروم ٢٢) .

" وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون " (البقرة ٢٣٠) . " قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " (الأنعام ٩٧) " وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون " (الأنعام ١٠٥) . " كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون " (الأعراض ٣٢) .

ورغم توجه القرآن وشر يعته إلى الكافة ، فليس يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائمًا يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب " (الزمر ٩) .

قد يظن بعض الناس أن التفكير العلمي يتنافى مع الإيمان الديني ، حقيقة إن مناهج البحث التجريبي العلمي تفرض على العالم أن يستعبد من نطاق بحثه ما وراء العالم المحسوس ، لأن هذا لا يعالج بمناهجه التجريبية الاستقرائية . ولكن هذه المناهج لا توجب على العالم - كإنسان - أن يعيش فارغ القلب كافر بدينه . ومن أجل هذا كان الكثيرون من أعلام البحث التجريبي العلمي إذا فرغوا من دراساتهم العلمية ، باشروا حياتهم الدينية كما يباشرهم سائر الناس .. ولم يمنع اشتغالهم بالعلم التجريبي من أن يؤمنوا بعالم الغيب وخالق الكون ، وكل متطلبات الدين الصحيح . هكذا كان أئمة العلم التجريبي من الإسلام . وهكذا كان في القرب روبرت بويل وجاليليو ونيوتن ، وغيرهم من أئمة العالم الطبيعي .

العلم والعلماء :

ولما كان القرآن الكريم هو ، في الأساس ، كتاب العلماء .. الذين أهلهم علمهم لتدبر آياته ، وفقه مراميه ، ووعي الأمثال التي ضر بها ، كان العلم ، بنظر القرآن ، هو سبب الإيمان والسبيل إليه .. وتلك ميزة تميز الإسلام بها وامتاز على غيره من الديانات ..

والعلم هو جماع الوحي الإلهي ، فهذا الوحي هو كتاب ، وحكمة ، وعلم ، جديد توحيه السماء إلى المصطفين الأخيار من الأنبياء ليتسلموا به في صراعهم ضد المكذبين ، وليوظفوه في صناعة هداية الإنسان : " ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكمان فضل الله عليك عظيمًا " (النساء : ١١٣) ، بل إننا واجدون رسول الله صلي الله عليه و سلم ، يحدد لنا أن التعليم هو وظيفته وجوهر مهمته وجماع رسالته .. إنه بشير ونذير .. وأدائه هي العلم والتعليم فهو الرسول المعلم .

لقد حدد الإسلام في حسم ووضوح ، أن العلم هو سبب الإيمان وسبيل التصديق بالدين : " ألم تر أن الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها من الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور " (فاطر ٢٧ - ٢٨) . فالوعي بآيات كتاب الكون - أي العلم - هو الذي يجعل العلماء مؤمنين بر ب هذه الآيات .. بل إن ذلك كافل لأن يكونوا على حد الخشية لرب هذه الآيات .

وقد شاعت في المأثورات الإسلامية - قرآنًا وسنة - الآيات والأحاديث التي أحلت العلماء ، أرفع الدرجات .. " يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، ،إذا قيل أنشروا فانشروا يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبير " (المجادلة ١١ ٩ .

أما السنة النبوية فإنها تفيض في ذكر الأحاديث التي ترفع مكانة العلماء من مثل ذلك الذي يقول فيه الرسول صلي الله عليه و سلم " من سلك طريقًا يلتمس بع علمًا سهل الله به طريقًا من طرق الجنة ، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء . وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بخط وافر " .

وقد أنبأنا الله ، سبحانه وتعالى ، في القرآن الكريم ، أن العلماء : - مع الله والملائكة - هم الذين شرفوا بأمانة النهوض بهذا التكليف الجسيم والعظيم .. " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم " (آل عمران ١٨) .

لكن الإسلام لا ينظر إلى العلماء هذه النظرة إذا هم اختصوا بمنافع علمهم ، واستأثروا بلذته من دون الناس .. فالشريعة تتوجه للجمهور ، ومصلحة مجموع الأمة هي معيار الحل والحرمة ، والنفع والضرر .. والصواب والخطأ .. وما رآه المسلمون - كأمة - حسنًا فهو عند الله حسن .. ولذلك وجدنا المأثورات الإسلامية لا تضفى الشرف إلا على العلم الذي ينفع الناس ، فاقتران المبدأ بالغاية ، والمنطلقات بالمقاصد واحدة من مميزات النظرة الشمولية في فلسفة الإسلام ..

وفي الحديث الشريف يقول الرسول ، صلي الله عليه و سلم ، : " إن مثل علم لا ينفع كمثل كنز لا ينفق في سبيل الله " .

والعلم ليس فقط علوم الشرع والدين - كما أسلفنا - فالرسول ، صلي الله عليه و سلم ، عندما قال : " ما كان من أمر دينكم فإلى ، وما كان من أمر ديناكم فأنتم أعلم به " قد حدد أن نطاق العلم يتجاوز علوم الدين .

وينص حديث الرسول ، صلي الله عليه و سلم ، : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .. إنه ضرورة ، وفرض عين على كل إنسان ، وهو سبيل الهداية وأداة النجاة ..

الإسلام والعمل :

العمل في الفكر المعاصر هو المجهود الإرادي الواعي الذي يستهدف منه الإنسان إنتاج السلع والخدمات لإشباع حاجاته ، ومن ثم فإنه مجهود الحيوانات أو مجهود الإنسان لغير هذا الهدف لا يعتبر عملاً ..

وإذا كان مبدأ حرية اختيار نوع العمل مسلمًا به في ظل الشروط والأوضاع التي تنظمها بعض القوانين في العصر الحديث ، فإن هذه الحرية لم تكن متوفرة من قبل ، كاملة ، في العصور القديمة والوسطى ، وذلك مع سيادة أنظمة العبيد ورقيق الأرض والطوائف .

والعمل هو العنصر الفعال في طرق الكسب التي أباحها الإسلام ، وهو الدعامة الأساسية للإنتاج . وعلى قدر عمل المسلم واتساع دائرة نشاطه يكون نفعه وجزاؤه . قال تعالى : - " من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وليجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " (النحل ٩٧) .

والأصل أن يشبع الإنسان حاجاته المعيشية من ثمار عمله ، ونتاج سعيه إذا كان قادرًا على ذلك ، وإلا فإن حمايته ضد العوز تكون من مسئوليات الدولة .

ويقرر الإسلام هذه الحماية على أن الله هو الرازق ، كما في قوله تعالى : " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " (هود ٦) ، وأنه مكن الإنسان في الأرض ، ولذلك فرض الله على الإنسان أن يسعى ويحصل منها على ما يشبع به حاجاته ، وفي هذا قال الله تعالى : " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " (الملك ١٥) .

ومحصلة ذلك أن الله هو الكفيل بالرزق ، وليس على الإنسان إلا أن يسعى إلى ذلك ، مطيعًا ربه ، ومجتنبًا نواهيه .. وقد قرر الإسلام أنه ليس للإنسان إلا ما سعي ، وأن كل ميزة يحصل عليها أي فرد إنما تقاس بما قدمه من عمل صالح لربه وللناس .. ولهذا رفع الإسلام قدر العمل إلى مصاف العبادات ، فقال تعالى : - " .. علم أن سيكون منكم مرضي وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله " (المزمل ٢٠) .

إن الأنبياء وهم أفضل خلق الله ، قد مارسوا العمل في حياتهم ، فاحترف آدم الزراعة ، ونوح التجارة ، وداود الحدادة ، وإدريس الحياكة ، وسيمان عمل الخواص ، وزكريا النجارة ، وعيسى الصباغة ، ومحمد رعي الغنم والتجارة .. وكان في ذلك أكبر إدانة للفكر اليوناني القديم حيث أعتبر العمل من اختصاص الأرقاء والطبقة الدنيا من البشر ، وغير ذلك من الأفكار التي تحتقر العمل اليدوي ، وتتفرغ للتأفلات الفلسفية وغيرها من الأعمال غير المنتجة .

إن العمل مطلوب ، وخصوصًا أن فائدته لا تعود على العامل وحده ، بل على المجتمع بأسره .. وهنا يبرز العامل الاجتماعي للعمل ، إذ تتعلق مصالح الناس به ، إيجابيًا على أساس حاجة المجتمع إلى إنتاج هذا العمل من ناحية ، وسلبيًا على أساس تضرر المجتمع من الأعمال السيئة من ناحية أخرى ، ولهذا كانت بعض الأعمال فرض كفاية في نظر الإسلام كالزراعة والحدادة ، والنسيج والتجارة والطب والهندسة .. أي أن المجتمع كله ، كوحدة متضامنة ، يتحمل مسئولية أداء هذه الأعمال .

ويتفاوت مقدار الوجوب في هذه الأعمال حسب درجة أهميتها لتحقيق خير المجتمع ، الأمر الذي يتعين معه على الدولة الإسلامية أن تعمل على إظهار ذوي الكفاية ، وأن تكفل لهم الراحة والاستقرار .

ويأخذ العمل في المفهوم الإسلامي بعدًا اجتماعيًا ، وتقاس الأعمال في أهميتها وضرورة مراقبتها والتدخل في شأنها بمقياس حاجة المجتمع لها ونفعها له .

فالعمل حق وواجب وليس للمسلم أن يكسل عن أداء العمل باسم التفرغ للعبادة ، أو التوكل على الله ، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، ولا يحل للمسلم ، وهو قوى ، أن يعتمد على صدقه ، يمنحها ، فقد قال رسول الله صلي الله عليه و سلم " من سأل شيئًا عنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم ، وقالوا : وما يفنيه ؟ قال : قدر ما يغذبه ويعيشه " وقال " لأن يأخذ أحدكم حبلة ، ثم يغرو إلى الجبل فيحتطب ، فيبيع ، فيأكل ، ويتصدق ، خير له من أن يسأل الناس " .

العمل هو الذي يمنح الإنسان قيمته في الحياة وهو سبيل تقدم الأمم ، فإنه من الضروري أن يعمل كل إنسان حينما يكون قادرًا على ذلك ، وفي هذا يقرر ابن خلدون في مقدمته أن " الكسب هو قيمة الأعمال البشرية " وأن " الإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف ، سعي في اقتناء المكاسب " .

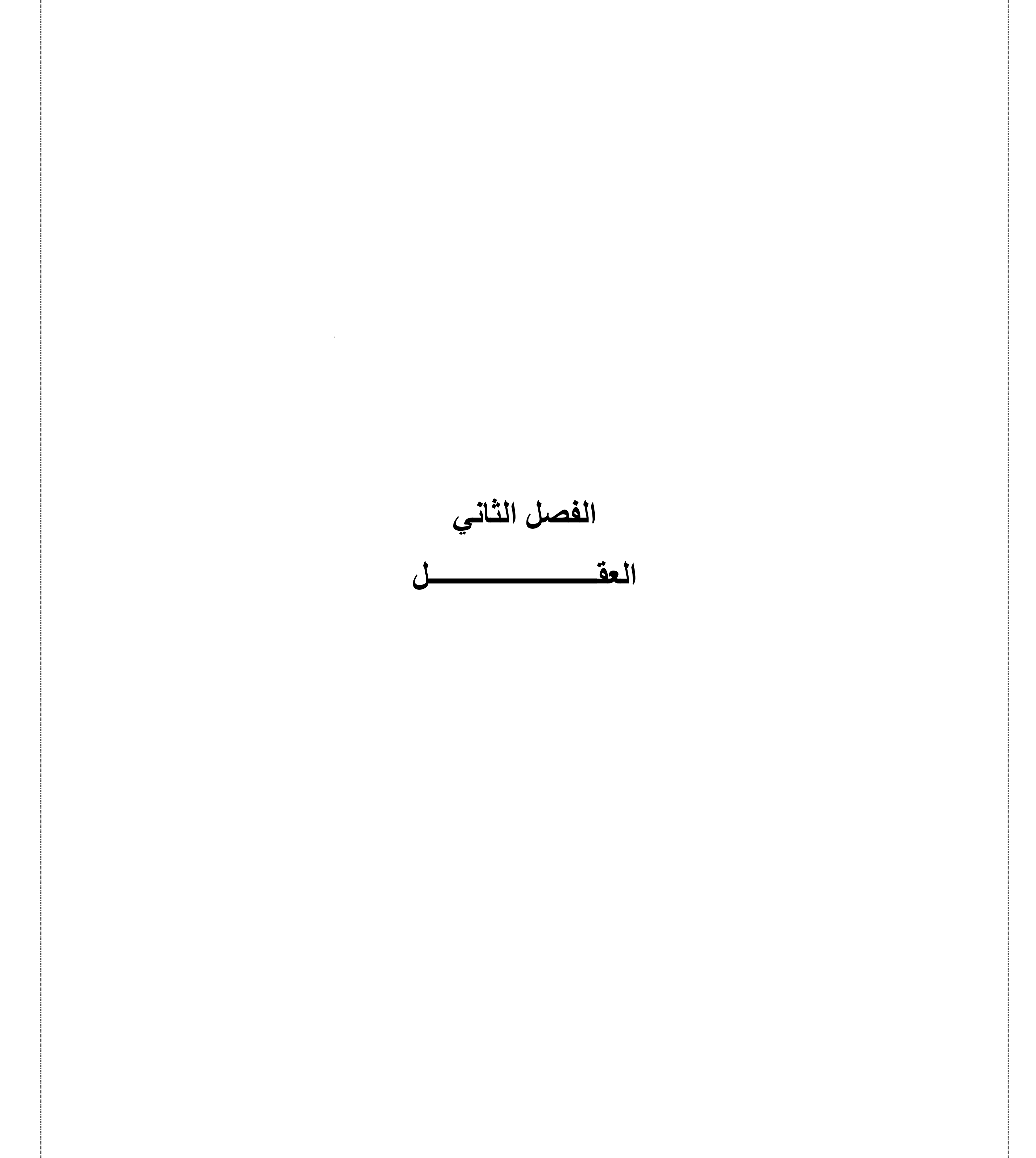
ويدعو الإسلام إلى استئجار الرجل الصالح الأمين " إن خير من استأجرت القوى الأمين " مسلما كان أو غير مسلم ، فالإسلام يدعو إلى التراحم والتعاون ، وقد عامل النبي صلي الله عليه و سلم يهود خيبر حيث دفع إليهم نخلها وزرعها ليعملوا بها ، فلا فرق بين مسلم وغير مسلم في العمل على أن يتحلى العامل بهذه الصفات : الأمانة والإتقان والوفاء بالعقود وارتضاء الحساب والخبراء ، والخوف من الله ، فالإسلام يدعو إلى مراقبة الله والخوف في كل شأن من شئون الحياة ، فالعمل الصالح والقول الطيب يرفعه الله إليه ، قال تعالى : " إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه " (فاطر ١٠) . ويحذر الله من مخالفة ذلك ، لأن المخالف لن يفلت من مراقبة الله وعقابه ، ولهذا قال " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " (الكهف ١١٠) ، ولا يعتبر هذا عنصرًا مستقلاً بالعمل وواجباته ، وإنما هو أساس للأمانة والإتقان والوفاء .

ويؤكد الشيخ محمد الغزالي على الصلة لتي تربط بين العمل والخبراء ، يصر على أن حساب الله الأخير لن يغفل - مصداقًا للآية القرآنية الكريمة - مثقال ذر ة من خير ، ولا مثقال ذرة من شر في أعمال الإنسان ..

لقد حث الإسلام على العمل ونفر من التكاسل والتواكل ، قال تعالى : " فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله " (الجمعة ١٠) وفي الأثر " أعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وأعمل لدنياك كانك يعيش أبدًا " .. وروي أن امرأة عثمان بن فطعون دخلت يومًا على نساء النبي فرأيتها سيئة الحال ، فقلن لها ، مالك

، فما من قريش رجل أغنى من بعلك ؟ قالت : ما لنا منه شيء ، أما ليلة فقائم ، وأما نهاره فصائم ، فدخلن على النبي فذكرن له ، فلقيه فقال : يا عثمان ، أما مالك بي أسوة ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ، وما ذاك ، قال : تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : إن لأفعل ، قال صلي الله عليه وسلم : لا تفعل : إن لعينيك عليك حقًا ، وإن لجسدك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا ، فصل ، ونم ، وصم ، وأفطر " ..

لقد كان الإسلام منذ بدايته دين عمل أكثر منه دين إيمان . ولم يكن النصف الأول من إعلان الإيمان الإسلامي وهو " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ليشكل أي مشكلة لمعاصري محمد صلي الله عليه و سلم ، الوثنين في الجزيرة العربية ، بل كان أقل من ذلك إشكالاً بالنسبة لإتباع الأديان السماوية في الأرض المحيطة بها حين اعتنقوا دين الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربي للبلاد . وكانت الشهادة بأن محمدًا رسول الله تعني من الناحية العملية الطاعة المطلقة للرسول ..



الفصل الثاني

العقـــــــــــــل

الإسلام والعقل :

فلو تباينت لغة خطاب الدعاة مع كل مجتمع من منظور احتواء همه الإيماني لهمه الدنيوي ، من خلال منظور معاصر لأحكام القرآن والسنة . لقد أمرنا الله بتدبر ما حولنا فرض عين ، ومن المحال أن يرى الإنسان بعين سلفه أو عقله ، فكل زمان متطلبات ، والعقل لا يمس أموراً تعبدية مفروضة . من هنا لا يملك بشر من المجتهدين ما لم يكن دعيا ، أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً ، فإذا كان حد الله عدم المساواة بين الذكر والأنثى في الميراث إلا عند ما يرث الأبوان ابنا ليس له ولد ، أو في إرث الكلالة ، فليس من العقل تجاوز حد الله ..

إن العقل يكون مجموعة من الإدراكات للسنن الإلهية يراها فيما حوله من الكون الفسيح ، ولقد تكلم القرآن عن هذه السنة الإلهية وبينها ، وهي تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري ، وهي التي تتحكم في المسلم عند نشاطه واختياراته ووضع برامجه وأهدافه ، حتى إذا ما غابت هذه الإدراكات عن ذهن المسلم ، فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم ، ويضع إستراتيجيات أخرى غير التي أمر الله بها .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الأكوان مختلفة في ظاهرها ، لكنها متحدة في الهدف والغاية ، فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد ، فالليل والنهار يشكلان يوما واحداً لكل منهما خصائص ، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص ولكل منهما وظيفة ، والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة ، والغني وال٦فقير ، وهكذا .. ففهم من ذلك أن أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع ، وأن التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشر ، وأن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني .

ويضف الدكتور أحمد السايح أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر : العلاقة بين الدين والعقل بأنها علاقة انطلاق وإيمان ، ولولا العقل ما كان هناك إيمان بالدين .. فالعقيدة الإسلامية عقيدة الفطرة تتناسق تعاليمها مع الفطرة السليمة ، ويجد العقل المستنير في تعاليمها الحق والخير لأنها منزلة من عند الخالق العظيم ، لذلك فالإسلام لا يعتمد في ثبات تلك العقيدة وغرس شجرتها في القلب مجرد التلقين أو اعتقادها عن تقليد ، بل لابد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وإدراك . ولا يخفي أن الفطرة في الإسلام ليست تفكيراً خالصاً ، ولا سفورا محضا ، إنما مزيج من التفكير والشعور ، والطريقة العقلية في التفكير هي التي تدرك وجود القيم الروحية والخلقية ، وتستطيع الوصول بالفكر إلى الإيمان بالله تعالى ، وتعمل على تحديد الإنسان من سيطرة الحياة المادية . فالإيمان بالله الذي هو أساس التدين الصحيح يسهم فيه التفكير العقلي ، وبدون المنهج التفكيري يصاب التدين بفوضى وضياع يؤدي إلى طمس شخصية المسلم .

والإسلام الحنيف يخاطب العقل الإنساني بكل ما احتواه من وظائف ، والعقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ، ويدرك الحقائق ويتبصر ويتدبر ، ولأن العقل في الإسلام على علاقة وثيقة بالتدين فقد أتخذ الإسلام له منهجاً فريداً ليظل العقل عاقلاً ، والفكر راشداً ، وأول دعائم هذا المنهج تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي ، وسيطرة التبعية العمياء ، لأن كمال العقل واستقامة التفكير أساس في صحة العقائد ، وكمال التدين . وثاني الدعائم هي تحرير الإنسان من طاعة الأهواء ، والانقياد الأعمى لمغرياتها . أما ثالثها فهي تحرير الإنسان من أصعفاد الجهل وظلمته ، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر ، ويطفئ نور القلوب ، ويعمي البصائر ، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة والسلوك الحسن .

ويذهب أبن رشد بوجود ثلاثة أنواع من العقول : فالنوع الأول هو العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقيني محكم وتصل إلى نتائج بينة ضرورية ، وربط هذه الأدلة هو الذي يكون الفلسفة . لكن هذا لا يتسنى إلا لقلة من العقول (الخواص) الموهوبة بالقدر الذي يجعلها تكرس نفسها لها . والنوع الثاني : عقول منطقية تكتفي بالبراهين الجدلية . أما النوع الثالث فهو العقول التي تستجيب للوعظ والأدلة الخطابية . وهذه غير مهيأة لا يستجيبون إلا للخيال والعاطفة وحسب .على أن أحد وجوه الإعجاز في القرآن ، كما يقرراً بن رشد ، هو أن فهمه ويسر لهذه الأنواع الثلاثة من العقول ، فكل منها يتبين الحق فيه فيما يتفق مع قدرته العقلية . فليس هناك مشكلة بالنسبة للآيات القرآنية المحكمة التي لا ليس في معناها . فالجميع يفهمونها ويدركون معناها على نحو واضح . وهناك آيات متشابهة لأن فيها أمثالاً ومجازات . ولهذه الآيات معنى حرفي وآخر خفي أعمق . والفلاسفة وحدهم ، وهم صفوة العقول ، هم الذي يستطيعون أن يدركوا التسلسل الدقيق للاستدلال وأن يفهموا المعنى الأعمق . أما الجمهور فإنهم يفهمون النصوص بمعناها الحرفي . وينبغي الحذر من السماح لهم بالنظر إلى المعنى العميق الخفي الذي تخفيه تلك الآيات لأنهم لن يفهموا فيتزعزع إيمانهم . أما الذي يحدث الغرض ويبذر الاضطراب فهو تشغيب المتكلمين الذين لم يستطيعوا إدراك الدليل البرهاني ، فلجأوا إلى الأدلة الجدلية التي لا تثبت شيئا . وابن رشد لا يخفي استهزاءه بأولك المفسدين ، ولا يتردد في اللجوء إلى السلطان لكي يمنعهم من الاستمرار في أعمالهم الخاطئة ..

دائماً ما يتهم أعداء الدين الإسلامي أتباعه بأنهم يعطلون عقولهم ، وأن الدين هو السبب في الجمود الفكري الذي يعيشون فيه ، ويتجاهل هؤلاء أن هناك أسباباً أخرى لهذه الحال التي تمر بها الأمة الإسلامية ، وليس من بينها الدين الذي يعتبر أن التفكير والتدبر في خلق السماوات والأرض والإنسان وجميع الكائنات أمر إلهي ، وأن العلماء

لهم منزلة عالية فهم ورثة الأنبياء .. لكن ما هي الحقيقة التي يحاول أعداء الإسلام إخفاءها ؟ وهل صحيح ما يرددونه عن ديننا الحنيف وأمتنا الإسلامية؟ وما هو دور علمائنا وكتابنا على هذه الاتهامات ؟

إن معرفة الأسباب الحقيقية لحالة " عدم إعمال العقل " إذا افترضنا أنها مرتبطة بالمجتمع الإسلامي تستلزم منا الشفافية ، وتتطلب منا أولاً تحديد علاقة الدين بالعقل والعلم .. وبعدها يطرح أولو الاختصاص أبعاد المشكلة على مائدة البحث والنقاش ، يبدأ أصحاب الأمر والقرار العمل الجاد لمواجهة هذه المشكلة من جذورها الحقيقية ، وليس في الاتجاه الذي يريده أعداء الدين توجيهنا إليه .. فهم لا يريدون الخير لأمتنا وإلا ما حاربوا معتقداتنا علنا .. وما منعوا عنا عوامل النهضة العلمية ، وما عقوا الفجوة التكنولوجية بيننا وبينهم لتظل المسافة بعيدة ، والهوة عميقة .

ويقول الدكتور محمود حمدي زقزوق : إن الإرادة الإلهية اقتضت منذ بدء الخليفة تزويد الإنسان بنعمتين من أعظم النعم هما العقل والدين ، وكل منهما يتكامل مع الآخرين من أجل سعادة الإنسان في دنياه وأخراه ، فالعقل والدين يتعاونان معا من أجل خير الإنسان ، وهما في التصور الإسلامي لا يفترقان ولا يتناقضان . وقد أكد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي هذا الربط الوثيق بين العقل والدين في الإسلام بقوله : (العقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس ، فالعقل شرع من داخل ، والشرع عقل من خارج وهما متعاضدان بل متحدان ، ويقول تعالى : " وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " والتفكير هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان ، ولا يجوز للإنسان أن يقف موقف اللامبالاة منه ، بل ينبغي أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً يتمثل في دراسته والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير ، وذلك من خلال العلم والدراسة والفهم وهو ما سيؤدي إلى الرقي المادي والروحي معاً . ولم يبلغ الإنسان كل هذا التكريم الذي سم به فوق كل الكائنات إلا بالعقل الذي اختصه الله به ، وميزه على سائر المخلوقات . ولذلك فإن محاولة تعطيله تعد تعطيلا للحمة التي أرادها الله من خلق العقل مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التي أنعم الله بها عليه عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها ، والذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان . يقول تعالى : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " . ومن هذا المنطق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا ، وذنباً من الذنوب ، وسيحاسب الإنسان على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية . يقول تعالى : " إن السمع والبصر والفؤاد وكل أولئك كان عنه مسئولا " من هنا جعل الإسلام التفكير واجباً مقرراً وفريضة إسلامية .

ويرى المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة أن الذين يدركون مقام العقل في الإسلام لا يمكن أن يخطر ببالهم إمكانية تغييب هذا العقل . لقد كانت المعجزات قبل نبوة رسولنا مادية تدهن العقل فتشله عن التفكير . أما عندما بلغت الإنسانية سن الرشد ، وشاء الله ختم رسالات السماء إلى الإنسان كانت معجزة الإسلام عقلية لا تدهن العقل فتشله عنالتفكير ، وإنما تستثيره وتستحثه على التفكير ، ولذلك جاء الحديث الصريح عنالعقل في القرآن في ٤٩ آية ، وجاءت مئات الآيات التي تتحدث عن مرادف العقل مثل اللب والتدبر والفكر والحكمة وغيرها . ولقد جاءت كثير من آيات القرآن تستخدم المنطق والعقل في الاستدلال " لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا " . وجاءت السنة النبوية لتطبق العقلانية القرآنية.

فكثير من الأحاديث تحدث عن العقل ومنها قول نبينا صلي الله عليه و سلم (العقل) أل ديني وعليكم بالقرآن فإنه نور الحكمة وأقرب الكتب بالرحمن عهدًا) . ولهذا الموقف الإسلامي من العقل كان فهم المسلمين أن الحكم التي هي الصواب البشري منحة إلهية ، وكما أنزل الله تعالى الكتاب أنزل الحكمة ، يقول الإمام محمد عبده ، (فلقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس) من هنا تميزت الحضارة الإسلامية بنشأة العقلانية المؤمنة من القرن الهجري الأول . ونظرًا لأهمية مقام العقل في الإسلام أحيا المسلمون المواريث العلمية والفلسفية للحضارات القديمة التي قبرت كتبها ، وحسبت في الصناديق المغلقة ، وأيضًا أينا التيار العقلاني يتبناه مسلمون من مذاهب وتيارات فكرية متعددة ، فهناك من طوروا الفكر الفلسفي بالعقلانية مثل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهناك من جمعوا بين الأصولية والتصوف والفقه والفلسفة مثل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، فضلاً عن مدرسة المعتزلة الذين يمثلون فرسان العقلانية الإسلامية في القرآن . وكما عرفت الحضارة الإسلامية عصور الازدهار والإبداع عرفت أيضًا عصور التراجع والاضمحلال تحت حكم المماليك والعثمانيين الذين تراجعت فيها العقلانية مع مختلف قسمات الحضارة الإسلامية ، لكن نهضتنا الحديثة قد عرفت العودة إلى العقلانية والإحياء العقلي بدءًا من رفاعة الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده وغيرهم ، من الذين عادوا بالعقل المسلم إلى هذه العقلانية المؤمنة ، فلقد تميزت عقيدتنا الإسلامية عن العقلانية اليونانية القديمة والأوربية الحديثة بأنها لم تكن ثورة على الدين ، وإنما كانت تابعة منه ، وكانت سلاحًا من أسلحة الإيمان الديني ، صحيح إن الدنيا تيارًا نصوصيًا يقف عند ظواهر النصوص ، ويخلط بينت العقل والهوى فلا يستخدم العقل في فهم النصوص . وأيضًا هناك غرق الشعوذة والخرافات فعطل العقل والنقل مما ، لكنها تيارات هامشية لا تمثل التيار العريض من الفك الإسلامي تيار الوسطية والعقلانية المؤمنة ، لذلك يجب أن نفسح المجال أمام هذا التيار من خلال تدريش تراث هذه العقلانية في مدارسنا وجامعاتنا ووسائل الإعلام لتماصر البؤر غير العقلانية من النصوصين والمشعوذين.

وفي كلمة ألقاها بعنوان " الطيب والخبيث في الدعوة إلى تغيير مناهجنا الدينية وخطابنا الديني " قال : إن المسلمين فقراء في التجديد ، أغنياء في التفكير ، وأن الجمود سبب الفراغ الذي يتمدد فيه التقريب ، وأن تيار الإحياء والتجديد والوسطية يحارب في جبهتي الجمود والتغريب .

إن مشكلتنا في التعليم الديني وخطابه هي الفصام بين الدين والمدني في ثقافتنا سواء بالجمود الذي يجعل الواقع أو بالتقريب الذي يفقه الواقع بمعايير غربية .

إن المطالبة الأمريكية والأوربية التي جاءت تحت عنوان (تغيير مناهج التعليم الديني وتطوير الخطاب الديني) هي جزء من المشكلة وليس الحل ، وهو تصعيدها وللتقريب الذي جاء به الاستعمار.

وأن الانصياع لذلك دعم التيار الجمود والتقليد في الفكر الإسلامي ، ونمو لتيار العنف والقضيب .

ووصف مطالب الفكر الغربي تجاه الفكر الإسلامي بالتبديد ، موضحًا أن التجديد هو استصحاب الثوابت وفقه الواقع المتغير في ضوء هذه الثوابت ، ينما ما يريده الآخر هو الحداثة التي تتطلب إقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وخصائصه الجوهرية .

وقال : هذه المشكلة التي نجاهد للخرج منها يريد القرب تكريسها ، وتعميقها ، وأن حل هذه المشكلة ليس في الحداثة الغربية أو العلمانية ، وإنما في التجديد الإسلامي الذي تمثل في معالم الشروع النهضوي الذي أبدعه علماء الإحياء والتجديد والوسطية .

وقد طالب بتجديد الفكر الإسلامي ومفاهيمه في قلوب المسلمين وعقولهم ، وأن الإسلام يحتاج إلى التطابق بين الفكر والدين . وأن التجديد هو تنقية الدين ، وإعمال العقل في النصوص لمعرفة أحكام الله تعالى ، مع وجود فروق بين التجديد الذي نقله لإمام مع الحافظ على الثوابت ، وبين الاجتهاد والتطوير والتغيير .

إن أحكام القرآن القاطعة تبلغ نحو ٢٤٦ آية تقريبًا ، بينما باقي الآيات تحتاج إلى الاجتهاد ، وأن تفسير القرآن لم يتغير منذ عهد الإمام محمد عبده .

وقال آخرون : إن مهمة الخطاب الديني ينبغي أن تتجه إلى استقراء الواقع ، وأن يسلك الاجتهاد طريق التجديد ، ويدرك تطور العصر وأسباب تقوقع العالم الإسلامي ، وسيادة النموذج الغربي ، وتقريب الإسلام وشريعته في عقر داره . ودعا العلماء إلى التصدي لمسئولياتهم تجاه الأمة والوطن ، ومواجهة فوضى الإفتاء والمشكلات التي تفرض المسلمين ، وتحول دون نهضتهم انطلاقًا من بتين فقه التعددية ، وقبول الاختلاف ، إن منهج التعددية والتنوع في الرأي مطلوب في إطار الفهم الصحيح لحرفية النص ومقاصد الشرع والأصالة والمعاصرة والثوابت والمتغيرات .

لقد اقتضت الإرادة الإلهية منذ بدء الخليفة تزويد الإنسان بنغمتين من أعظم النعم وهما العقل والدين ، وكل منهما يتكامل مع الآخر من أجل سعادة الإنسان في دنياه وأخراه .

فالعق من شأنه أن يرشد الإنسان إلى كل وجوه الخير في جميع مجالات الحياة ، وبه يميز الإنسان الخير من الشر ، والنافع من الضار ، ويهتدي إلى سائر العلوم والمعارف تنهض بحياته وترتقي بها.

ونظرًا لأن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان الحرية فإنه قد يسيء استخدامها فيحدث النزاع والشقاق بين الناس ، وتختلط أمامهم معالم الطريق . وعندئذ تأتي هداية الدين لتصحيح المسار ، وتعيد الإنسان إلى الطريق الصحيح الذي قال الله فيه : وإن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فنفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

فالعقل والدين إذن يتعاونان معا من أجل خير الإنسان ، وهما في التصوير الإسلامي صنوان لا يفترقان ولا يتناقضان ، وآيات القرآن تبين لنا أن الإنسان الذي لا يستخدم عقله يعد بمثابة إنسان قد تناول عن إنسانيته ، وبدون العقل لا يمكن فهم الدين . وقد أكد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي هذا الربط الوثيق بين العقل والدين في الإسلام ويقول الشيخ محمد عبده : " لقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس عمل لسان بني مرسل بتصريح لا يقبل التأويل " .

إن دعوة الإسلام لا تقوم إلا على من العقل والدين والإقناع وليس على الإرغام والقهر ، فلا إكراه في الدين ، والعقيدة لا تعر ف العنف أو الإرهاب ، فالرحمة هي عنوان الإسلام ، وهدف الدعوة الإسلامية - كما جاء في القرآن الكريم - وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

وعلى الذين يتحدثون عن الإسلام من عالم اليوم من غير علم أن يدركوا ذلك جيدًا ، وأن يعتمدوا على مصادر الإسلام الأساسية ، وألا يدركوا إلى تصورات فاسدة وإفهام باطلة لا صلة لها بالإسلام .

إن الأمة الإسلامية في حاجة إلى العقول الرشيدة التي تنير لها طريقها لتصحيح مسارها ، والأخذ بأسباب القوة في جميع المجالات حتى تنهض الآمة عن عثراتها ، وتحظى بالاحترام والتقدير بين الأمم ، وتتبوا أمكانها اللائق بها في عالم اليوم .

وإذا كان النبي صلي الله عليه و سلم ، قد حذرنا على المستوى الفردي من إضاعة هذه الفرصة المتاحة أمامنا .. إن المسلمين في عالم اليوم في مفترق الطرق ، وهم في اشد الحاجة إلى مزيد م التعاون والتضامن والتكافل على جميع المستويات حتى يكونوا قادرين على مواجهة التحديات ، والتغلب على كل ما يعترض طريقهم من صعوبات والسير قدمًا نحو التقدم والارتقاء ، وبذلك يكون في استطاعتهم صنع مصيرهم بأنفسهم ، والمشاركة الفعالة - في الوقت نفسه - في صنع مصير هذا العالم الذي نعيش فيه ، والذي هو عالمنا جميعًا ..

إن عالمنا الإسلامي في حاجة ماسة إلى نموذج رائد يكون قدوة حسنة ، ومثالاً يحتذي ، ورسولنا العظيم خير نموذج للبشرية جمعاء ..

إن الخطاب الإسلامي يقر شرعية الاختلاف في الفكر ، ويحث على الإعداد ووضع الرؤى والتصورات لاستشراق مستقبل أفضل ، وشدد على أن خطاب الوسطية ينبغي ألا يؤدي إلى الخلاف والشقاق والصراع ، وأن يحافظ على هوية الإسلام ومحكمات الشريعة ، وأن يعتمد الاجتهاد والتجديد وسيلة لاستعداد دور المسلمين الفعال في الارتقاء بالحياة ، بالإضافة إلى عدم احتكار الحقيقة ، ومصادرة الرأي الأخر .

إن الخطأ في فهم الخطاب الديني يعود إلى عدم وضوح مفهوم العبادة في الإسلام بسبب تقسيم النشاط الإنساني إلى الديني واللا ديني ، وأن أزمة الخطاب الديني لا تتمثل في المنهج ، وإنما في الذين يمارسونه .

إن تجديد الخطاب الديني يتطلب ضرورة الاستفادة من منهج الخطاب الإلهي في الدعوة إلى الله ، ومن كل جديد تتضح به الحياة المعاصرة ما لم يكن إثما ، بجانب فهم الواقع واستيعاب الميزات التي تميز اليوم عن الأس ، وفهم مواقف الآخر ودوافعه ، وضرورة انتقاء الأساليب والوسائل المناسبة ، والتصدي للخلافات بين الجماعات الإسلامية ، والطوائف المذهبية حرصا على وحدة المسلمين .

صحيح أن الديمقراطية مفهوم غربي في الأساس ، لكن جوهر الفكرة قائم في القرآن الكريم ، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وسيرته سيرة عدد من حكام المسلمين والمجتمعات الإسلامية من بعده .

وقد بينت التجارب المعاصرة أن بالإمكان اعتماد وصيغ مختلفة من الديمقراطية تراعي خصوصيات الشعوب وثقافتها ، لكنها تضمن في كل الأحوال حرية الاعتقاد والتفكير والعبادة والتعبير والتنظيم .

إن التركيز على بناء إجماع أو شبه إجماع تنخرط فيه الأمة وجمهور العلماء والباحثون والسياسيون حول هذه الفكرة المركزية سنيقل المسلمين نقلة توعية نحو الأفضل ، وسيضعهم في موضع يؤهلهم لاختصار الزمن وسد الفجوة الهائلة التي تفصل بينهم وبين الغرب .

ويقول الدكتور حميد صبح طه أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر : إن عدم الاجتهاد لمعرفة حكم الله تعالى في المستجدات العلمية والسياسية ، وبيانه للناس يعد ذنبًا عظيمًا ، كما أنه تعطيل لنعمة كبرى أنعم الله تعالى بها على بني الإنسان ، وهي نعمة العقل التي منحنا الله تعالى إياها للتدبر والتفكير والنظر .

فالمسلمون الآن في أشعر الحاجة إلى الاجتهاد ، وإعمال عقولهم لمعرفة أحكام الله تعالى فيما جد من مسائل في غير دائر ة الثوابت الدينية المسلم بها . فالله تعالى لم يكلفنا بما انتهى إليه تفكير غيرنا ، بل كلفنا بما تهدينا إليه عقولنا المهتدية بنور الوحي الإلهي . والاجتهاد الذي نريده هو الذي لا يميع الأحكام فيحل لمن يريد الإباحة ، ويحرم لمن يريد التحريم ، أو يضيع ثوابت الدين وأصوله ، بل يحفظها ويراعي في ذات الوقت التغييرات التي ينبغي مراعاتها ، وهو أيضًا الاجتهاد الذي يصدر من المؤهلين للنظر في نصوص الشرع .

من ثم فإن الإسلام يقبل من المسلم أن يكون متفتح العقل ، قوى الفكر ، بعيد النظر يستطيع استبانة الأمور بحذق ، ويقدر على فهمها بذكاء ، وإلا فإنه يسيء إلى الدين ، ويشوه عند الآخرين صورته .

إن الإسلام هو المنهج الأقوم لتكوين أمة ناهضة راشدة ، لكن بعض إتباعه قصروا تقصيرًا شديدًا ، فلم يسحنوا عرضه وتقديمه للعقول المستنيرة ، والدين ليس مسئولاً عن تقصيرهم ، فلا يوجد دين سماوي دعا إلى إعمال العقل كالدين الإسلامي . أما أسباب العجز والتقصير فهي متعددة ، فهناك عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية دينية وغيرها ، لكن أبرزها الفهم الخاطئ لماهية العلم ، فقد فهم كثير من المسلمين خطأ أنه العلم المتصلة اتصالاً مباشرًا بالدين كالتفسير والحديث والفقه واللغة فحسب . الأمر الذي أدى إلى أن يدير المسلمون ظهورهم عن الدنيا وعلومها فترددوا إلى الفسح ، وصعد غيرهم للقمة . وهناك أيضًا مشكلة هي احتكار العزب لكل وسائل النهوض والتقدم لفرص ثقافته ، وتعميم نمطه الأخلاقي على العالم العربي والإسلامي ، ولن نستطيع مواجهته إلا بالتمسك الواعي بالدين .

ويقول الدكتور المحمدي عبد الرحمن أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر : إن بعض الكتاب الغربيين اعتادوا وصف الفكر الإسلامي بأنه فكر غيبي ينقصه الالتزام بالمنهج العلمي الذي يدعوا إلى إعمال العقل ، رغم أن الدراسات المنصفة انتهت إلى أن تفكير المسلمين العلمي يعتبر أساسًا للمنهج ، ولا يختلف كثيرًا عن المنهج العلمي الحديث . والإسلام تميز منذ انطلاقته الأولى بمبادئ عديدة أولها التوحيد ، ويتداخل مع موضوع التوحيد موضوع أخر هو الخطاب العقلاني ، حيث يستخدم البرهان الذي أفاد منه الفلاسفة الإسلاميون ، لقد جعل القرآن العقل أداة أولية في حياة الإنسان ، ودعا إلى استخدامه في البحث عن الكون كأحد أركان العبادة ، كما في

قوله تعالى : " إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لقوم يعقلون " . والعلم هو الطريق السليم في بحث أسرار الطبيعية بأسلوب قائم على البرهان التجريبي ، وليس على التخمين والظن ، ويبني القرآن الكريم العلم على المنطق الأساسي في قانونين أساسيين : الأول هو ثبوت الفطرة واستقلالها ، أما الثاني فهو لا تناقص مطلقًا بين الحقائق ، قال تعالى : " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور " .

مهاجمة العقل :

إن معرفة طريق الله في الإسلام العقل ، ومناط التكاليف فيه .. العقل .. والحكم في نصوصه ومأثوراته : العقل .. ووحيه معجزة عقلانية لا تدهش العقل ، وإنما ترعى وتشحذ وتنمي ماله من قدرات وملكات ..

ويعتبر الإمام الشيخ محمد عبده أكبر نصير للعقل بين قادة الفكر الديني المحدثين في مصر ، لأنه انتصر للعقل ، وكفل له حرية الانطلاق في تطهير الدين مما أفسده من منكرات وبدع ، وتنسيق مبادئ العقيدة الإسلامية في ضوء الفكر العصري الحديث ، وتحرير العقل من قيود التقليد .. فسبق بذلك زمانه ، كما تشهد بهذا فتاواه التي شغلت صحافة مصر والعالم الإسلامي في عصره ، وأثارت المعسكرات الدينية المحافظة من ناحية ، ورجال السياسة من ناحية أخرى .. فانهالوا عليه سبا وطعنًا وتشهيرًا ..

وأخذت الحملة على العقل تتردد في مصر ، فقيل : أخطأ اليونان قديمًا حين استمسكوا بالعقل واعتزوا بمنطقة ، وأخطأنا نحن حين أخذنا عنهم هذه النقيضة .. وقبل أيضًا عن الإمام محمد عبده : إنه أخطأ حين فسر القرآن الكريم بالعقل ، وكان ينبغي أن يفسر القرآن بالقرآن .. - هذه وجهة نظر - .

هذا إلى أن الذين يجمدون العقل ويعتزن بمنطقه ، يعيشون في برج عاجي يكاد يكون مقطوع الصلة بالناس ، بل إنهم - في الأغلب والأعم - ينادون بأعلا صوت العقل كلامًا ، بينما تجر ي حياتهم على تعارض مع أبسط مقتضيات العقل .. ومع هذا يتولاهم الوهم بأنهم خلقوا في الرأي العام يقظة عقلية ، وبعثوا في حياته نهضة فكرية ..

إننا ونحن نؤرخ واقعنا الفكري - نجد أن كل قطاعات حياتنا الفكرية تستلهم العقل المسالم ، دوامًا وغر شذوذ ، ونقصد بهذا العقل الذي يفكر دائمًا في إطار من المألوف للناس ، لا يصدم عرفا شائعًا وإن كان مخطئًا ، ولا يتعارض مع رأي ذائع بالغا ما بلغ فساده . وهذا وإن كان أدى إلى الاستقرار فإنه يعوق التطور ويمنع التجديد .

هذا هو واقعنا في حاضرنا . أما عن مستقبل حياتنا الفكرية فإننا لا نعتقد أنه - بالغة ما بلغت الجهود لتطويره - سيتغير عن حاضرنا في يوم قريب ، لأن التغير لا يدرك مصائر الحياة الفكرية عند الشعوب إلا على مدى بعيد جدًا ، وهذا قدرنا فلنعتصم بالصبر ، ونستهدي الله فيما ستئول إليه أمورنا ، والله يوفقنا ويهدينا إلى طريق الصواب .. ولا ندري ماذا يكون الإنسان بغير العقل الذي وهبه الله له ، وميزه به عن سائر الكائنات ..

إن الفقه الإسلامي ، إنما هو ميراث النبوة ، إنه شرح الوحي ، أو بتعبير أدق : إنه ترجمة للوحي ، واستنتاج من وقاعدة العامة ، وإتباع لسلوك الرسول صلي الله عليه و سلم ، باعتباره المسلم الأول (وأنا أول المسلمين) . أو باعتباره المطب الدقيق لما أوحاه الله تعالى على قلبه ، رسالة إلى الإنسانية لهدايتنا ، إلى الصراط المستقيم .

إن الفقه الإسلامي إتباع ، وليس ابتداعًا ، وإنه محاولة جاهدة للكشف الآثار النبوية والتزامها . وليس اختراعًا يؤلفه بشر ، ولقد كان أئمتنا ، رضي الله عنهم : ينتهون بأقوالهم ونزعاتهم وسلوكهم ، إلى هذا الأمر البدهي عند ذوي الشعور الديني . لقد كان شعار أئمتنا جميعًا رضي الله عنهم : (إذا صح الحديث فهو مذهبين) . (إنما أنا متبع لا مبتدع) ، (كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة الشريفة) وصاحب هذه الروضة الشريفة : هو وحده الإمام ، وكان ما أتي به قرآنًا كان ، أو حديثًا قدسيًا ، أو حديثًا نبويًا شريفًا ، إنما هو مقدس ، لأنه ما ينطق عليه عن الهوى ، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة ، ولأن من إطاعة فقد أطاع الله ، ومن أتبعه فقد أحبه الله ، (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى) (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) (قل غن كنتم تحسبون الله فأتعبوني يحببكم الله) .

كان سلفنا الصالح ينزعون هذه النزعة : " نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول صلي الله عليه و سلم ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم ، بأرواحهم وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ، ويجعلونه القائد ، الحكم ، المهيمن .

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم في النص ، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشري في النص ، وكانوا يعرفون إن الوحي جاء هاديًا للعقل ، قائدًا له في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها ، أو يقتحم حماها ، أو يدلي فيها برأي يتفق عليه الناس ، وهذه الميادين هي الدين ، وما دام الدين ليس رأيًا بشريًا لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فإن كل موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهيًا إلى أن يكون بشريًا .

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك ـ أي على التبديل ـ لما كان هناك حاجة إلى الدين ، يروي عن سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ قال : لو كان الدين بالرأي ، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه . لقد رأيت رسول الله صلي الله عليه و سلم يمسح على ظاهر خفيه .

إن الدين ليس رأيًا ، وليس بالرأي.

إن العلم الصحيح الصادق في عالم الهداية الإلهية ، والتربية الرياضية ، إنما هو من الله سبحانه ، وكل ابتعاد عنه ، أو خرج عليه ، أو تغيير فيه ، إنما هو ضلال .

وما من شك في أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ، ويتصرف في الوحي الإلهي نقصًا وزيادة ، وتبرا وإضافة وتغيير وتبديلا ، يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة .

فيقول مثلاً إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحًا فلا لزوم للتكاليف الدينية ، فهذه أهواء يصورها الشيطان ولابد من إعمال العقل ..

جاءت الثورة العلمانية إثر عور تخلف وإظلام بل وانحطاط حضاري نشأ عن الانفراد بالسلطة تحت مظلة الحق الإلهي أو الحق المقدس الذي كرسه تجاوز مهنة الكنيسة حدود العلاقة السمحاء مع السماء واغتصابهم السلطة الزمنية وفرص الولادة والوصاية على المجتمع ، فجمد دون حراك مع الزمن ، ـ هكذا يقول ، كمال متولي ـ جاءت الثورة العلمانية تعيد تحرير العقل والتجربة والاختيار ونعيد الكنيسة إلى سابق وعضها رسالة متجردة إلى السماء . وقد أنقسم رواد الثورة العلمانية فريقي : أحدهما مسرف على نفسه مادي ملحد يرى أن الله وظيفة انتهت بتمام الخلق تاركًا مع كل مخلوقاته آليات عملها دون حاجة إليه ، فأحلت العقل محل الله . والثاني مؤمن بالله يعمل عقله ويسعى إلى الكنيسة مؤمنًا بأنه لا غنى له عن الله خالقه وراعيه ، فقرن العمل العقلاني بربه ملتزمًا بتكاليفه . لكن للأسف كان الفريق الأول أكثرًا عددًا ، وكان متفاميا لهروب كثير ممن كان يعبد الله على حرف من تكليفاته .

وإذا نظرنا إلى الإسلام لوجدنا محكم كتابه يأمر بالتدبر والتفكر والتبصر حتى في النفس البشرية ، وظواهر الحياة الدالة على وجود الله ليكون دينهم عن قناعة غير مكرهين عليه ، من ثم هود دين عقلاني رؤيته متطورة بتطور الزمان لتطر الحضارات والمتأملين فيها بحثًا عن عمار الأرض ، وهم خليفته عليها هذا قول علماء ومستشرقي الغر ب ، وهم يؤكدون أنه دين عقلاني واضح بسيط ، مهدت مرونته ونعومته لانتقال إتباع أديان أخرى إليه ، ورأي كثير منهم أن المستقبل للإسلام على حساب الضغط الداخلي للغموض والصعوبة والغطة المذهبية في أديان أخرى ، وإنه ما زال قوة فاعلة رغم كل ما يحاك حوله من المتربصين به ومن إتباعه الذين استظلوا به لأهداف دنيوية .

إذا كان الأمر كذلك وليس في الإسلام وسطاء بين العبد وربه ، وأنه دين عقلاني فما حاجته إلى العلمانية التي قامت لتحرر العقل والتجربة والاختيار من سطوة وجبروت الكنيسة الغربية وكنتها ومن والاها من رجال السلطة الزمنية .

الواقع إن البداية كانت نابليون ، وقد كانت مواجهة الأزهر له عاتبة ، ومحاولته الالتفاف حولها بإدعاء إتباع الإسلام ، فهدته عبقريته إلى كسر صلابة الإسلام ، والتفاف أهله حوله عقيدة وثقافة بالاختراق العلماني لمبادئ الشريعة والثقافة الإسلامية ، فتحلل معها الهوية الإسلامية أيضًا ، وسار نابليون ومن تبعه من مستعمرين لبلاد الشام وشمال أفريقيا قدوة لمن أتو بعدهم . وفي أيامنا هذه أتجه كثير من كتاب الغرب وساسته وإعلامه إلى ذات المستهدف ، ورصدت ملايين الدولارات لعلمنة التعليم في الدول الإسلامية لتجف الروافد غير متغطين بفشل الشيوعية يجبرونها مع دين له رب يحميه .

من هنا تحديث الخطاب الإسلامي يأتي من خلاله " إن التفكير والتدبر والتبصر وإعمال العقل فرض عين على كل مسلم ، فالله أمر كل جيل بإعمال العقل في زمانه ، فعجلة الزمن تدور ، وهو خليفته في الأرض ، وعليه عمارها ، الأمر الذي يوجب إعادة فتح باب الاجتهاد تحدثًا بنعمة الله على عباده .

وحول مقال نشره المفكر الإسلامي محسن عمارة تحت عنوان : " الحوار بين العلمانيين والإسلاميين " في عدد شهر سبتمبر ١٩٩٠ من مجلة الهلال الشهرية المعروفة التي تصدر بالقاهرة (من صفحة ٩٤ إلى صفحة ١٠٥) ، وقد نشر المقال في باب " دائرة الحوار " وربما يوحي هذا بأن المجلة لا توافق على مضمونه تمام الموافقة .

يلاحظ من عنوان المقال نفسه أن المؤلف يضع الإسلاميين في مقابل العلمانيين ، وهو يشير في البداية إلى أن مصطلح "الإسلاميين " مصطلح قديم الاستخدام في الفكر الإسلامي ، وقد ورد في عنوان الكتاب لأبي الحسن الأشعري " مقالات الإسلاميين " وفي كتاب آخر ، بالعنوان نفسه ، لواحد من أئمة المعتزلة وهو أبو القاسم البلخي ، وكلاهما يتحدث عن الفرق الإسلامية والجماعات التي تمثل تيار الفكر الإسلامي ، ويتبنى المؤلف المعنى المحدد لهذا المصطلح الذي شاع ، ويشبع استخدامه في الأدبيات الحديثة عنوانًا على طلائع وتنظيمات ومؤسسات وعلماء ومفكري الصحوة الإسلامية ، أولئك الذين يجتهدون ويجاهدون على مختلف جبهات الاجتهاد في سبيل " إعادة الصبغة الإسلامية والمعايير الإسلامية لتحكم تصورات الفكر وحركة الواقع في حياة المسلمين .

ومن جهة أخرى يعرف المؤلف مصطلح "العلمانيين " في نشأته الغربية بأنه عنى ، ويعني ، أولئك الذين رفضوا تدخل الكنيسة أو سيطرتها ، في شئون الدولة ، وجعلوا أو يجعلون ، العالم والواقع والدنيا ، المنطلق الوحيد والمصدر الأوحد للفكر والممارسات الدنيوية ..

ويعبر المؤلف عن إيمانه بأن التناقض الرئيسي والحاد والملح في ظروف الصراع الذي تعيشه أمتنا .. ليس هو التناقض بين الإسلاميين والعلمانيين من أبنائها ، وإنما هو الصراع بين الأمة ، بتياراتها المختلفة والمتعددة من جهة ، وين الهيمنة الغربية بصورها المتعددة : الحضارية والسياسية والاقتصادية ، والعسكرية ، من جهة أخرى . والواقع إن الهدف الحقيقي الذي يسعى المؤلف إلى تحقيقه هو وضع مشروع حضاري لاستقلال الأمة ونهضتها ، وهو هدف لابد من أن يخدمه الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين .

من الطبيعي ألا تعبر وجهة نظر المؤلف عن موقف جميع الاتجاهات الإسلامية ، ولكنها توضح على كل حلال مدى اتساع مجال العمل أمام الحركات الإسلامية . والواقع أن المناقشات الدائرة في الوقت الحاضر بين المسلمين عن الدور المنوط بدينهم في العالم المعاصر تتم بصور أكثر ذمة وعقلانية مما تتصور وسائل الإعلام وخبراؤه الذين يتعرضون للكلام عنها . وتشير الشواهد العددية إلى أن الحركات الإسلامية تكتسب بشعبية متزايدة في تلك البلاد الإسلامية التي يسودها جو ديمقراطي يسمح كثيرًا أو قيلاً بحرية التعبير . وإزاء هذه الحقيقة الواقعة فإن المتأمل من الخارج لما يجري في بلاد المسلمين يحسن صنعًا بتجنب التعميمات السطحية المتسرعة التي تصور الإسلام في صورة العدو ...

إن الحركة الإسلامية الكبيرة في هذه الأيام ، تتكون في حقيقته الأمر من مجموعة متنوعة من الحركات الفردية التي تحددها الظروف المختلفة من البلاد الإسلامية . وليس من شك في أن العنصر الإسلامي الكائن في هذه الحركات ، بل المصطلح الذي تعبر به عن أفكارها وأهدافها ، يمثل بعض السمات المشتركة بينها ، ومن أبرز هذه السمات ذلك الشعور المتجدد بالتضامن أو التكافل الإسلامي ، الذي يجمع بينها ، ومع ذلك فلو نظرنا نظرة أعمق ، لوجدنا أنها تشترك أيضًا في عنصر أهم وأخطر ، يتجاوز دائرة الشعوب الإسلامية ليشمل الشعوب النامية ـ وذلك هو الموقف التاريخي العام لكل الشعوب التي ما زالت متخلفة بالقياس إلى الأمم الصناعية الحديثة ، وما زالت تجد نفسها معتمدة عليها وتابعة لها ، وإن كانت تسعى اليوم بكل السبل للتحرر من هذه التبعية .

ليس للإسلام هوة القوة الأصلية المحركة لموجة البعث الإسلامي التي نلاحظها اليوم في العال صحيح أن الدين المشترك هو أساس الشعور بالتضامن بين الشعوب الإسلامية كافة ، ولكن العامل المشترك بين الحركات الإسلامية الراهنة لا يأتي من الدين ، وإنما يأتي من الموقف التاريخي الذي تجد نفسها فيه مع كثير من الشعوب غير الإسلامية : وهو موقف التبعية للدول الصناعية الغربية ، والبحث اليائس عن توجه يعنيها عن التحرر من تلك التبعية .

وبصرف النظر عن هذا العامل المشترك الذي يجمع بين الشعوب الإسلامية والشعوب غير الإسلامية فلا يمكن الحديث عن حركة إسلامية واحدة ، إن العقيدة الإسلامية ليست على الإطلاق نظامًا جامدًا متصلبًا يقسر المؤمنين به على سلوك محدد .

إن إمام المسلمين مجال واسع لتقديم تفسيرات خاصة للعقيدة والشريعة ، ولاتخاذ قرارات خاصة قد تتقدم به إلى الإمام ، أو ترجع به إلى الوراء . ولقد تكونت لدى الشعوب المختلفة كما تكونت لدى الجماعات المتباينة حركات واتجاهات شديدة التنوع . وكلها تجد في الإسلام الثقة بالذات ، والهداية ، والشرعية ، والقوة الدافعة لها على حل مشكلاتها وتحقيق مصالحها ، وهي جميعًا تستحق من الغرباء عنها أن ينظروا إليها بعين الاحترام أو يبذلوا الجهد الكافي لفهمها ..

الإسلام والغرب :

إن الفكر الإسلامي الصحيح مغيب تماماً عن الغرب ، نظرا لعدم وجود الدعاة الذين يوضحون أن رسالة الإسلام الحقيقية رسالة سماوية عظيمة ، هدفها الانتقال بالإنسان من عصور الظلمات إلى عصور الإيمان والنور والعلم . وأن الثواب والعقاب والنفع والضر بيد الله وحده ، خاصة وأن هناك من يقدم على الدخول في الإسلام واعتناق مبادئه وهم كثر بعد تعمقهم في دراسة القرآن والسيرة النبوية أو معرفتهم بها ومدى تأكدهم من قيامه على مبادئ الحق والعدل والمساواة والسلام .

صحيح إن الأزهر بمؤسساته ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية يؤدي عظيما في تصحيح تلك المفاهيم ، ولكن تنقصهم القنطرة التي يعبر عليها رأي الأزهر الصحيح إلى الغرب ، انطلاقاً من منطق المفاهيم وليس التعصب الديني .

إن نشر رسالة الإسلام السامية في البلاد الغربية يحتاج إلى الدعاة الذين يثيرون تشويق الإنسان الغربي ويحثه على قراءة تعاليم الدين الإسلامي ، بجانب كشف ما يحيط به من غموض ويوضح الفرق بين مبادئه وتعاليمه السمحة والتقاليد الموروثة .

لابد أن تشمل الدعوات الإسلامية الموجهة للغرب جانبين ، أحدهما عرض الإسلام في الغرب ، والآخر الشبهات والمفاهيم الخاطئة التي تلفق للإسلام ، وذلك عبر المراكز الثقافية في الغرب وربطها بممول رئيسي يمولها بالعلماء ، ويشرف على أنشطتها ، إضافة إلى نشر الترجمات الصحيحة عن الإسلام بمختلف اللغات في عرض ميسر ، يشمل النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية .

إن نشر الرسالة الإسلامية الصحيحة يتطلب أيضاً حسن الخلق والسلوك القويم للمسلم الموجود بالدول الأوربية بحيث يكون على مستوى الدعوة للإسلام ..

كيف ينجح الخطاب الديني في إقناع المجتمعات الغربية ببراءة الإسلام مما ينسب إليه . إن مضمون الخطاب الديني يجب أن يرتبط بحاجات المسلمين ، ويراعي أولويات البشرية ، وأن يتصدى للتحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية من خلال منهج رشيد وفقاً لكتاب الله العظيم ، وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) مصداقاً لقوله تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " .

فالخطاب الإسلامي المعاصر يجب ا، يبين براءة الإسلام من الإرهاب ، وأن يركز على أن الإسلام هو دين السلام ، ودين يحمي الحياة والكرامة الإنسانية ، بصرف النظر عن الجنس أو النوع أو الجنسية أو الديانة ، فهو يدعونا إلى الاستجابة لدعوة السلام ، وتقديمها من منطلق التمكن والقوة .

إن الإرهاب أصبح يلتصق بالمسلمين دون سواهم من أصحاب الديانات الأخرى لمجرد الكيد للإسلام بغير سند ، كما يجب أن نعترف أن لعدد من المسلمين شطحات من أقوال وسلوكيات لا علاقة لها بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد ، وتنسب إلى الإسلام بهدف تنفير الناس منه ، كما تعطي انطباعاً سيئاً عنه ..

إن تجديد الخطب الديني يجب أن يكون مرجعيته كتاب الله ، وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ولكن التجديد المرفوض هدما يسمى جوهر العقيدة أو الشريعة ، ويجب أن يكون الخطاب الديني مرتبطاً بحاجات الإنسان ، والقضايا العصرية . قال تعالى : " وقولوا للناس حسناً " .

من أسس تجديد الخطاب الديني إعداد الداعية بما يتناسب مع مقتضيات العصر ، وأن يكون على مستوى المسئولية ، بالإضافة إلى قوة الحجة ، وعذوبة الحديث ، ومن صفاته أن يكون متحما لدعوته دون تعصب ، وضرورة التحرك بين الجماهير المختلفة في كل زمان ومكان ..

ولا يزال الخطاب الديني يحتوي على مشكلات عديدة تعاني منها المجتمعات الإسلامية نظراً لما يترتب على هذا الخطاب (خاصة إذا كان ضعيفاً أو مخطئاً) من نتائج سلبية في مختلف مجالات الحياة اليومية ، سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو حتى اقتصادية وسياسية . ومن الملاحظ تاريخياً أن العلماء المحققين في كل العصور الإسلامية قد تنبهوا إلى أهمية الخطاب الديني ، وخطورة تأثيره في عقول الناس ، ولدينا مقتطفات واضحة جداً في التحذير الشديد من أولئك الذين يتصدون لإلقاء هذا الخطاب ، تبدأ من تحذير الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أولئك الذين يتعمدون الكذب عليه ، أي ينسبون إليه كلاماً لم يقله . ونظراً لأنه (صلى الله عليه وسلم) كان متأكداً من عدم تحريف نص القرآن الكريم ، فقد أوصى أصحابه بعدم كتابة أحاديثه لكي لا يختلط بالقرآن الكريم ، فيحسبه الناس بعد ذلك نصاً قرآنياً ، وليس معنى ذلك عدم الاهتمام بالسنة النبوية ، فمن المقرر أنها هي الشارحة والمبينة والمعشرة للقرآن الكريم ، الذي هو مصدر المصادر الإسلامية .

وعلى الرغم من تصدي عدد كبير من علماء المسلمين لظاهرة انحراف الخطاب الديني وتحذيرهم منه ، مثل أبن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) والحافظ العراقي في كتابه (الباعث على الخلاص من أحاديث القصاص) والسيوطي في كتابه (تحذير الأيقاظ من أكاذيب الوعاظ) . إلا أن الظاهرة كانت قد عمت ، بل واستقرت في المجتمعات الإسلامية ، حتى أصبحت تمثل تركة ثقيلة يصعب بل يكاد ويستحيل التخلص منها .

ويمكن الحل في قيام المؤسسات الدينية الرسمية في سائر البلاد الإسلامية بتنقية مناهج الدراسة بها من تلك المؤلفات التي ما زالت تعتمد عليها ، والعودة المباشرة لمصدر الإسلام الرئيسي وهو القرآن الكريم ، والاعتماد في بيانه على السنة النبوية الصحيحة ، ثم المتابعة اليقظة للخطاب الديني الذي يلقي في المساجد والمنتديات الخاصة ، والكشف عما يحتوي عليه من مظاهر الغلو أو الانحراف ، مع تدقيق وسائل الإعلام في اختيار الشخصيات الدينية التي تخاطب الجماهير ، مع ضرورة منع أولئك الدعاة الذين يتباكون ويبكون الناس على أساس أن هذا الدين يدعو إلى ذلك ، وهو في الواقع أبعد ما يكون عنه . وكذلك الدعاة الذين يفتون في أمور تافهة ، وقد سيق أن قال عبد الله بن عمر لأهل العراق : " أنتم تسألون عن دم البعوض ، وتستحلون دم الحسين " فلابد من قيام مراكز تدريب للدعاة يتوافر فيها علماء متخصصون في مختلف محالات الحياة لتزويدهم برؤية عصرية للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وللعالم الذي يحيط بهم ..

إننا نعيش مرحلة الاستلاب الحضاري للإسلام ، وأن الدنيا مدبرة عنا الآن ، ولكن لا توجد حضارة في التاريخ بقيت في ظل دولتها عدا الحضارة الإسلامية ، هكذا يقول الدكتور إبراهيم أبو محمد ، رئيس مجلس إدارة المؤسسة الاسترالية للثقافة .. فنجد أن الحضارة الهندية ماتت بموت الإمبراطورية الهندية ، والحضارة الإغريقية ماتت بموت القياصرة ، ولكن الحضارة الإسلامية بقيت وستبقى تحمل مضمون الحق في جوهرها ، ولأنها تقوم على مقوم الحق في أصلها ، ولذلك بقيت وستظل . فالحضارة الإسلامية سبقت أوربا ، ومن أهم القضايا التي تشغل

الفكر ، ونأل في تحقيقها أن توجد قناة فضائية باللغة الإنجليزية تخاطب الغرب بلغة تتناول الإسلام بكل ما فيه ، ذلك لأن شرائح الغرب المختلفة إذا استثينا منهم طائفتين هما مراكز القرار ، والنخبة الثقافية ، ففي هذه الحالة يمكن أن نكسب الرأي العام الغربي لصالح قضايانا . ورجل الشارع هو القطاع الكبير جداً ومساحته شاسعة من إجمالي عدد السكان ، ويتلقى ثقافته من وسائل الإعلام ، وهي تتعمد التدليس والتشويه والافتراء للحقائق ، وهذه الوسائل مزيفة وهادفة لصالح جهات معينة معروفة ، ومعروف من هم وراء الإعلام في أي مكان بالعالم .

إن الشريحة الكبرى من المجتمع الغربي تقع ضحية مصانع الكذب الإعلامي ، وعلينا أن نوقظ هؤلاء ، وذلك لا يأتي إلا إذا خاطبناهم بلغتهم ، وكان لدينا قناة ثقافية تشرح لهم الحقائق المذهلة والرائعة ، ويتعرف رجل الشارع في الغرب على ما في الإسلام من قيم ومبادئ ، وسيتحول ليس من مقتنع فقط ولكن إلى متحيز ومدافع عنه لما له من حرية تؤهله للدفاع عما يؤمن به ..

لابد أن نفرق بين الخطاب الديني ، والخطاب الدعوى . فالخطاب الديني لا يتغير لأنه خطاب الله للمكلفين بالأمر والنهي ، أما الخطاب الدعوى فيتغير باختلاف الناس والبيئة ، والثقافات وتحديثه ، ولدينا الأصل في ذلك . " وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا " . والقول البليغ لا يكون إلا بكل أداة يصل إليها الخطاب إلى المخاطب ، فإذا كان الخطاب موجها للعمال فيخاطبون لغتهم ، وإذا كانوا مثقفين فيرتقي الخطاب ، ويرتقي أكثر إذا كان المخاطبون من المفكرين ، وهكذا يزداد الارتقاء ويقل وفقا لمن يلقي عليهم الخطاب .

إن الخطاب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإعلامي يحتاج لتغير ، ولا يقع العبء كله على الخطاب الدعوى فقط ، فالذي يصنع الإنسان ثقافته ، وليست الدعوى فقط ، فالذي يصنع الإنسان ثقافته ، وليست الدعوة فقط ، وأيضاً وسائل الإعلام والصحافة والإذاعة والمجلات فيجب تغيير الخطاب الإعلامي بها ، ويجب أن تكف عن مخاطبة الإنسان من تحت الحزام فهذا إسفاف وهبوط بالإنسان والإنسانية ، ويجب مخاطبة من عقله ومشاعره وقلبه ..

إن أحداث ١١ سبتمبر رغم آثارها السيئة فإنها فتحت العقول للانتباه والتفكير في الإسلام ، فيلاحظ كثرة الاطلاع على الكتب الإسلامية ، وزادت الاستفسارات حول الإسلام ، ولوحظ أن الإحصاءات التي صدرت في استراليا تشير إلى دخول ستة أفراد يومياً في الديانة الإسلامية ، وأشارت إلى أن الإسلام هو أكثر الديانات انتشارا في استراليا ، وفي أمريكا هناك إقبال من الأمريكان السود على الإسلام ، ويرون أن الإسلام فيه الملاذ ، حيث لا فرق بين أبيض وأسود ، وأعجمي وعربي ، ففيه الحماية الكافية ..

هناك أزمة الإعلام الديني ، وعجزه عن نقل الرؤية الإسلامية إلى الغرب ، وعدم قدرته على الإسهام في تغيير نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين – فنحن في نظرهم – مازلنا مجرد مجتمعات تعاني من ممارسة خاطئة لحقوق الإنسان – وخاصة حقوق المرأة – ولا تؤمن بالقيم الديمقراطية ، كما أنهم يصفوننا كمسلمين بالتزمت والتطرف والإرهاب – أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون ووكالات أنباء إسلامية – وتتركز أزمة الإعلام الديني حول :

- عدم وجود رؤية إسلامية واحدة متفق عليها يستطيع الإعلام الديني نقلها إلى الآخر ، فالخلافات كبيرة .. تبدأ من العبادات البسيطة ، تم تتعداها إلى الآراء والتوجهات ، وقد وصلت هذه الخلافات إلى الأقليات الإسلامية التي تعيش في الغرب ، حيث تختلف الممارسات والطقوس حسب الانتماءات الجغرافية والمذهبية .

- ضعف مستوى القائمين على الإعلام الديني ، فالبعض متهم لم يحصل على الدرجات الجامعية التي تؤهله للعمل في أي مجال إعلامي . وكثيرون تأهيلهم الديني ضعيف ، وآخرون لم يحصلوا على الدراسات الإعلامية الكافية ، وقد انعكس ذلك على قدرتهم على نقل الرسالة الإسلامية ، وتوصيلها بكفاءة .

- عدم الاهتمام الكافي بالإعلام الديني من جانب المؤسسات الإعلامية ، ويتمثل ذلك في عدم تخصيص المساحات ، أو الفترات الزمنية المناسبة لنقل هذه الرسالة ، وكذلك عدم توافر الكفاءات البشرية المؤهلة .

- الاهتمام منم جانب المؤسسات الدينية برفع مستوى العاملين في الإعلام الديني .

ولابد إذن من البحث عن الثوابت الإسلامية وإبرازها أمام الغرب ، وعدم التركيز على الجوانب الخلافية حيث إن هذه الجوانب موجودة في كل الأديان والعقائد . وأيضاً بذل مزيد من الجهد من جانب المحررين الدينيين في مجال التغطية الإعلامية والتحقيق والحيز والرأي من أجل فرص مزيد من التواجد للإعلام الديني ، مع ضرورة عقد دورات تدريبية للمحررين الدينين ، على أن نقوم بتمويلها المؤسسات والهيئات الدينية .

هناك جهات أجنبية تريد لنا إسلاماً مستأنسا يمشي في الركاب ، مما يريدون إسلام الموالد والدروشة ، وهذا ليس من التدين الصحيح ، أما تدين الأقوياء فهو الذي يحرر الأرض . وتلك مهمة الإعلام الديني الذي يبين المفاهيم الصحيحة للغرب ، ويقدم لهم حقائق هذا الدين الإسلامي ، الذي ينبع من منهج الوسطية والحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والسماحة والتيسير .

لابد أن نحافظ على جوهر البناء ، وعلى خصائصه ، وتجديد ما بلى منه بحيث يبقى على مظهره يوم نشأته الأولى ، ما أن علينا أن نبين للغرب أن تجديد الإسلام يعني العودة إلى المرونة والسعة والتيسير والسماحة ، كما كان في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة .

إن الحديث عن الخطاب يعني النظرة حول تجديد الخطاب الديني وتحديثه بما يتوافق مع ثقافة العصر ، ويوجد توازناً حقيقياً لتحقيق صياغة متكاملة تتحاور مع كل المتغيرات ، وتظهر أهمية بناء والإنسان .

ونحن نتحدث عن تطوير الخطاب لابد أن تكون أعيننا على الحالة الدينية التي نعيشها ، والتي تعلن عن إقبال شديد وتزايد ملحوظ على الأداء الديني في مختلف صوره ، وأيضاً تزايد وانتشار الأبنية والمنشآت الدينية ، ولكن بالرغم من هذا نجد تراجعاً حاداً وملموساً فيما يصدر عن الإنسان من تصرفات وسلوكيات لا تهم في إيجاد إطار من العلاقات الطيبة بين الناس ، فالدين يدعو إلى المحبة وإلى حسن السلوك ، والذي يحدث بين الناس يجأ في ذلك تماماً . ولنا أن نتساءل ما علة هذا ؟ وذلك هو ما يجب أن يبحث فيه وأن توجه جل اهتمامنا وجهدنا نحو إصلاح هذا الخلل الذي ينخر في جسد المجتمع .

لابد من الاتجاه الحقيقي نحو تطوير لغة المفاهيم والتربية بما يتوافق مع روح العصر ، وبما يعمل على إيجاد جيل جديد أكثر وعيا وإدراك لحركة الحياة المعاصرة ، أيضاً تطوير الخطاب الديني داخل المنشآت الدينية ، ونبذ أسلوب الترهيب ، وإفشاء منطق سماحة الدين والترغيب فيه ليسكن القلوب ، وتستنير به العقول ، فإزاحة السحابة السوداء التي رانت على القلوب والعقول لأشد أهمية عما سواها ، إنها قضية قومية تتطلب شحذ كل الهمم ، واتخاذ مختلف الوسائل للقضاء عليها ، والأديان جميعها تحض على هذا .

وقد أعتبر المفكر الإسلامي الدكتور محمد سليم العوا أن التجديد يجدي ويرضي الغرب الأمريكي في خطابنا الديني ترفضه ثوابتنا الإسلامية ، كما أنه تجديد يرفضه العقلاء من أي دين ، لأن الدين يعض عليه بالنواجذ ، وتربط قلوبنا ، وليس كما هو في القصور الغربي ملابس ترتدي ثم تتغير .

وأشار إلى أن ثقافتنا الإسلامية هي هويتنا في خطابنا الديني في كل عصر ووقت مهني مضمون الخطاب الديني ومحتواه ، كما أن ثقافتنا الإسلامية الأصيلة النابعة من القرآن والسنة هي العالم المحرك لسلوكنا في العبادات والمعاملات ، وفي كل أمر من أمورنا الحياتية . فثقافتنا الإسلامية ثقافة عملية تخاطب الإنسان في كل نواحي حياته ، وهي ترقي إلى أن يكون سلوك الإنسان كله موجه لله رب العالمين .

وأضاف أن هدى الإسلام وخطابه للمسلم في كل أمون فيه خير له ، حتى المشية التي يمشيها على الأرض جاءه خطاب فيها بالا يمشي متكبراً مختالا مقرورا ، بل دعاة وأمره بأن يكون متواضعاً قاصداً في سيره ومشيه ابتغاء مرضاة الله ، وليجعل الإنسان مشيه وسعيه له هدف وغاية لخير الناس ، وهذه ثقافة ينفرد بها المسلم عن باقي الناس ، مشيراً إلى أنه إذا كان المشي في سبيل الوصول إلى علم أو عيادة مريض أو عمل مشروع دعت إليه الشريعة الإسلامية ، كان ذلك عملاً يثاب عليه المسلم فضلاً عن أنه يعد عبادة الله وإتباعا لأمره ونهيه . فإذا تمسك المسلم بهذا السلوك ، وهذه التوجيهات الإلهية ونشر هذه الثقافة وسط من يعيش بينهم سواء داخل بلاد الإسلام أو خارجها ، فلابد أن تؤثر في هؤلاء وإن كانوا على غير دين الإسلام ، لأنها ثقافة ربانية راسخة قوية تستمد قوتها من الله تعالى ، وهي بهذين الوصفين (العروبة والإسلام) كانت دعاء لكل من أقاموا وعاشوا في أرضها من يهود ومسيحيين ، أو غير ذلك من العقائد الأخرى . وأكد أن خطاب الإسلام في السلم ، لا يختلف عنه في الحرب ، ففي الحرب نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المسلمين عن أن يقتلوا شيخاً أو طفلاً أو راهباً في صومعته ، كما نهى عن قتل الفلاحين المقيمين على حراسة أرضهم ، وقد حفلت السنة النبوية بصور كثيرة تؤكد رحمة الإسلام وعدله بالأعداء خاصة في وقت الحرب ..

ويقول : إن شريعتنا الإسلامية ترفض جمود العقل ، وتذم التقليد ، ولا ترتضيه منهجاً لها ، ولقد تعددت الآيات القرآنية التي تدفع المؤمن ، وغير المؤمن للتفكير وإعمال العقل ، لأن التقليد يؤدي إلى الانفصال بين الوحي والعقل كأنها أمران متناقضان ، لذلك فعملية التجديد أصبحت الآن ضرورة لإعادة توثيق العلاقة بين الوحي والعقل ، وتجديد الدين عند العلماء الثقات معناه إحياء ما اندرس منه ، وتوجيه الناس إلى العمل بم اترك من شعائره ، والتجديد في العلوم المختلفة كما في الدين ، لأن بالقصد هو عدم توقف الإبداع البشري عن العمل بالجمود على آراء السابقين وأقوالهم ، أو بالاكتفاء بما حققوه من تقدم نظري وعملي في عصورهم . ولا يتحقق هذا المطلب شرعاً في المجال الفقهي إلا بقيام كل جيل من أجيال المسلمين بأداء واجب الاجتهاد الذي به يعرف المسلمون حكم شريعتهم فيما يحدث من وقائع لا يتناولها صريح النصوص القرآنية أو النبوية . والاجتهاد الذي أمرت به نصوص القرآن والسنة معناه بذل الجهد العقلي والفكري في التعرف على الحكم الشرعي لما يعرض للفقيه أو المفتي أو القاضي من مسائل .

ويشدد البعض من مختلف الدول العربية على ضرورة مواجهة الضغوط المفروضة على العالمين العربي والإسلامي ، وتوضيح الوجه الصحيح للدين الإسلامي ، وأن يكون التغيير بالشكل الذي يتفق مع تراثنا وانتمائنا ومصالحنا .

وأكد وزير الأوقاف والشئون الإسلامية السعودي ضرورة تجديد الخطاب الديني في أطره ووسائله وأولوياته ، والسعي من خلاله للإصلاح الشامل للمنطق والعقل والتفكير .

وقال : إن واقع الخطاب الإسلامي اليوم يحتاج إلى استشراف المستقبل ، والخروج من مأزق الواقع بإحياء فقه الأولويات ، وفقه القوة والضعف ، وفقه السياسة الشرعية في التعامل والحركة ، موضحاً أن الإسلام يشرع مخالطة الناس ، والتعامل معهم أيا كانت اتجاهاتهم على أساس القول الحسن ، والفعل الجميل ما لم يظلموا أو يعتدوا .

وأشاد إلى أن الإسلام يرفض الإرهاب وينبذه ، ويجب أن نحارب هذا الإرهاب بكل الوسائل المشروعة ، وقد حظيت الشريعة الإسلامية بأحكام وتشريعات وقائية وعلاجية وإنكارية للإرهاب ، مؤكداً أن مقاومة المحتل بالوسائل الممكنة المشروعة حق مشروع وليس إرهاباً ..

وأوضح مفتي لبنان أن الإسلام برئ من العنف والتطرف ، ويجب علينا أن نقدم إلى العالم الصورة الحقيقية للإسلام قولا وعملا ، وعلى الدول الإسلامية مسئولية عظيمة تجاه شعوبها في إشاعة العدل والحرية ، والقضاء على الفقر والمرض والتخلف لمنع نمو بذور العنف والتطرف .

- هذا الآراء في اجتماع افتتاح الدورة الثامنة للمجلس التنفيذي لمؤتمر وزراء الأوقاف والشئون الإسلامية ببيروت – وقدم الوزير المصري ورقة عمل جاء فيها : إنه لتجديد الخطاب الديني الإسلامي يلزم المحافظة على الثوابت الإسلامية مثل منهج الرسل في الدعوة إلى الله كما جاء في القرآن الكريم ، وهي تختلف باختلاف التفاوت الثقافي والبيئي والزمني ، وتنوع الأدلة ، وقال : إن منهج القرآن الكريم في الخطاب الديني هو الحكمة عن طريق استخدام الأدلة العقلية مع غير المسلمين ، والموعظة الحسنة من خلال مخاطبة القلب والوجدان ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، بالمناظرة مع المعاندين والمتشككين بأسلوب علمي يعتمد على الحجة والبرهان . كذلك شرح كيفية مواجهة من لا يقتصر على المعارضة النظرية كالجهاد بكل ما من شأنه الدفاع عن الإسلام ، والصمود أمام من يعتدي على المسلمين وحرماتهم ومقدساتهم . وأضاف الوزير في كلمة مصر : إن الخطاب الديني لابد من تنقيته من الروايات والأحاديث الضعيفة ، والقصص الخرافية التي لا تتفق مع العقل أو المنطق ، وتتصادم مع ما توصلت إليه البحوث العلمية ، وطالب بضرورة التركيز على سلوك الفرد وحث المسلمين على النهوض بالمجتمع في جميع المجالات العلمية ، والحرص على تطبيق قيمة الإسلام ، وحقوق الإنسان ، وضرورة دراسة القضايا الفكرية المعاصرة التي لها صلة بالدعوة مع بيان أسباب ظهورها وتداعياتها ، وكيفية التعامل معها ، وأسلوب مواجهتها مثل الأصولية ، والتطرف ، والإرهاب ، والهجرة والتكفير ، والتعصب للرأي ، وأخيراً رفع مستوى الدعاة في مجالات المواجهة من خلال تبصيرهم بحقيقة ما يوجه للإسلام إساءات والرد عليها ، بيان أبعاد الهيمنة الثقافية المتخفية وراء العولمة ، وكيفية مواجهتها والتعامل معها ، وتوضيح الفرق بين العلم وما ينتجه من نظريات مستحدثه وبين الدين ، وإلقاء الضوء على العلاقة بين الدين والعقل وموقف الإسلام من الحضارات المادية والمعنوية .

ومن المهم بالنسبة للمسلمين أن يتعرفوا وجهات النظر الغربية عبر مراحل التاريخ ، لأنها لا تزال بشكل أو بآخر ، تشكل الخلفية الفكرية لما يدور في الأوساط الغربية اليوم – وبخاصة في وسائل الإعلام هناك – من فهم خاطئ ، وتصوير مشوه لتعاليم الإسلام . ولعل ذلك يحفز المسلمين على أن يعملوا – بأسلوب علمي بعيد عن الانفعالات والعواطف – على تصحيح هذه التصورات الخاطئة عن الإسلام والأمر لا يقتصر في واقع الأمر على الجانب النظري فقط ، بل وينسحب على مسارات السلوك الإسلامي أيضاً حتى يكون متفقاً مع ما يشمل عليه الإسلام من تسامح وتراحم ومحبة وسلام .

مع العلم بأن تأثير الإسلام في أوربا (في القرون الوسطى) كان شاملاً ميادين كثيرة ، ومبيناً على جوانب متعددة ، ويمكن القول إن هذا التأثير عم – بدرجة كبيرة أو صغيرة . مستويات الحياة الأوربية جميعاً ، ونال أكثر المجالات والبنى اختلافاً وتباعداً ، بما في ذلك النواحي المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة والدين .

الإسلام والزمان

إن تجديد الخطاب الديني – على وجهه السديد – يمثل منهاجا واعدا يهدف إلى إيقاظ الضمير العام ، وشحذ إرادة الأمة ، واستنهاض عزيمتها من كبوتها ، واستنفار طموحاتها وقواها المذخورة حتى تضع أقدامها على طريق النهضة الحضارية الشاملة .

أما " التبديد " فيسعى أصحابه إلى ركوب موجة التجديد ، واتخاذها غطاء لنيات مخبوءة تتمحور في " نقض " أساس " الخطاب الديني الإسلامي وهو الكتاب والسنة . وبدلا من تركيز وعي الأمة وإعداده للانطلاق : يعمل المبدون على تشتيته وهز أركانه عبر محاولات شتى . أولى تلك المحاولات يتمثل في دعوتهم إلى " قراءة النصوص المقدسة قراءة جديدة " و " فهمها بروحها وغاياتها ، لا بحروفها ومعاينها المباشرة " وأن المرء ليتساءل .. كيف تنفصل " روح " النص المقدس وغاياته عن حروفه ومعاينه ؟ إن فهم النص المقدس عملية متكاملة يتضافر فيها اللفظ والمعنى ، والروح والمقصد ، وإسقاط أحد هذه العوامل : إسقاط للخطاب الديني من أساسه ولنضرب لذلك

مثلا .. فكيف يقول النص الديني المقدس بلسان عربي مبين : إن نصيب المرأة في الميراث : على النصف من نصيب الرجل ، فيقول هؤلاء : إن " روح " هذا النص مؤداه في اللحظة عينها إلى أن يكون الأمر على خلاف ذلك . أي أن يكون نصيبها مساوياً لنصيبه ، لأن هذا هو ما تؤدي إليه القراءة الجديدة " لروح النص " . ومن يدري فربما يتطور اتجاه القراءة الجديدة إلى جعل نصيب الرجل على النصف من نصيب المرأة في حالات معينة . فيكون لكل حالة ميزان ومقياس .

ما الحاجة إذن إلى " نص مقدس " أصلا ، ما دامت القضية برمتها مرهونة بالوقائع المتغيرة ، وبذبذباتها التي لا تكف عن التاريخ .

إن النصوص المقدسة في الإسلام هي التي تضبط مسار الوقائع المتغيرة ، وتقنن حركتها المتدفقة ، فهذه هي وظيفة الدين ، بينما يريد الدين المسار الحق ، ويريد هؤلاء المبدون أن يعكسوا طرفي المعادلة ، " فالنص عندهم يعاد فيه النظر تبعا لحركة الواقع متجاهلين أن النص تنزيل إلهي ، ثابت دائم ، وفي هذا الثبات وتلك الديمومة ما يحول بين البشرية وبين اهتزاز المعايير ، واضطراب الموازين ، واختلال المقاييس .

تتمثل ثانية تلك المحاولات : في دعوى المددين إلى التفرقة بين " المنطوق " و " المسكوت عنه " في فهم النصوص القرآنية ، ففي هذه النصوص – كما يزعمون – جوانب مسكوت عنها ، تترك لمن يحس قراءة الخطاب ، ويدرك أنه يخفي ويعلن ، ويكتم ويبوح ، ومن خلال هذه التفرة – تفرة " المسكوت عنه " يقحم المبددون على النص القرآني ما شاءت لهم أهواؤهم وأغراضهم دون رقيب ، ويصبح " النص المقدس " ساحة مستباحة تعج – كل يوم – بالأهواء والنزعات ، إن خدعة " المسكوت عنه " تساوي في منطق العقل : أن الإسلام لم يدخل في طور الاكتمال بعد ، وأن الأمة ينبغي أن تدع أمر دينها رهينة في كل من يدعي أنه أدرك من " المسكوت عنه " قطاما ، ثم تنقلب غدا إلى " مسكوت عنه " جديد ، وهكذا في كل ساعة .

تتمثل ثالثة تلك المحاولات في العلاقة بين الإسلام والزمان ، فهؤلاء المبددون ينذروننا بأن فهم القرآن والسنة على أنهما صالحان لكل زمان ومكان : هو فهم " يقتل إحساسا بالزمن ، وأن ما حدث قبل ألف عام يمكن أن يتكرر ، فنتحمى لوعده الكاذبة " ، أما الخطاب الجديد الذي يريده هؤلاء المبددون فإنه " لا يسقط الزمن حسابه "

وإن المرء ليتساءل .. هل تقاس المبادئ والأسس والمعايير بتقادم عهدها أو بمدى أخلاقيتها وخيريتها ؟ إن الفضائل قديمة العهد ، ولم يقل أحد أن كر العصور ومر الدهور قد أفسدها ، وحولها إلى رذائل ؟

ثم ، عن نتحدث ؟ إننا نتحدث عن " نصوص الوحي " التي أنزلت لتكون " هدى للناس " جميعاًً ، بأزمنتهم جميعاً ، وأمكنتهم جميعاً ، فمن البدهى أن تكون تعاليمها – ذات المصدر الإلهي " متسقة مع " الجوانب الثابتة " في الطبيعة البشرية ، تعالجها بعلاج ثابت ، ومتسقة – في الآن نفسه – مع الجوانب المتبدلة في الطبيعة البشرية ، تعالجها بعلاج متغير .

إن أكثر المجتمعات البشرية التي قطعت في مضمار التقدم التكنولوجي أشواطاً بعيدة لا زالت تمارس طقوساً بالية متحجرة ، ورثتها من حضارات مغرقة في القدم ، وهي وتتمسك بها تمسكاً حرفياً ساذجاً ، ولم يمنعها هذا " الثبات المفرق في القدم " من أن تلحق بحضارة العصر ، وتتفوق في منجزاته ، فلماذا يريد منا أولئك المبددون أن نلغي نصوصنا المقدسة وأن نتنكر لها ، وننفصل عنها . وهي التي تزخر بالقوى الباعثة على التقدم ، والمستشرفة إلى الإبداع ؟

ولو أن أصحاب هذه الدعاوى قد قدموا دعاواهم على أنها أفكارهم الخاصة لها من الخطب ، لكنهم يقحمونها على نسيج الخطاب الديني ، الذي يلفظها ويرفضها ، لأنها غريبة عنه ، مفروضة عليه ، وهم – بهذا الصنيع – يظلمون قضية التجديد ذاتها ، لأنهم يسهمون في إثارة نوازح الشك فيها ، والارتياب منها ، والابتعاد عنها .

إذا أرونا أن نجدد الخطاب الديني على أساس سليم فينبغي ألا ننسى أنه ليس هو الخطاب الوحيد للجمهور ، بل يشاركه في التأثير والفاعلية الخطاب السياسي والإعلامي وغيرهما مما يستدعي النظر في كل ما يوجه إلى الجمهور ، وتطوير خطابه إلى جانب الخطاب الديني .

قد يظن البعض أن قضية التجديد الدين يمن قضايا المجتمع الطارئة أو التي فرضتها ظروف وأحداث وظواهر اجتماعية وسياسية حديثة ، ولكن الحقيقة أن تجديد أمر الدين ورد في حديث شريف باعتباره بشري للمجتمع المسلم على رأس كل مائة سنة يقوم به المخلصون لدينهم وأمتهم ، وهو أيضاً سنة في المجتمعات التي تدين بعقائد وأفكار وتقاليد لها جذورها الدينية والاجتماعية ، ولا يمكن لعالم مسلم أن يرفض أو يتردد في ضرورة التجديد – لاسيما في الخطاب الديني بالذات – وهو الخطاب الذي يقصر به تجديد أمر الدين في نفوس المخاطبين بحيث تتفق الأهداف العليا ، والمقاصد العامة للإسلام في نفوس أهله ، فتزكو نفوسهم بالعبادة ، وتنطلق طاقاتهم بالعلم الصالح من أجل خير الإنسان . والخطاب الديني حين يستهدف إصلاح النفس الإنسانية روحيا وسلوكيا وفكريا يصبح ضرورة اجتماعية ، وينبغي أن يتخذ من الوسائل والأساليب ما يحقق قابليته وفاعليته في المجتمع . ونحن نعرف في العصر الحديث محاولات عديدة للمجددين من علماء المسلمين ، ولم يكن التجديد في نظرهم استجابة لمطالب أو خضوعا للظروف أو تجنبا لأخطار معينة ، ولذلك كان فكرهم في التجديد شاملا لتصحيح العقيدة

وللتيسير ورفع الحرج في الأحكام الشرعية ، وللدفاع عن القيم الخلقية والإسلامية ومقاومة البدع والخرافات والتشدد والتضييق في الأحكام . ونتيجة لهذا المنهج الشامل والسليم في تجديد أمر الذين تقبل المجتمع المصري منذ عشرات السنين أفكار المجددين ، وظهر أثر ذلك واضحاً في الثقافة العامة وللجمهور ، وفي قوانين أصدرتها الدولة في شأن الأسرة أو التكافل الاجتماعي وحتى في مجال العقوبات ، وهو الأمر الذي انتهى إلى موافقة شعب مصر على أن ينص في الدستور سنة ١٩٧٠ على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع ، ولذلك فإن تجديد الخطاب الديني لا يمنع من التجديد والاجتهاد من جديد في الأحكام الفقهية بهدف التيسير ورفع الحرج ، والوقوف في وجه الغلو في الدين ، وإشاعة روح التسامح والبر بين طوائف المجتمع فهذا من المقاصد العليا للإسلام .

إن تجديد الخطاب الديني – وهو من حقوق المجتمع المسلم – يعد من واجبات العلماء المسلمين القادرين كلما اقتضاه تقاوم العهد ، وتغير النفوس ، وتبدل الأحوال في المجتمع ، وهو يشمل إلى جانب تجديد أساليب ووسائل الخطاب الديني التجديد والاجتهاد وفي الأحكام الشرعية التي تستجيب لمصالح الناس الحقيقية ، وتيسر عليهم حياتهم ، ومن الخطأ أن يستهدف البعض من قضية التجديد التغيير في ارتباط الجمهور المصري بالثقافة الدينية منذ قرون طويلة ، أو يتحدث البعض عن النصوص الدينية المقدسة باعتبارها خاضعة – شأن كل نصوص البشر – للاختبار العقلي في جميع الأحوال ، ومن الحظر أيضاً أن يحصر البعض قضية التجديد في الخطاب الديني في موضوعات محددة ويكون المطلوب تغيير أو تجديد الخطاب الديني لكي نظهر ما لدينا من ثقافة السلام أو الاعتراف بالآخر ، أو قبول أنماط اجتماعية سائدة في مجتمعات أخرى .

لماذا تخلفنا ... ؟

لا ترجع أسباب التخلف إلى عوامل خارجية فقط بل إلى عوامل داخلية كذلك . ومن العوامل الخارجية تمزيق بلاد المسلمين إلى دويلات ودول واقتسام بعضها بين الكتلتين الشرقية والغربية والتخطيط لإخراجها من دائرة الإسلام إلى الدائرة العلمانية ، وذلك تحت ستار دعاوي التقدم والتطور ومسايرة العصر ، الأمر الذي أدى إلى تقمصها أنماط مختلفة من الحكم والفكر والسياسة والاقتصاد والتعليم والإدارة والاجتماع – (راجع في ذلك المقال القيم للدكتور زغلول النجار ، بعنوان : أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر ، الأمة العدد الرابع ، السنة الأولى فبراير ١٩٨١م صفحة ٢١ – ٢٣) .

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الدول تعرضت للكثير من الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة التي أنهكت قواها ، ودمرت اقتصادها ، وحكمت معنوياتها ، وتركنها كيانات متنافرة ، وقوميات متناصرة ، ومذهبيات متصارعة ، وسط عالم أخذ يتكتل على هيئة تجمعات كبيرة وحدت نظمها الاقتصادية ، وسياستها الخارجية وخططها العسكرية ، ومن ثم تسلطت على الدول الصغيرة واقتطعت الكثير من أرض المسلمين .

أما العوامل الداخلية فترجع إلى تمزق المسلمين اليوم إلى دول ، واحتلال أجزاء عديدة من تلك الدول ، الأمر الذي أدى إلى تشتيت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين . وتفش الأمية بين المسلمين في هذا العصر ، وإهمال الدراسات العلمية بصفة عامة في كثير من دول العالم الإسلامي المعاصر ، وتأخر قيام مؤسساتها العلمية الحديثة ، وقيامها على أسس مستوردة لا تنبع من عقيدتها أو تراثها ، ولا من حاجة مجتمعاتها ، الأمر الذي أصبحت معه هذه المؤسسات غريبة في أوائها عن هذه المجتمعات . وانعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين مختلف المؤسسات العلمية والتنقية في العالم الإسلامي المعاصر مما أدى إلى تقتت الجهود وتكرارها في خطوط قصيرة متوازية ، فضلاً عن عدم وجود الحوافز المادية والمعنوية الكافية للمشتغلين بالبحث العلمي والتقني ، الأمر الذي أدى إلى هجرة كثير من العلميين لمراكزهم واتجاههم إلى الانشغال بالنشاطات المالية والإدارية ، مع عدم توفر وسائل البحث العلمي من الأجهزة والمعدات والمواد والقوى الفنية المساعدة والخدمات المكتبية والتوثيقية المتطورة في كثير من دول العالم الإسلامي بما يؤدي إلى هجرة الكفاءات العلمية إلى الخارج ، وبالتالي استنزاف أهم طاقات المسلمين ، إلى جانب شغل المراكز القيادية في كثير من المؤسسات العلمية في دول العالم الإسلامي من جانب من هم أقل تأهيلاً لحمل المسئولية وذلك انطلاقاً من العصبيات العرقية أو الإقليمية أو التكتلات الحزبية ، والتبعية للدول الأخرى من جانب معظم دول العالم الإسلامي المعاصر ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، وهو ما يؤدي إلى استنزاف طاقة وأموال المسلمين واستغلالهم وفرص السيطرة عليهم ..

أما الأسباب المعنوية فيمكن أن نشير منها إلى : غياب التطبيق الصحيح للإسلام كعقيدة وكمنهج للحياة ، ومن هنا فقد العالم الإسلامي ما كان يتمتع به من سبق في كل المجالات ، وكذلك غياب الفهم الصحيح لرسالة الإنسان عند من يملكون إصدار القرارات ، مع غياب الشعور الحقيقي بمعنى الأخوة الإسلامية وواجباتها ، وفي غيابه برزت مختلف النعرات الإقليمية والعرقية والسياسية المذهبية التي ساعدت على تفتيت الأمة الإسلامية وتشتيت طاقاتها . هذا إلى جانب الشعور الداخلي عند كثير من المسلمين المعاصرين بالانهزام والتخلف والضعف أمام التكتلات الكبرى والعجز عن مسايرة تقدمها إلا من خلالها وعن طريق استجداء العلم والفنون منها .

ومع ذلك كله فإن الأمة الإسلامية تملك من القدرات البشرية والروحية والمادية ما يؤهلها لقيادة الإنسانية وإنقاذها مما يمكن أن تتردي إليه ، خاصة وأن بيدها نور الإسلام لا تضل الأمة بعده أبداً في الوقت الذي صاحب

تقدم الدول الكبرى اضمحلال وازعها الديني ، وجفاف نعيمها الروحي ، الأمر الذي يهدد بتفويض أركانها وتآكلها من الداخل رغم تقدمها الذي تعيشه حالياً ...

إن مقاصد الشريعة الإسلامية كانت لتحقيق جوهر إنسانية الإنسان ، وقد فتحت الباب لأحكام جديدة كلما طرح التطور الجديد من القضايا والمشكلات ... إن هذه الشريعة – التي هذا شأنها مع الجديد والتطور والتجديد – لم ولن تقف في الضرورات الواجبة لحرية الإنسان وإنسانيته عندما أشارت إليه النصوص الأولى والمأثورات المروية أو اجتهادات الفقهاء القدماء .. فالشريعة مقاصد ، وما أشارت إليه من تشريعات لا يعدو النماذج التي ضيفت للتمثيل والاحتذاء .. وكما يقول الإمام السلفي ابن قيم الجوزية : " فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقط ، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات الحق ، وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأي طري٤ق كان ، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره ، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأول وأظهر ، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقط ، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها . والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها ، وإنما المراد غاياتها ، التي هي المقاصد ، ولكن الله نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها .. "

فمع تطور المجتمعات الإنسانية وتعقدها ، ومع تزايد الحاجات والضرورات اللازمة لتحرير طاقات الإنسان كي يبدع في هذه الحياة ، ويبلغ بكوكبه في العمران مرتبة العروس التي أخذت زخرفها وزينتها .. مع هذا التطور الجديد تستجد لهذا الإنسان حقوق بل واجبات يفرضها الإسلام فتصبح ضرورات شرعية واجبة لتحقيق الحياة الحقة والإنسانية الحقيقية لهذا الإنسان ، على النحو الذي يليق به كخليفة عن الله سبحانه ، في هذا الوجود .

إنه لا خلاف على أن الفكر موقف .. ومعركة .. فهو الحافز للأمم على النهضة والبعث الجديد الذي تحطم به القيود والأصفاد .. وهو المرشد الذي ينير للأمة الطرق كي لا تتعثر خطاها فتدمي بعقبات وأشواك ... إنه حافز ومرشد " تجارب الخطأ والصواب " لكن فعاليته مرهونة بالنضال الذي يحوله إلى واقع تعيشه الأمة ، وتنعم بثمراته ، عندما يخرجه من إطار النظر إلى حيز التطبيق .

إن هدى الإسلام مثله كمثل هدى جاء به هذا الدين الحنيف ، سيظل غيثا ينتظر النضال الذي يحوله ، بالممارسة والتطبيق ، إلى ثمر يانع ينعم به الإنسان المسلم من خلال نهضة حضارية تغير الواقع البائس الذي أوقع فيه الاستبداد أمة الإسلام .. فلا جدوى من غيث لا يحيى الأرض الموات .. ولا حياة لأرض لا تحسن الاستفادة من الغيث الهاطل عليها من السماء .. وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، عندما يعلمنا هذه الحقيقة فيقول : " إن مثل ما بعثني به الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها : طائفة طيبة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .. وكان منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا .. وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .. فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه الله بما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ؟ .. صدق رسول الله ..

هذا هو هدى الله وعلمه .. فعلينا أن نكون الأرض الطيبة ، التي تقبل غيثه فتنتفع به ، وتنفع به الإنسان .. وذلك حتى يرفع الإنسان المسلم ، بهذا الهدى والعلم رأسه ، محطما قيود الاستبداد وأصفاد المستبدين .

أما الذين يقفون عند حدود ترويد النصوص والمأثورات ، دون توظيفها كأسلحة في معركة تغيير الواقع البائس ، الذي يقهر بالاستبداد طاقات المسلمين ، فإن القرآن الكريم يزري بهم ، ويسخر من دورهم في هذه الحياة .. " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين " (الجمعة ٥) .

فحامل الهدى الذي لا يذيعه في الناس ، قريب – في الموقف – من المكذبين به والمنكرين له .. والمردد للهدى دون سعى بالفعل – إلى جعله سلاحاً لتغيير الواقع كي يتسق مع هذا الهدى الذي هدانا به الله .. هو قائل لغير الذي يفعل .. وتلك كبيرة يستحقون بها وقت الله وبغضه الشديد .. " يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (الصف ٢ – ٣) إن دينا لم يكرم الإنسان كما كرمه دين الإسلام .

وإن شريعة من الشرائع الدينية أو الوضعية لم ترفع حقوق الإنسان إلى مرتبة الضرورات الشرعية الواجبة كما صنعت ذلك شريعة الإسلام .

فعلى الذين يعون هذه الحقيقة أن يناضلوا ، بكل السبل والوسائل الإسلامية ، لرفع عار الاستبداد وقيوده من واقع المسلمين .. ولتنقية الفكر الإسلامي من التشوهات التي زرعها فيه نفر من الحاقدين والمفرضين ، الذين احترفوا التبرير لمظالم المستبدين ، وباعوا آخرتهم الباقية بفتات من ديناهم الفانية عندما دعوا المستضعفين والمظلومين إلى الاستكانة – التي سموها : صبرا – على ما تعافه نفوس المؤمنين الأحرار – وصدق الله العظيم إذ يقول : " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين " (القصص ٥) .. إنها إرادة الله ، الذي أرسل إلى الناس رسوله ، (صلى الله عليه وسلم) " يضع عنهم أحدهم والأغلال التي كانت عليهم

" (الأعراف ١٥٧) . فطوبي للسالكين كل سبيل لتحقيق إرادة الله .. والغاية من رسالة رسوله ، عليه الصلاة والسلام ...



الباب الثاني
الخطاب

الفصل الأول

ماذا يراد .. ؟

الخطاب :

تشير دلالة (الخطاب) في مختلف المعجمات العربية إلى الكلام ، حيث استمدت هذه الدلالة من السياق الذي وردت فيه لفظة الخطاب في القرآن الكريم ، يقول تعالى :

" وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب "

" فقال أكفلينها وعزني في الخطاب "

" رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً " (النبأ ٣٧)

" وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (الفرقان ٣٦)

" ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفرقون " (هود ٣٧)

ويتبين في ضوء التفسير التي وضعها المعشرون القدامى والمحدثون للآيات القرآنية ، أن المفهوم القرآني للخطاب يحيل ذكره على الكلام . فبالكلام المؤثر المقنع ، باعتباره خطابا تمكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مجادلة الكفار ، ونشر الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية ، لتعم بعد ذلك أصقاع العالم .

ويورد الزفحشري تفسيراً الفصل الخطاب بقوله : " إنه الكلام المبين الدال على المقصود بلا التباس " وقيل معناه ان يفصل بين الحق والباطل ، أي أن يحكم بالبينة .

وهو يتجنب الإبهام والغموض واللبس ، ويوسم بالبيان ، وقد خص الآمدى الكلام بمعنى الخطاب باعتبار الكلام كما عرفه ابن حبني ، بأنه لفظ مستقل بتفسير لمعناه .

ويشمل الخطاب اللفظ والفحوى ، إذ له وجهان ، شكله الخارجي ، ويمثله اللفظ ، وداخلي وهو المفهوم ، ويشمل مختلف التخصصات العلمية ، منها : الأدب .

ويتشكل نوع الخطاب ، فالشعر ينجب الخطاب الشعري ، والسرد ينجب الخطاب الديني وهكذا .. ولا أشك في أن كثيرين من الناس يفهمون كلمة الخطاب بمعناه القديم الشائع الذي يدل على ما نوجهه للآخرين من حديث حتى يفهموا عنا ، ويتجاوبوا معنا ، ويتجاوبوا معنا ويتعاطفوا ، فلابد أن نختار لغة تستميلهم ، وأفكارا تتناسب مع الذين نتجه إليهم بالكلام .

الخطاب بهذا المعنى هو مناسبة الكلام لمقتضى الحال ، كما كان يقول البلاغيون ، فالفكرة التي أشرحها لك أشرحها لغيرك ، لكن اللغة تختلف باختلاف المقام ، وتتغير المتلقين .

هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر العلم الذي نرجع إليه في كل أمور من أمور حياتنا ، أو أن هذا ما ينبغي أن نفعله ، فنقرأ ونفهم ونناقش ونجرب ونحلل ، ونقارن لنعرف الأسباب ، ونتوقع النتائج ، ونفسر ما يحدث في الطبيعة والنفس ، والجسم والمجتمع ..

والمقصود بتعبير (الخطاب الديني) هو مجموعة المبادئ العامة التي تكون منهج التعامل مع سلوك الفرد والجماعة المسلمة طبقاً للقواعد الإسلامية الراسخة ، ووسائل الإعلام عن هذا المنهج تتم من خلال الأسرة والمدرسة والكتاب والصحيفة والراديو والتلفزيون والمسجل والأحزاب السياسية ، والتجمعات العمالية والرياضية وغيرها .

والمؤمنون الصادقون دعاة التجديد يتمتعون بكياسة المؤمن ومرونته ، واستيعابهم للهدى المحمدي ، ولفلسفة اللحظة التاريخية المعاصرة ، فالحديث الشريف الذي يشير إلى أن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد دين الأمة هو ملهم لهذا الفريق الإصلاحي ، الذي يدرك أن الجمود يؤدي إلى الاندثار ، على نقيض التطور الذي يسمح بالبقاء والارتقاء .

يجب أن يعيش الدعاة والأئمة عصرهم ، وأن يتجنبوا الحديث فيما يثير الخلاف بين المسلمين ، وأن يتجنبوا كذلك الأحاديث الضعيفة ، وألا يتعصبوا الرأي على حساب الآراء الأخرى ، وهم يعلمون أن هذه الآراء الأخرى صادرة عن بعض كبار العلماء ، وأن يكونوا قادرين على مواجهة التيارات الفكرية الوافدة ، وما تدبره العقول الماكرة في الشرق والغرب ضد الإسلام والمسلمين ..

إن تجديد الخطاب الديني لن يتحقق بالشكل المأمول إلا بوجود دعاة قادرين على هذا التجديد ، ولن تتحقق لهم القدرة على التجديد إلا بالإعداد الجهد على يد صفوة العلماء والدعاة المتمرسين من ذوي الخبرة الطويلة في مجال الدعوة .

الخطاب مجرد شكل أو حامل ، ثوب خارجي ، آنية تتلون بلون العصر ، دون أن يتغير شئ مما تحتويه ، وهذا هو الخطاب بمعناه الذي ورد في المعاجم العربية القديمة . فالخطاب هو الكلام والحديث والمقال والخطبة .

وليس بعيداً عن هذه المعاني ما تدل عليه الكلمة في اللغات الأوروبية ، فالخطاب في اللغة الفرنسية يعني الحديث ، والمقال ، والخطبة ، والكلام المنطقي ، والكلمة مشتقة من الفعل الذي يعني الوعظ والمحاضرة والإطناب ، والثرثرة ، وهي كلها معان بلاغية تعتبر الخطاب مجرد كلام ناقل ، أو حامل للفكرة التي يمكننا أن يعبر عنها بطرق مختلفة ، أو نصوغها في لغات متعددة ، وهكذا يفهم التقليديون معنى التجديد ، فالعلم القديم بالنسبة لهم هو العلم الجديد ، والأفكار الموروثة هي الأفكار الصحيحة ، يجب ألا تراجع ، أو يعاد النظر فيها لتميز بين الحقيقة والوهم ، أو بين الصواب والخطأ . وكل ما يمكن أن نصنعه هو أن نضعها في لغة عصرية حتى يفهمها أهل هذا الزمن الأخير .

لم يكن القدماء يعتقدون أن العلم يتجدد ، أو أن العالم يتقدم ، اللهم إلا القلة النادرة المنسية ، بل كانوا يعتقدون على العكس أن كل شئ يتقهقر ، وأن العصور القديمة هي العصور الذهبية ، وأن التقدم إلى الأمام إيغال في الخطأ ، والبعد عن الخير والحق والجمال .

ألا ترى كيف كان الشعراء العرب يعتقدون أن الأوائل لم يتركوا للأواخر سبقاً أو فضيلة ، وأن هؤلاء الأواخر لا يملكون إلا تقليد أسلافهم الذين جاءوا في أول الزمان زهرته ، ونالوا حظوته ، أما الأواخر فلم يدركوه إلا وهو شيخ فأن .

وأنت ترى أن الزمن كان بالفعل يمر قرونا بعد قرون لا يجد فيها جديد ، ولا تسقط عادة ، ولا يتغير تقليد ، اللهم إلا شيئاً واحداً هو الذي كان يتغير ، أو قل ينحط ، وهو اللغة التي كان عليها في كل الأحوال أن تنقل للأحفاد ميراث الأجداد ، ومن هنا استقر في الأذهان أن الخطاب كلام فحسب ، وأن التجديد الذي يطرأ التخلف ، وربما أغرتنا بأن نكون أكثر تخلفاً من أنفسنا ، وأن نمعن في التراجع ، ونطوي القرون القهقري بظهورنا لنعيش مع أجدادنا كما يعيشون ، ونلبس كما يلبسون ، محذوعين كما كانوا محذوعين ، ومقهورين كما كانوا مقهورين .

لكننا نفاجأ مع هذا بأن كل شئ في العالم يتغير : العلم ، والعمل ، واللغة ، والأفكار ، والدول والأحزاب ، والمصالح وموازين القوى . كل شئ يتغير لا بين قرن وقرن ، ولا بين جيل وجيل كما كان يحدث من قبل ، بل بين عشية وضحاها .

العالم الآن ليس هو العالم قبل ثلاث سنوات فقط ، والقوانين التي تسري على الآخرين تسري علينا ، فيتغير كل شئ حولنا ، ويتغير كل شئ فينا ، ولا يبقى إلا ندرك ذلك ، فنعترف بأننا نتغير ، وأننا ي-جب أن نتغير ، فليس الجمود بطولة ، وليس التحجر فضيلة ، ونحن لا نخسر شيئاً حين نتغير إذا تغيرنا بإرادتنا ، وإذا اخترنا الصورة التي يجب أن ننتقل إليها لنكون أكثر وعياً ، وأكثر قوة ، وأكثر فضيلة ، لن نخسر إلا ضعفنا وغجزنا عن حل مشكلاتنا ، وسد حاجاتنا واللحاق بالآخرين المتقدمين الذين سبقونا منذ قرون طويلة ، ومازالوا يواصلون تقدمهم حتى لم نعد قادرين على أن نحسب المسافة الفاصلة بيننا وبينهم لأنها ليست مجرد زمن يمكن ضبطه وتقييده ، وإنما هي شطحة هائلة خرجنا بها من المدار الذي يمضي فيه العالم حين انحبسنا في أفكارنا ومسلماتنا وتحجرنا فيها ، فلابد من إعادة النظر في هذه الأفكار ، وهذه السمات . لابد من تجديد الخطاب ، أي لابد من تجديد الوعي ..

ماذا يراد ؟

ماذا يكون الخطاب الديني ، وماذا يراد من تجديده ؟ وما حدود هذا التجديد وملامحه ، وما آلياته وأدواته ؟ هل هو مجرد أسلوب الدعوة إلى الإسلام ، ووسائل الإقناع التي تتنوع وتتغير تبعاً للتطور المذهل في علوم الاتصال الحديثة ؟ هل هو مجرد تطوير لطرائق عرض الإسلام لكي يلاءم المخاطبين ؟

إن كان الأمر كذلك فلا جدال في الحاجة المتجددة إلى هذا التطوير ، وهو تطوير لا يخرج على أية حال عن أنماط ثلاثة حددها القرآن الكريم ، وهي الحكمة التي تقوم على استخدام منطق العقل الخالص ، والموعظة الحسنة التي تقوم على العواطف والمشاعر والوجدانات ، والجدال بالتي هي أحسن الذي يتأسس على الحوار الجاد المثمر الذي يهدف إلى الوصول للحق ، بعيداً عن اللجاجة والمراء .

إذن فما الخطاب الديني المراد تجديده ؟ هكذا يتساءل الدكتور محمد عبد الفضيل القومي ، وكيل كلية أصول الدين بالقاهرة : هل هو – إعادة النظر في مضامين هذا الخطاب ولبنات تكوينه ، تارة بالتنصل من النص الديني الموثق – كتاباً أو سنة ، وتارة بإبطال مطلقية هذا النص تحت ستار مزعوم هو تاريخية النص حينا ونسبيته حينا ، وتارة بغرض تصور مسبق على مضامين هذا النص ، بزعم أنه يشكل عبئا على حركة الواقع وضرورته ؟

هنا تمكن الخطورة في دعوى تجديد الخطاب الديني ، وهنا يمكن السر في ارتياب الناس في مفزاه وجدواه ، لأن الأمة تدرك بوعيها الفطن أن مثل هذه الدعوات المراوغة هي دعوات إلى هدم النص المقدس ذاته ، ولو

أنصف بعض أصحاب هذا الرأي أنفسهم لنفضوا عن ذواتهم غبار المراوغة ، وصرحوا بما تخفي صدورهم بالمناداة صراحة بالإعفاء عن النص الديني المقدس ، بدلا من التظاهر الماكر بالتسليم به ، ثم الانقضاض عليه بالهدم تحت دعاوى النسبية والتاريخية والتجديد ، والتحديث ، لكنهم حين يراوغون ويضعون دعاواهم تلك تحت رواء تجديد الخطاب ، فإنهم يشوهون صورة هذا الخطاب ، ويبعثوهن في النفوس دواعي الريبة فيه ، والنفور منه .

ثم يتساءل ثانية : ما الخطاب الديني المراد تجديده ؟

هل التجديد هو دعوة خفية إلى تذويب المضمون الديني الإسلامي ، لكي ينتهي إلى تصور هلامي لأمشاج شتى من التصورات الغربية عن الإسلام لقد هدف الإسلام إلى تكوين أمة ذات تصورات اعتقاديه حاسمة ، وتوجهات تشريعية وأخلاقية محددة السمات تعترف بالتعددية .. نعم .. ولكنها لا تلغي الاختلاف بين المتعددين ، تعترف بالأغيار .. نعم ، ولكنها تحتفظ بما بينهم من فوارق ، وفي هذا تكمن مناعة الإسلام وحصانته وذاتيته ، أم أن يكون الخطاب الديني وسيلة إلى أن يكون الإسلام تيها مفتوحاً ، وقضاء مشاعاً ، باهت الملامح ، مشباح الحدود ، متنازلاً عن ثوابته لإرضاء الكل ، واستجلاب ثناء الكل ، فذلك مصدر آخر للخطورة في الخطاب الديني المراد ، وباعث آخر إلى الدينية في دعوى تجديده أو تحديثه !!

ويعاود التساؤل : إذن فما التصور المبتغي لتجديد الخطاب الديني على وجهة الصحيح ؟ . إن من يحمل بين جنبيه قلباً يخفق لهموم الأمة – وه يكثر – وعقلا يبتغي لها مسالك الرشد : يرنو إلى أن يكون تجديد الخطاب الديني منطلقاً إلى شحذ إرادة الأمة التي أصابها الصدأ ، ومنهاجاً يقيلها من عشرتها ، ويتصور لذلك خطوطاً عديدة متوازية .

يتمثل الخط الأول في ربط المشروع الوطني بالخطاب الديني ، ولئن كان تعميق تيار الحرية هو مركز الثقل في هذا المشروع ، ليكن مسار الخطاب الديني هو تأسيس الحريات على الضمان الإلهي . إن الحرية في المفهوم الإسلامي ليست منة من مخلوق ، ولا تفضلا من بشر ، ومن ثم فليس لأحد أن ينتقص منها ، طالما كانت حرية مشمولة بالدين ، ملتزمة بمعطياته .

يتمثل الخط الثاني في بربط مشروع النهضة بالخطاب الديني ، فالإسلام لا يرضى للمسلمين أمة خانعة ولا مستجدية ، ولا مستكينة ، ولا يرضى للمسلمين أن تكون مصائرهم أو حاجاتهم في أيدي الآخرين . إن مجرد وجود هذه الظاهر ينبئ عن خلل في تصور الأمة . وإن تخلي الأمة عن دورها الحضاري ينبئ هو الآخر ، عن خلل في كيانها الإسلامي الذاتي . إن الخطاب الديني هنا ينبغي أن يخرج الفرد من الانحصار في ذاته كنقطة تقاطع والتقاء ، بل الذي ينبغي أن يحرص عليه الخطاب الديني أن يصنع على عاتق الفرد – أيا كان – هموم الأمة ، بنفس المقدار الذي يحمل به هم ذاته المشخصة .

ويتمثل الخط الثالث في ربط تحديات الأمة بالخطاب الديني ، فلئن كانت الأمراض الاجتماعية السائدة مبعث قلق ، ومصدرهم فإن الخطاب الديني يجب أن يضع مقاومتها في صدر أولوياته . إن الأنانية والفردية ، والنفاق الاجتماعي ، وعدم الحرية في العمل ، واستباحة المال العام ، والتكاسل عن أداء الواجب ، كل تلك سوءات في جبين الأمة والخطاب الديني السديد يجعل مقاومتها على المستوى الفردي ولإجماعي أكبر تحدياته وأكبر مطامحه .

إن تجديد الخطاب الديني في هذه الخطوط المتوازية ليس مجرد وظيفة أو مهمة تلقي على كاهل هيئة أو مؤسسة إبراء للزمة ، بل هو مشروع نهوض كامل ينبغي أن تحتشد له الإرادات ، وتتحفز له العزائم ، لأنه المشروع الوحيد الذي يشع ببوارق الأمل الذي تلوح بشائره من قريب .

وهناك نقاط حول الخطاب نوقشت في المكتب الثقافي المصري بالكويت في ندوة ثقافية مع المثقفين من كل الدول العربية والحريصين على متابعة مثل هذه الندوات ، حول الموضوع الذي طرح نفسه بقوة ، وهو ضرورة تحديث الخطاب الديني للمسلمين في الدول العربية والإسلامية ، وجاء في هذه النقاط .

- هل العلاقة بين المسلمين وبين أصحاب الديانات الأخرى هي علاقة بين مؤمنين وكفار ، أم أنها بين مؤمنين ومؤمنين آخرين ؟

- هل الدين الإسلامي مقاصد أم نصوصي ؟ وهل من حقنا تأويل وتفسير هذه النصوص بما يتلاءم مع زماننا كما أولها السابقون بما تلاءم مع زمانهم فهم ليسوا أقل منا بل هم رجال ونحن رجال .

- موقف الدين الإسلامي من المرأة هل يحتاج إلى تغيير ، فمن أجل بناء جيل عظيم للمستقبل نحتاج إلى امرأة عظيمة ، فالمرأة إضافة إلى المجتمع كما وليس نوعا فقط .

- نحتاج إلى الدين فرادي ولكننا مفيش في جماعات .

- هل الدين جاء ليخدم البشر ويساعدهم في أمور حياتهم الدنيوية ، أم جاء ليفيدهم ؟ وجاءت الردود والإجابات مشيرة إلى نقاط مهمة وهي :

- لا يوجد في الإسلام حرب بين الأديان ، بل يوجد اتساع لكافة الأديان الأخرى ، وعلى المسلمين أن يؤمنوا بجميع الأديان السماوية حتى يكتمل إيمانهم .

- هل تجديد الخطاب الديني واجب علينا فقط أم على الآخر أيضاً ، وهل نجدد خطابنا الديني لأن الآخرين يريدوننا أن نجدد ، أم لأن الزمن الحالي يتطلب ذلك مسايرا للتطوير الحادث في جميع أمورنا الحياتية . لذلك حتى إذا لم يجدوهم فعلينا نحن أن نبدأ بالتجديد لرغبتنا في التحرر من أغلال كثيرة تقيدنا لعدم فهمنا للدين الفهم الصحيح دون أن يعني ذلك الخروج إلى الانحلال أو العبث ، أو أن يعني التحرر من الدين بل التحرر فقط من الخوف والرعب الذي يلصقونه بالدين .

- لا نحتاج إلى الدين فرداً فقط ، بل نحتاجه جماعات أيضاً فبعض أركان الدين من صلاة وزكاة وصيام نحتاجها فرادي ، ويقيمها كل منا ، ولكن ماذا عن أمور المواريث ، وقوانين الأحوال الشخصية والاقتصاد ، والتعامل الآخرين ، وحقوق الآخرين مثل حقوق الطريق ، وحقوق الجار وحقوق المجتمع من المارقين والخارجين والقصاص . فجميع هذه الأمور نحتاجها كجماعات ، لذلك نحن نحتاج للدين فرادي وجماعات .

- هل الخطاب الديني وحده الذي يحتاج إلى تجديد ، أم أن هناك أساليب حياة كثيرة تحتاج إلى التغيير ؟ ومادام الأمر كذلك فلماذا نبدأ بتجديد أو تغيير الخطاب الديني ، وهو آخر ما يحتاج إلى التغيير ؟ فهناك الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وأساليب الحياة ، والإيمان بالخزافات والمعتقدات التي لم ترد بأي دين ، وغيرها الكثير الذي يحتاج إلى تغيير أولاً .

- أي خطاب ديني هو الذي يحتاج إلى التجديد ؟

- شكل الخطاب الديني في رأي البعض هو الذي يحتاج إلى تغيير أو إلى تحديث لأنه يتميز بالصوت العالي أو الصراخ ، فنحن الدين الوحيد الذي يستخدم الميكرفون في الصلاة ، والعامة من خطباء المساجد يستخدمون النبرة العالية في خطبهم للإضافة من ا لعقاب المنتظر ، أكثر من استخدامهم للنبرة الهادئة المحببة التي تحبب المستمعين في الدين والتدين لما ينتظرهم من ثواب .. وإنك لتجد المساجد المتلاصقة تستخدم الميكرفونات فلا تدري أتسمع لهذا أو لذاك ، وتكون النتيجة إلا سماع ..

- هل مطلب تحديث الخطاب الديني بدأ بسبب مطالبة الغرب لنا بإلغاء عقوبة الإعلام وبسبب أيضاً مصادرة بعض الإنتاج الأدبي المتحرر الذي لا يعترف بأي دين ؟ وهل يجب علينا تغيير خطابنا الديني بأمر الآخرين أم نغيره لمتطلبات زمان دون المساس بالنصوص فقط ، ولكن في التغيرات التي اختلف فيها السابقون ، وحملوها أكثر معنى ، فالدين يسر لا عسر ، وهل نرفض التجديد بشكل عام قاطع ، أم نرفض فقط التجديد الفوري ، ونوافق على التدرج في هذا التجديد ؟ .

- ما هي الأهمية لدى الغرب في أن يغيروا فينا ثقافتنا الدينية من إلغاء لعقوبة الإعلام ، وقواعد المواريث وأحكام الزواج والطلاق ، وماذا سيستفيدون من مساواة الرجل بالمرأة في الميراث ، وما يتبعه من تغيير في النصوص القرآنية . وهل التغيير يدب ا، يكون في صالحنا أم في صالح الآخرين ؟ أليس هناك دول وولايات في الغرب ما زالت تطبق عقوبة الإعلام ؟ أليست هناك ولايات تختلف فيما بينها في السماح بالطلاق من عدمه ، بل وفي تجريم بعض الجرائم من عدمه ؟ فلماذا لا يوحدون القوانين عندهم أولاً قبل أن يطالبونا بتغيير هذه القوانين لدينا .

- المقاصد التي تسعى إليها جميع الأديان واحدة ، ولكن يجب أن نفرق بين المقاصد والوسائل ، فالحصول على الديمقراطية مقصد نبيل ، ولكن الحصول عليها بالانقلابات العسكرية لا يمكن أن يكون مقصداً نبيلاً ، بل وسيلة دموية لا تعبر عن المقصد النبيل .

- إن المشكلات بين الغرب وبين المنطقة التي نعيش فيها لم تكن أبداً بسبب الخطاب الديني .

- نعلم أن أحداث ١١ سبتمبر جعلت الغرب يهتمون كثيراً بهذه المنطقة ، وأنه لا عودة عن وضعها تحت المنظار ، ولكن تطوير سبل الحياة في هذه المنطقة ، وتوفير المعيشة اللائقة لسكانها الفقراء ، وتطوير اقتصاد هذه الدول ومساعدتهم في إقامة المشاريع التنموية التي تحتاجها هي التي ستجلب العيش في سلام بين الشرق والغرب ، وليس تجديد الخطاب الديني وحده هو الذي سيجلب هذا التعايش السلمي ، بل حسن الجوار ومساعدة الفقراء ، فالخطاب الديني هو آخر ما يتطلب التغيير ، وسيأتي دوره بعد أن يجد من يشتغل الدين للانتقام من الأغنياء ، وفيما يسدد معه ، ويوفر له المعيشة اللائقة ، وحقوق إنسانية ..

تلك هي الحوارات الديمقراطية التي دارت في ثروة ثقافية مصرية على أرض دولة عربية شقيقة ، يخضع الخطاب الدين يفي فكره ومنهجه وأسلوب أدائه إلى العقيدة الدينية ، وإلى الطريقة التي حددتها هذه العقيدة عند توجيه الخطاب الديني إلى معتنقيها من جهة ، وإلى غير معتنقيها من جهة أخرى ، والخطاب الديني في مفهومه العام يشمل نظام العلاقات التي تربط الإنسان مع الله ، ومع غيره من نبي البشر جميعاً ، ومما ينبغي الإشارة إليه أن مفهوم المواطنة ، وتحديد الحقوق والواجبات لمواطني الدولة يخضع في الديني الإسلامي إلى النصوص الدينية ، والأحكام الشرعية للدين ، وإلى العهود والمواثيق التي تصدرها الدولة الإسلامية لتحديد نظام التعايش والتعامل بني المواطنين .

قد يظن البعض أن الخطاب الديني الذي ندعو إليه ، والذي يساير الفكر المعاصر معناه تغيير الدين الإسلامي ومقاصده ، والتغاضي عن بعض أوامره ونواهيه ، وذلك بترك الحديث عن بعض أحكام الإسلام . وهذا غير صحيح ، ولا هو بالمقصود على الإطلاق ، وإنما المقصود بما نريده من الخطاب الديني أن في أحكام ونصوص الشريعة والفقه أحاماً ثابتة بنصوص ثابتة لا تتغير ، هو ما يطلق عليه بالثوابت نوهي متعلقة أساساً بالعقيدة ، وبعض الأحكام قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، ولكن هناك مساحة من أحكام الشريعة متغيرة بمعنى الفتوى ، فهي تتغير كما قال الفقهاء مكاناً وزماناً وشخصاً ، وبالتالي يحتاج الفكر الديني الإسلامي في هذه القضايا إلى النظر والاجتهاد المتجدد لإصدار الأحكام والفتاوى والتشريعات التي تناسب الزمان والمكان ، والتغير في أحوال الناس ، وهي فكرة الاجتهاد ، ولكن الاجتهاد هذا له أهله من العلماء والمفكرين الإسلاميين الذي يملكون أدواته .. هذا إلى جانب ما يقدمه الأئمة والدعاة من فكر لا يتناسب مع المتلقي ، حيث يجد نفسه أمام خطاب لا يفهم منه شيئاً بأسلوب غامض ، وكلام غير مبين ، وجنوح إلى سرد بعض المواقف التي قد تكون في غاية الغموض في أشخاصها وأماكنها وحواراتها ..

من أجل ذلك هنا لك الكثير عن مشكلات خطبة الجمعة في معظم وغالبية المساجد .. في المدن وفي الأرياف ، في الأحياء الراقية ، وفي الأحياء الشعبية مما دفع وزارة الأوقاف إلى وضع كتب يهتدي بها الإمام في خطبته .. الكتاب به العناصر والموضوع والمصادر ، ويعد بحق مرجعاً ضرورياً لكل إمام وليس للبعض وفق القاعدة الإسلامية ، وضع مادته نخبة من العلماء وكبار الدعاة ، وهذا لا بأس به غير انه يؤخذ في الاعتبار أن بعضاً من الأئمة لديهم الفكر الثاقب ، والبيان والتبيان ، وأنهم مع التطور والتجديد والبحث والاطلاع ، فيقدمون ما يشرح صدور المتلقين وما يثلج نفوسهم فلا خير إذا ما نهجوا بذاتهم الطريق إلى ما فيه الرشاد والفلاح ، وما يحقق الفائدة المرجوة .

ورغم الجهد الذي بذل في وضع هذا المرجع ، إلا أن عدداً قليلاً هو الذي أقبل عليه واستفاد منه ، وعمل به ، والآخر استمر في طريقته حتى أن الخطبة ربما تستغرق أكثر من ٥٠ دقيقة ويحاول كبار السن وأصحاب الأمراض العصرية والذين لم تساعدهم ظروفهم الاستمرار ، ويظلون بين واقف وجالس حتى ينتهي الخطيب من خطبته وهو يعيد ويزيد ، ويلف ويدور دون أية جدوى أو فائدة ، ونسى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من صلى بالناس فليخفف " .

وقد يصلى المصلون في الشارع وسط حرارة الشمس ، والرطوبة ، والخطيب يؤكد لمصلين على وجود الله عز وجل ووحدانيته ، مع العلم أن الذي يذهب إلى المسجد طواعية ويؤدي الفروض الخمسة وصلاة الجمعة هو يعرف يقيناً أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، أو يصر الإمام على الدخول في صراع مع المصلين هل صلاة الجمعة لا تسبقها أي صلاة حتى ولو كانت ركعتين كسنة مؤكدة أو غير مؤكدة ، ومن يرى أنها ضرورة ، وبمعنى آخر " مستحبة " أو لا تضر إن لم تنفع ، ويستمر الصراع وكل يرى رأيه هو الصحيح ، فهل يفيد الإمام إذا صلى المسلم ركعتين أم لا ؟ ..

ولو عرف الإمام والخطيب أن عليه واجبات – مثلما له حقوق – لذاكر واجتهد وأطلع وتأكد من أن البلاغة أن تقول المفيد والمهم من رصيد المعلومات التي لديك في أقصر وقت ..

إن الدعاة لابد أن يكونوا على قدر عال من الثقافة الدينية والسياسية ، وأن يفهموا مصطلحات حقوق الإنسان وأهميتها في الخطاب الدول المعاصر ، وهذا يتطلب دورات مكثفة في هذا المجال .

إن على الدعاة أن يقرءوا بشك متعمق في كثير من القضايا التي لم يقفلها الإسلام كقضية المساواة بين الرجل والمرأة ، وبيان موقف الإسلام منها ، وأن المساواة في كل شئ مبدأ من المبادئ النبيلة ، وأن الإسلام يقوم على عدالة الخالق (سبحانه وتعالى) الذي يسوى بني الأحياء في الدنيا ولكن محتويات كل فرد تختلف عن الآخر .

إن على الدعاة في خطب الجمعة والندوات والمنتديات ، وكتابات الصفحات الدينية أن يوضحوا للناس موقف الإسلام من حقوق الإنسان ، وأن الإسلام أول من دعا لحقوق الإنسان وحماية النفس والمال والعرض والعقل والدين ، وقد أسس لها النبي (صلى الله عليه وسلم) ويعد أو لمن تكلم في حقوق الإنسان وذلك في حجة الوداع ، وأن الحديث عن حقوق الإنسان يعتبر فريضة وليس نافلة .

إن اعتداء أي إنسان على أخيه الإنسان بما يمس أمراً من الأمور الحياتية لابد أن يحاسبه المجتمع عليها بدءا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتهاء بالعقوبة التي يصدرها القاضي لردع المعتدين ، فالإسلام جاء ليرفع الظلم عن المظلومين ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، فلا يجوز قوي على ضعيف ، ولا يعتدي إنسان على حق آخر ، ولا يأكل أموال الآخرين ظلماً ، ويسود الحياة العدل ، ويسري فيها الأمن والأمان وأن الإسلام يحق الحق ، ويبطل الباطل ويعتمد حقوق المواطنين جميعاً ..

يرى محسن صلاح الدين المستادي ، عضواً المجلس الإسلامي الأعلى بتونس ، أن الخطاب الديني في العالم الإسلامي يحتاج إلى مراجعة عميقة مواكبة للمرحلة التي تعيشها الأمة الإسلامية ، وهذه المراجعة يمليها علينا الواقع ، وتعاليم الدين .

نحن نريد لهذا الدين أن يظل فعالاً ومؤثراً على المسلم في سائر مجالات حياته ، ولابد أن يكون لهذا الخطاب من الواقعية والمرونة والاعتدال ما يجعل المسلم وهو يتلقاه يكتسب التوازن في كيانه الروحي ، فإذا وجد الفرد خطاباً دينياً يتحدث في أمور بعيدة عن دنياه ، فإنه يتأثر به وسيعود بعده لدنياه . فالمطلوب أن يكون الخطاب الديني كما ينادي الإسلام أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً ..

فخطابنا الديني الموجه للفرد والجماعة لابد أن يكون خطاباً متوازناً ومعتلاً فيه سماحة ورفق ورحمة ومعايشة في الآخرة ليس فيه غطرسة ولا ظلم وعدوان " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " والرحمة لا يمكن أن تنقلب نقمة ، ومن قلبها فهو جرم عظيم في حق الإنسان ..

إن تحديث الخطاب الديني لا يكون إلا بأهل الذكر ، والمسئولية أولاً وأخيراً ترجع للعلماء في هذا المجال وهؤلاء يجب أن يسيروا عل نهج المصلحين من أمثال الشيخ محمد عبده ، فالأمة محتاجة إليه اليوم أكثر مما كانت تحتاج إليه من قبل ، وهو والكوكبة التي تجاوبت معه ، فهؤلاء كانوا يحركون السواكن ، ويتخذون الشعارات حركة إصلاحية ، وهذا ما نحتاج إليه اليوم ، هو تحريك السواكن لدى المسلمين ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، يقول تبارك وتعالى : " ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " .

ولابد من توحيد الفتوى في الدول الإسلامية في الأمور الأساسية الكبرى ، فالحظر من ذلك هو تولي الفتوى ممن ليست له مؤهلات الإفتاء ، هذا ما تعانيه بعض المجتمعات الإسلامية ، ويقول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني لو أني قلت في القرآن برأيي) ، وما نرى من تشتت في الفتوى ما هي بفتاوى صادرة من العلماء الإعلام الذين لهم حد أدنى من العلم .

الدعوة والداعية :

الدعوة إلى الله تعالى لها أساليب علمية يجب إتباعها ، منها مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، ويختلف الأسلوب باختلاف المقام ، وعلى الداعي أن يكون ملما بكل هذه الأساليب والطرق في إقناع من يخاطبهم ، وأن تكون لديهم الحجة البينة والدليل الواضح على ما يقدمون به فقد جاء في الأثر أن رجلاً كافراً ومصرا على الكفر ، وحاول المؤمنون عبثا أن يقنعوه ، فأرسلوه إلى الإمام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) فأتاه فأجلسه الإمام أمامه ، وقال له : أنا أؤمن بالله وبرسوله وبحقيقة البعث بعد الموت ، والحساب الآخرة ، والجنة والنار ، وأنت لا تؤمن بهذا ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : إذن فأحدنا على حق والآخر على باطل ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : لو كنت أنت على حق ، ومت أنا ومت أنت ، ولم نجد بعد الموت حساباً ولا جنة ولا ناراً ، فقد تخلصت أنا ، وتخلصت أنت وما خسرت أنا بإيماني شيئاً ، وما رجت أنت بكفرك شيئاً أيضاً ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام : وإذا كنت أنا على حق ومتنا وبعثنا في الآخرة ، ووجدنا المحكمة الإلهية منعقدة ، وهناك الحساب ، والجنة والنار هناك سأكون أنا بإيماني فائزاً ، وستكون أنت بكفرك خاسراً ، أليس كذلك ؟ قال الكافر : نعم . قال الإمام إذن فأنا بإيماني على الحالين فائز ، وأنت بكفرك على الحالين خاسر ، أو لا تكسب شيئاً . فقال الكافر : نعم . فقال الإمام للكافر : فمن باب مصلحتك وحرصك على نفسك ، ومن باب الوقوف على بر الأمان ، ليس أمامك إلا أن تؤمن بالله وبرسوله ، وبحقيقة البعث بعد الموت ، والحساب في الآخرة . فما كان من الكافر إلا أن تفكر ساعة ثم عاد وقال : يا إمام : أشهد أمامك : ألا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن البعث بعد الموت حق ، وأن الجنة والنار حق ، فقال له الإمام : الآن نجوت بنفسك .

فمن الأساليب الجيدة التي تترك أثراً إيجابياً في النفس الإنسانية الحكاية أو القصة وضرب المثل وقد استخدم القرآن هذا النموذج كثيراً ، ليكون عبرة للمخاطب ، وهناك نموذجان أحدهما إيجابي في العقل ، والآخر سلبي . وينبغي التركيز على النموذج الأول في البداية لإثارة غريزة النفس الإيجابية وإعلاء قيمتها ، ومحاولة تقليدها في ظل التنافس الشريف ، وقد وردت هذه الأمثلة في كثير من المواضع في القرآن الكريم ومنها : " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً " (مريم ٤١) ففي قصة إبراهيم عليه السلام نجد أنه لم يترك والده وقومه يعبدون الأصنام والكواكب ، إنما حاول معهم بشتى الطرق ، وقدم لهم الأدلة على أن عبادتهم لا تضر ولا تنفع ، وإنما يجب ا، يوجهوا عبادتهم لله وحده ، فكان في قوله لينا واضحاً .

وعن النموذج الآخر فقد تعرض له القرآن الكريم ولكنه لم يصف السوء أو الفاحشة وصفاً تعليمياً يفسد الناس ، في حين نجد بعض الأعمال التلفزيونية عندما تتعرض لقضية ما مثل المخدرات رغم التنفير منها ، تجدهم يركزون في أغلب الوقت على كيفية وقوع السلوك المشين فتتولد لدى المشاهد الرغبة في التقليد ، من هنا يصبح هذا العلم مدمراً لأغلب الشباب ، نتيجة استخدام الأسلوب الخطأ في عرض الموضوع ، بينما القرآن الكريم يقدم أسلوباً مختلفاً حتى في الجوانب السيئة حيث لا يزيد المعرفة السلبية لمن يقرءوه . قال تعالى : " وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك " ٠ يوسف ٢٣) فمن يقرأ الآية يفهمها حسب ثقافته ولا يضيف لهذا المعنى شيئاً سواء كان شكلاً أو موضوعاً ، لأنه يصف هذا الجانب في اختصار شديد ، وفي ذات الوقت الذي يطلب ويفصل في العلاج . فلا يجب الاستطراد في عرض الواقعة السيئة وتجسيد مشاهدها ، ويجب أن نزيد في شرح أسلوب العلاج .

ومن هنا لابد من إعداد الدعاة وأن هناك دوراً مهماً يقع على عاتق كل المنظمات العالمة في خدمة الإسلام والمسلمين لارتباط هذه القضية بما تسعى إليه من تطوير الخطاب الديني ، لأن المنفذ لهذه الخطة هو الداعية ، ولا يمكن أن تنجح دعوات الحوار مع الآخر ، وتحديث الخطاب الإسلامي إلا من خلال دعاة يفهمون لغة العصر والمخاطبين لهم حتى لا يكون هذا في واد ، والأخر في واد لا صلة له به ، ولابد أن يفهم الداعي الآثار التي ترتبت على ثورة الاتصالات والمواصلات ، وارتباط العالم بشبكة قوية وسريعة .

وليس من شك في أن الإعداد الجيد لمثل هؤلاء الدعاة يحظى باهتمام ملحوظ ، ومن أمثلة ذلك العديد من المؤتمرات التي نظمها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وكلها دارت حول وضع مشروع نهضة العالم الإسلامي في جميع الجوانب ، وكان هناك مؤتمر تناول تجديد الفكر الإسلامي والداعية هو الأساس في هذا التجديد والتحديث ، كما قامت رابطة العالم الإسلامي ، ورابطة الجامعات الإسلامية بإعداد دراسات ، وتنظيم مؤتمرات حول الخاطر والتحديات والمشكلات التي تواجه الأمة ، وكان في مقدمة ذلك كيف يتم إعداد داعية وإمام يتكيف مع ظروف العصر ، ولكن هذا الجهد ما زال غير كاف ، وفي حاجة إلى المزيد ، وإلى تحديد مظاهر الأزمة في الخطاب الإسلامي المعاصر ، فليس من المعقول أن في عصرنا دعاة يتعاملون مع مخاطبيهم بأسلوب عقيم .

الواقع أن الخطابة في داخل دولنا وخارجها ليست على المستوى المطلوب ، وهي في حاجة إلى المراجعة سواء في خطبة الجمعة ومختلف الدروس والعظات التي تعطي في المساجد ، وفي مراكزنا الثقافية والإعلامية المختلفة في كثير من الدول الإسلامية .

إن هناك من يقف على المنابر ولا يستطيع التعبير عن عقول الجماهير أو مخاطبها بمضمون الرسالة الإسلامية التي يحتاجها الناس ، ونحن لدينا نسبة أمية مرتفعة في بلادنا الإسلامية ، وهذا يمثل خطورة ، لأن المسجد وخطبة الجمعة بالذات هما الوسيلة الوحيدة للتثقيف والتعليم الديني للأميين بمختلف فئاتهم ؛ لذا فإن تأثير المسجد والخطيب عليهم يعد تأثيراً كبيراً ، وهذا يتطلب أن يكون الخطاب الإسلامي الصادر منه قوياً ومهماً ومتنوعاً ، وبالطبع لا تتم الدعوة بدون داعية مؤهل لهذا الفرض يقوم بواجبات الدعوة على الوجه الأكمل ، وكلما كان الداعية مؤهلاً ومسلحاً بأسلحة العلم ، كان النجاح حليفة وزاد عدو المدعوين والمتقبلين لتلك الدعوة ، فلا يجب التشديد على الناس بشكل عام ، والاعتماد على الوعيد ، كما يعتمدون في الترهيب على لأحاديث ضعيفة ، وروايات وإسرائيليات لا يمكن أن يقبلها العقل ، إلى جانب ضعف مستوى البعض في اللغة العربية وعدم حفظة القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكذلك تناولهم لموضوعات جانبية لا تتصل بأحداث الحياة ومشكلات المسلمين المعاصرة .

وقد نشرت بعض الصحف أخبار كثيرة عن أئمة في الغرب يدعون إلى التطرف – سواء بقصد أو بدون – وهم بذلك يتسببون في إثارة المشكلات ، وبلا شك فقد أثرت هذه المشكلة على المسلمين بشكل عام ، ولابد من تأهيل وتوجيه أئمة على قدر عال من العلم ، وسعة الأفق ، ودارسين لمنهج الإسلام الوسطى المعتدل ، ويجيدون اللغات الأجنبية . فبقدر ما تحمله لنا من مشكلات جمة ، إلا أن هناك بارقة أمل ، ومن داخل البلدان الأوروبية نفسها .. فعلى سبيل المثال فإن الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا ، الذي قال : " من الأديان نتعلم .. ومن الإسلام تعلمنا " وأمثاله من المنصفين هم بحق بارقة أمل ودعم كبير للمسلمين في الغرب ..

ولا يألو الأزهر الشريف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية جهداً في دعم وتطوير أداء الأئمة المبعوثين في الغرب ، وأن الرئيس الفرنسي جاك شيراك أبدي استعداده للتعاون مع الأزهر للقضاء على العنف والتطرف ، ودعا لمؤتمر يضم العقول المفكرة للجاليات الإسلامية في الغرب لبحث تلك الأمور الشائكة ..

دعاة الديانات :

نحن في حاجة إلى تجديد الخطاب الديني في عصر العولمة والمعلومات ، وما من شك في أن الخطاب الديني من أقوى الخطابات المؤثرة في تحريك الجماهير ، إن لم يكن أقواها ، وما من شك في أن هذه الظاهرة تخصص عدداً من البلاد أهمها مصر .

ففي مصر مثلاً اكتسب الخطاب الديني قوة غير عادية بعد نكسة ٦٧ وحدث ما يسمى برد الفعل العكسي ضد الخطاب السياسي حيث حللت أسباب النكسة على أساس أن الأمة قد ابتعدت عن الله ، والكتب المقدسة ، واكتسب قوة أكثر بظهور العذراء في الزيتون ، ثم بظهور الملائكة وهم يضللون الجنود أثناء العبور في ٧٣ . وإلى يومنا هذا لم يجب الخطاب الديني أي خطاب آخر رغم محاولات الخطاب السياسي والخطاب الثقافي والخطاب الفني دون تقديم البديل المقنع ، وليس المطلوب هنا هو عزل الخطاب الديني عن الحديث في الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحوار الحضارات وحقوق الإنسان ... على العكسي فعلى الخطاب الديني أن يتناول كل هذه الأمور والقضايا وإعلان رأي وتوجه الدين بشأنها . أي أن الخطاب الديني يكون بمثابة الضابط الأخلاقي والروحي لقضايا السياسية والاقتصاد والاجتماع ، وليس وسيلة يستخدمها الخطاب السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي لتحقيق مآربه .

إن قضية تجديد الخطاب الديني قضية قديمة متجددة دائماً ، وزاد من حدتها عصر العولمة ، وسقوط الحدود بين الدول ، وانتصار النزعة الإنسانية ، والدعوة إلى حضارة إنسانية واحدة تقوم بعمل مصالحة لأيدلوجيات

المتعددة في إطار إنساني واحد ، ومن أهم التوجهات المعاصرة إليه كإنسان ، وإعطاؤه كل حقوقه الدينية والاجتماعية بغض النظر عن انتماءاته ، فيكفي أنه إنسان ، وقبول الأخر والنظر عن انتماءاته بغير اهتمام يعني القضاء على التعجب في أي مجتمع من المجتمعات ، فالتعصب في أحد تعريفاته هو تقييم الإنسان على أساس انتماءاته ، وليس على أساس شخصه أو كونه إنساناً .

ويقول علماء النفس : إن التعصب خمس درجات ، يبدأ بالتعصب بالكلام ، ثم التجنب فالاضطهاد فالعنف ، وأخيراً الإرهاب . والتعصب بالكلام يأتي من خلال الخطاب الديني والتعليم في داخل الجماعة الواحدة حيث يشوه الآخر ، وعندئذ تنتقل الجماعة نتيجة الكلام إلى التجنب أي رفض التعامل مع الآخر المختلف ، ثم الاضطهاد وهو محاولة مضايقة الآخر المختلفة في عمله ومسكنه وعائلته ، ثم العنف حيث الضرب والجرح ، وأخيراً الإرهاب .

ويقول العلماء أيضاً : إن الانتقال من درجة إلى أخرى من هذه الدرجات الخمس صعوداً أو هبوطاً في أي مجتمع من المجتمعات يتوقف على الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فعندما يعيش مجتمع متعصباً بالكلام فقط لا يكون أفضل من مجتمع يعيش التعصب بالإرهاب . الفرق بينهما أن المجتمع الأخير أتاحت ظروفه السياسية والاقتصادية أن يتحول الكلام إلى عنف وإرهاب ، أما المجتمع الأول فلم تسمح له ظروفه بذلك ، فالتعصب هو التعصب في أي حالة من الحالات الخمس وهضم حقوق الإنسان يبدأ من التعصب بالكلام .

وهناك من يعتبر أن الخطاب الديني بطبيعته غير قابل للتجديد وذلك لأسباب منها : لأن الخطاب الديني بطبيعته يتحدث عن مطلقات . فلأن طابع الخطاب الديني يتحدث عن أبيض مطلق ، وأسود مطلق . خير مطلق ، وشر مطلق ، لذلك فالمنطقة الرمادية غير موجودة وبالتالي فإن أتباع الدين يقدمه الخطاب الديني هم الذين يحملون الحق ، أما الآخرون مهما كانوا فهم يحملون الزيف . وهكذا نرى أن الحدود في هذا الخطاب واضحة ، والدلائل معلنة ، والمصطلحات لا لبس فيها ، ولذلك فكل من ليس من الخير فهو في الشر ، ويجب احتقاره ورفضه على جميع المستويات .

ولأن الخطاب الديني يتحدث عن مقدسات : بمعنى أن ما يقوله المفسر يعضده بآيات مقدسة ولذلك فالرأي هنا ليس للمفر أو للواعظ ولكنه الله ، فالله هو الذي يقول ، ومضمون كلمات الله يقدمها الواعظ ، فمن يجرؤ على مناقشة الله ؟ وإذا حاول شخص آخر تقديم أي اجتهاد ، أو تفسير مختلف فإنه يحدث التكفير ، فكل شخص يكفر الآخر .

ولأن الخطاب الديني يركز على الذات والانتماء ، فمن أساسيات الخطاب الديني التركيز على الذات ، والدعوة للانتماء ، وتعليم المبادئ الأساسية للدين ، وهكذا ، فالتركيز المبالغ فيه على الذات يعني في مضمونه نفي الآخر أو المختلف ، حتى دون هجوم مباشر عليه ، وهذا ما يسمونه التعصب بالحب ، فمن كثرة حب الإنسان لدينه يتجاهل الديانات الأخرى دون نية سيئة .

ولأن الخطاب الديني بطبيعته يرفض الحوار ، فالخطاب الديني له اتجاه من المتحدث إلى المتلقي ، وهنا يقوم صاحب الخطاب يتخيل الآخر وهو يجاوره فيثير الأسئلة ويرد عليها ، ويقوم بتفسير النصوص للآخر بحسب وجهة نظره .

وتفسير نصوص الدين الآخر المختلف من أكثر الأمور إيلاما للنفس ، فيعتبر من تعرضت نصوصه للتفسير من جانبه الآخر أن هذا اعتداء على مقدساته وتشويه لكتبه المقدسة مم يعمق الكراهية ، ويؤجج الصراع .

ولأن الخطاب الديني يتضمن دعوة للآخرين المختلفين للانضمام إليه . لأن الخطاب الديني بطبيعته خطاب دعوة للآخرين ، وإقناعهم بالعدول عن أفكارهم والانتماء لأصحاب الخطاب ، لذلك فهو خطاب دفاعي هجومي . ففي مرحلة الدفاع يحاول الرد على الخطابات الدينية المطروحة على الساحة ، والمختلفة معه ، ثم يقوم بعملية هجوم عليها ، ولأنه خطاب إقناع ودعوة لذلك فهو يستخدم كل أدوات الإقناع الممكنة ، وفي سبيل الوصول إلى الإقناع نجد نماذج متعددة للخطاب الديني :

الأول : الخطاب الديني الثائر : وفي هذا الخطاب تستخدم المصطلحات التي تهيج النفوس ضد الفساد ، وضد الظلم ، وضد الكفر ... وهنا يكون الصوت المرتفع ، والنبرات المعبرة ، بحيث يخرج الناس من أمام الخطيب وهم في حالة ثورة ضد البشر الفاسدين والكافرين ، فإذا بهم يمتلئون حنقا على كل ذي نعمة ، ويعتبرنه لصاً ، وكل من يتبع ديناً آخر يعتبرونه كافراً ، فإذا حدث أي احتكاك يكون التدمير .

الثاني : الخطاب الديني الساخر : وفيه يقوم بمناقشة عقائد الآخر المختلف بطريقة ساخرة يسفه فيها ما يؤمن به الآخر ، ويجعل المستمعين إليه يضحكون هازئين ، وهذا يولد نوعاً من احتقار الآخر ورفضه ، وعند حدوث أي شرارة يتحول هذا الفكر إلى عنف شديد ضد الآخر .

الثالث : الخطاب الديني المتجهم : وهذا النوع ليس بثائر ، فهو يتحدث بهدوء وتؤدة ، وهو ليس بالساخر ، فهو يرفض السخرية تماماً ، ولكنه خطاب تجهمي تشاؤمي رافض لكل رأي مختلف أو رؤية مختلفة ، ويعتبر أن الدين قد جاء لمذلة الإنسان وتقشفه ، وأن أي مظاهر للفرح أو البهجة ، أو العلاقات الاجتماعية هي من الشيطان ، بل إن الموسيقى والفنون كلها من عند إبليس . لذلك فكل فنان فاسق ، وكل موسيقي منحرف .. وهو يشحن النفوس ضد أي مظهر للمدنية ، وضد أي عقيدة مختلفة .

وليس من شك في أن للقائمين على خطاب ديني غير متجدد لهم منطقهم ، وهم يعتمدون في هذا على ما يلي :

١ – الخوف من الحرية : إن الخطيب الديني يخاف من تحرر أتباعه في الفكر ، فكثيرون من الخطباء يشفقون على جماهيرهم بالقول : " إن الوعي الناقد يزلزلهم " ويقول آخرون : " إن الوعي كفيل لأن يقودهم إلى الفوضى ... " فهل وعي الجمهور يقود إلى الانهيار ؟

والخوف من الحرية لا يتوقف فقط على الخطباء ، بل يتبناه جمهور المستمعين أيضاً ، فالبشر يميلون دائماً إلى الإجابات الجاهزة المريحة دون وعي بالذات ، ولما كان الناس قليلاً ما يعترفون بخوفهم من الحرية ، فهم يميلون دائماً إل تمويه هذه الحقيقة ، وربما بدون وعي في بعض الأحيان – بتنصيب أنفسهم مدافعين عنها . فالذين يخافون الحرية يحاولون دائماً أن يغلقوا شكوكهم في إطار العقلانية ، والتدبر العميق الذي هو في الحقيقة خوف من الحرية التي تلقي بهم في دائرة الحوار مع النفس ، ومع الآخرين بعد رفضهم الكامل للآخرين ، وهذا التوجه يرفض أي محاولة للتجديد في الخطاب الديني .

٢ – محاولة الحصول على الجماهيرية : فالخطاب الديني المتعصب والجامد في البلاد المختلفة يحصل على جماهيرية واسعة ، حيث ترفض الجماهير الرأي المختلف ، لأنها غير قادرة على الحوار ، ولها حساسية خاصة للدين ، وحيث أن معظم الجماهير لها إدراك محدود سواء من الناحية الثقافية أو الناحية الدينية ، فالخطاب الذي يهاجم الآخر المختلف يثير النزعات البدائية في داخل النفوس ، ويعطي جماهيرية للمتحدثين به . بينما الخطاب المستنير الذي يتحدث عن قبول الآخر ، والحوار ، يتهم بالكفر ، ومسك العصا من المنتصف ، وعدم التمسك بالحق كاملاً ، بل ويتهم بأنه يقدم تنازلات ، ولذلك فالخطاب الديني يتنازل عن الاستنارة في مقابل الحصول على الجماهيرية .

٣ – السلطة الأبوية والتكنيك الخطابي : فالخطيب يعلم ، والمستمع يتلقى ، والخطيب يعرف كل شئ ، والمستمع لا يعرف ، والخطيب يفكر ، والمستمع لا يفكر ، والخطيب ينظر وينظم والمستمع لا ينظر ولا ينظم . والخطيب يختار ويفرض اختياره ، والمستمع يذعن ، والخطيب يتصرف ، والمستمع يعيش في وهم التصرف من خلال عمل الخطيب . والخطيب يختار البرنامج والمحتوى والمستمع يتأقلم مع الاختيار . والخطيب يدرك المعرفة ، ويتدخل فيها ويحول دون المستمعين ودون ممارستهم حرياتهم . وفي النهاية فالخطيب هو قوام التعليم الديني ، والمستمع هو النتيجة هو لذلك يسلب الحق الإنساني للمستمع في أن يقدم رأيه وفكره ويحاور . ولذلك لا عجب أن يتجمد الخطاب الديني عند منطقة معينة ، ويرفض أي تجديد .

ولكن يصير الخطاب الديني خطاباً متجدداً لابد من أن يعتبر الخطاب الديني جمهور المستهدفين كائنات تمارس وجوداً غير مكتمل ، وهذه ظاهرة تميز الإنسان عن سائر الكائنات . ففي مملكة الحيوان مثلاً التي تملك بدورها وجوداً غير مكتمل ، إلا أنها لتملك وجوداً تاريخياً لأنها لا تعي كالإنسان حقيقية عدم كمالها .

فالإنسان يعي ويعترف بأنه كائن غير كامل ، وهذا يدعوه لأن يسمع ويتعلم كوسيلة لتطوير نفسه . وانطلاقاً من ذلك فعلى الخطاب الديني يعيد صنع الإنسان لتحويل الكينونة إلى ضرورة . فالخطاب الديني الحالي يتبنى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان . وكلما كانت الفكرة قديمة كانت أفضل ، وكلما كانت منتشرة كانت أعمق ، وهكذا ، لكن الخطاب الديني يحتاج أن يتفاعل مع مقومات العصر في تقديم تفسير جديد للدين يتعامل مع ضرورة الإنسان وتغيره المستمر مع العالم المتغير ، وبهذا يستطيع أن يقدم الأبدال دائماً ، ويتفاعل مع الحرية ، وحقوق الإنسان .

وذلك ما يطابق الحقيقة التاريخية للإنسان ، فهو يعترف بحقيقة الوجود الإنساني المتسامي والمتجه دوماً إلى الأمام ، وهو يعتبر النظر إلى الماضي مجرد وسيلة يتفهم بها كيف يبني عالم المستقبل بحكمة .

إن كل جماعة تعتبر أنها تمتلك الحق بشكل كامل ، لذلك فأي جماعة أخرى لا تمتلكه كاملاً ، لكن الحقيقة أننا لا تمتلك الحق ، ولكن الحق هو الذي يمتلكنا . ونحن نعبر عما نفهمه من الحق ، فالحق المطلق أكبر وأعظم من كل المفاهيم البشرية ، والتفسيرات الإنسانية ، وإن كان كل دين أو مذهب يعتبر أنه يملك الحق بشكل كامل فعليه لا يسلب حق الآخر أن يرد ونفس المفهوم ، فكل جماعة تؤمن أنها تمتلك الحق ، لكن هذا لا يدعونا أن نفرض ما نملكه على الآخرين ، لكن أن نقبل الآخر على المستوى الإنساني .

ويجب أن نحول الخطاب الديني إلى حوار حقيقي (وضع الآخر في الوعي) ، والحوار هنا لا يعني الجدل العقيم ، وإنما هو ضرب من الوعي بالواقع الإنساني . فالإنسان عندما يتبين واقعة يدخل في علاقة حوارية مع نفسه أولاً ، ثم مع أتباع دينه ، ثم مع العالم . هذه العلاقة الحوارية هي التي تخدم الوعي ، وهي تؤدي إلى الحرية ، وبالتالي إلى تغيير العالم . ما الذي جعل الرسول يغير طبيعة الإنسان العربي ليتمكن الإسلام ، بهذا التغيير في أقل من قرن من الزمان أن ينشر ألويته على معظم العالم آنذاك ، لقد تم هذا العمل بمنهج الخطاب الديني الحواري الذي حفل به القرآن .

فمنذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها دعوة الإسلام ، ركز القرآن على أن يجعل المسلمين يتفكرون في الكون ، ويتدبرون واقعهم من أجل أنفسهم ، أي أنه وجههم لبدء الجدل مع الكون والطبيعة والآخرين ، وذلك ما ولد في المسلم قناعته تحرير نفسه من رقد الجاهلية ، والانطلاق إلى تغيير العالم .

أسس الدعوة :

لابد للداعية أن يكون حكيماً ، وأن يخاطب الناس خطاباً يتسم بالإقناع الفكري ، وبالموعظة الحسنة تأسيا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتنفيذا للأوامر الربانية ، والمنهج القرآني في دعوة الناس إلى معرفة الإسلام دون إكراه أو تعصب ، كما أن هناك صفات يجب أن يلتزم بها الدعاة تتمشى مع مقتضيات هذا العصر ، منها إتقان اللغة الأجنبية ليتمكن من البحث والاطلاع عما يدور حوله من أفكار الأجانب وتصوراتهم ، ثم إن هذا يعينه على استخدام بعض المراجع الأجنبية لخدمة الدين ، قد يننا خادم ومخدوم ، وأن يكون الداعية سلما إلى حد ما بالجوانب العلمية التي تخدم الدعوة ، واستخدام الوسائل الحديثة في الإيضاح والشرح ، ومخاطبة الشعوب التي لا تدين بالإسلام بطريقة منهجية علمية ، بالإضافة إلى إبراز الجوانب الإنسانية العالمية في الإسلام ، والدعوة إلى وحدة الشعوب ، والتعارف بينها والتفاعل بين الحضارات الإنسانية ، وعرض القصص القرآني وسير الأمم السابقة والعظات التي يقدمها القرآن للبشرية للاستفادة منها في الحاضر والمستقبل ، والاطلاع بدقة على كتب اليهود والنصارى ، ومعرفة ما طرأ عليها من تغيير وتبديل تاريخياً ، والمقارنة بينها وبين الإسلام في كشف الحقائق الكونية ، ومعرفة الرسالات المساوية مما يسعف الداعية في طرح أفكاره أمام الآخرين بأسلوب يقنع المستمع بقوة الحاجة عند الداعية ، وعن مواجهة حملات التشهير بالإسلام ، وعن تأكيد سماحة الإسلام ممثلة في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، مع أصحابه ، وعلى سيرة أصحابه فقد استطاع الرسول العظيم أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من القبائل المتفرقة المتصارعة ، وأن ينشئ من هؤلاء منظومة جديدة من البشر أقامت حضارة شامخة أعظم الحضارات ، ونشرت ثقافتها على مساحة كبيرة من الأرض امتدت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وفارس والترك ومصر وشمال أفريقيا . وكان الناس يعيشون في الإسلام على قدم المساواة ، والحب هو الذي يرسي قواعد الأمن والأمان في المجتمع ، وأن مبدأ الحق من أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية فحملت بين طياتها رسالة إحقاق الحق ، وإبطال الباطل لأن الله عز وجل يريد ذلك من شرائعه .

إننا لم نستخدم وسائل الاتصال الحديثة استخداماً علمياً ، ولم توجد قنوات تخاطب الآخرين بلغتهم وثقافتهم وأسلوبهم ، فالحوار مع الآخر يتطلب مثل هذا الاستخدام ، ويتطلب الاستفادة من طاقات الشباب المسلم الذي يعيش في الغرب ، وأصبح يعرف أبعاد التجربة الغربية ويستطيع أن يحقهم بالطرق التي يتقنونها ويتأثرون بها .

الخطاب مع الآخر يتطلب العمل بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من وسائل الحوار ، وعرض الأفكار والرد على الشائعات وعلى التشهير والتزوير ، وإيضاح الصورة الحقيقية للإسلام وأبعاده العقائدية والأخلاقية والإنسانية حتى نواجه الحملات المسمومة ، وحتى نتمكن من الدفاع عن ديننا دفاعاً يتناسب ولغة العصر ، اللغة العلمية التي تقوم على العقلانية والمنطق ، والتي يجيدها كثير من الشباب اليوم .

إن الإسلام لم يأت عدواً لأحد ، ولا عدواً للرسالات السابقة ، ولم يأت لإعلان الحرب عليها ، والصراع معها ، وجميع الحروب التي خاضها المسلمون كانت دفاعاً عن النفس ، ومنذ الآية الأولى التي أذن الله فيها للمؤمنين بالقتال ، كان هذا الإذن معللا بأن هؤلاء الذي أذن لهم بالقتال قد تعرضوا للاعتداء ، وأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله ..

إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفي هذا توجيه لقتال المتعدين ، وهناك تأكيد آخر بحق الدفاع عن النفس ، وأن دفع الاعتداء لحماية المبادئ والقيم السماوية حق إلهي وشرعي وقانوني ، ولولا هذا الدفع لكانت النتيجة أن تهدم رموز العبادة كلها ، وأن تهدم أديرة الرهبان وصوامعهم وكنائسهم ، وأن تهدم بيوت العبادة عند النصارى واليهود والمسلمين ، وهذا معناه أن الإسلام يريد حماية جميع هذه البيوت للدلالة على شموليته ، وحرصه على عدم التفريق بين هذه الدور التي ترمز إلى الديانات ، وهو ما فعله الإسلام فكان العهد العمري ، وكان الميثاق الذي أعطاه للنصارى . هذه المعاهدة التاريخية التي تعبر عن مدى ما تتمتع به الحضارة الإسلامية من سمو وترفع وتسامح وأخوة إنسانية شاملة . فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية تريد للإنسانية أن تستظل بظل التوحيد ، لا فرق بين دين سماوي ، ودين آخر ، ولا فرق بين نبي ونبي . ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام في صراع مع الحضارات التي سبقته ، بل كان الإسلام رائداً في استيعاب الحضارات السابقة ، ومحاولة التكامل معها والاعتراف بها ، ولقد سجل التاريخ أن الحضارة الإسلامية تعاملت بهذه الروح في علاقتها بغيرها ، وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، التزم بها التزاماً تاماً في كل تعاملاته مع الآخرين .

يجب أن يكون لدينا دعاة لديهم ثقافة دينية واسعة ، ولديهم ثقافة لغوية وأدبية راقية ، كما لابد للداعية أن يكون لديه قدر من الثقافة العلمية ، والثقافة الواقعية ، وتكون لديه معرفة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والنفسية ، وأن يكون قادراً على أن يحث الناس بلغتهم التي يفهمونها بأسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

فعلى الخطيب المعاصر الاطلاع على كل ما يدور في العالم ، وأن يعيش مشكلات مجتمعه ويعرفها ويقدم الحلول ، لها من الدين ، وأن تكون كل تصرفاتنا أفعالاً لا ردود أفعال ، وأن بحث في أخطائنا وتخلفنا ونصححه انطلاقاً من المصلحة الخاصة بنا .

ونوضح هنا ضرورة التفرقة بين الدعاة وأصحاب الفتاوى ، وتجنب الخلط الراهن الذي جعل الداعية مصدراً للفتوى دون أن يكون مؤهلاً لذلك ، وهو الأمر الذي يتطلب تطوير برامج إعداد الدعاة بحيث يكون قادراً على اجتذاب الجماهير ، وفرض ما يطرح عليهم من صحيح الدين طواعية .

وفي تجدينا للخطاب الديني سوف نباهي به من حيث قدرته على التواصل واحترام الآخر ، الذي بات مطلوباً منه أن يتفهمه ، لاسيما من خلال قدرته على التواصل والتكامل والشمول ، بكل ما يتسم به من صيغ الرشد والمرونة ، والإصلاح ، ووضوح الدلالات ، وسمو الأهداف ، ورقي القيم ، وعلى الآخر أن يعي ذلك كله ، ولكن كيف يتم هذا ونحن نتحاور بمعزل عنه ، وهنا يأتي دور الترجمة ، وأهمية ذلك ، فتترجم مؤلفات المعاصرة إلى لغات الآخر ، بحيث يسهل توصيلها إليه ، مع محاولة أن نزيد من عدد المواقع على شبكات المعلومات بشكل يفي بمتطلب المبادرة الإعلامية بأسس وآليات تجديد الخطاب الديني ، وكذا ما يجب أن تنهض به مراكزنا الثقافية الإسلامية من مهام معروفة في هذا الاتجاه .

وعلينا أيضاً أن نتوقع عودة المجددين في الخطاب الديني إلى وعيهم بآلياته في عالمنا المتغير ، بحيث تفي باحتياجات المرحلة ، فالخطاب الديني قادر على إعادة صياغة الأشياء بحكم عالمية الإسلام التي هي أثل من أصوله الكبرى منذ جاء لكل البشر زماناً ومكاناً بما قد يحتاج من أهله – الذين كرمهم الله – أن يشرحوا تعاليمه وينشروه فكراً وسلوكاً وتاريخاً والمقدسات وقضايا الفكر ، والمنطق وأخلاقيات العلم ، مع استمرار فتح باب الاجتهاد ، وأبوب الإبداع ،

وعلينا أيضاً أن نطمع إلى إعادة قراءة موروثنا بأمانة وحيدة وموضوعية ، وأن نبذل الجهد في فهمه فهماً صحيحاً ، يعكس قدرته على التطور والبقاء ، ويمكن فصولاً من عالميته . فليس صعباً ولا عيراً أن تستعيد هذه الأمة ما حينها الفكري الذي علمت فيه البشر في كال أصقاع الأرض كل العلوم ، ومنذ شغل العلماء بقواعد الخطاب الديني وأسسه ، ومصادره ومعطياته ووظائفه ، وصيغ تشكيله ومستوياته ، بشكل أتاح لهم سيادة العالم دون تعصب أو قهر أو تهديد أو مؤامرات – هكذا يقول د . عبد الله التطاوي – ويستمر في قوله ، وليس صعباً ولا عسيراً أن يشهد الخطاب الديني المعاصر ما تحقق له من قسمات وملامح سهلت له أن يصل إلى عقول البشر وقلوبهم ، منذ بدأ خطاباً إيجابياً راشداً ، تأملياً متوازياً ملتزماً متكاملاً يؤمن بالتواصل ، ويأخذ بالحوار ، ويرفض الاستعلاء رفضه للكذب والنفاق والادعاء .

وهنا نأمل إحياء مفردات الخطاب الديني في أدق صوره ، وأزهى مشاهده ، بما عرف عنه من إنسانية العطاء ، وبحضارية القيم ، ووسطية الأداء ، وإصلاحية الهدف ، وحوارية النقاش ، وصدق المقاصد ، وتعددية الصور والأنماط بعيداً عن التسلط والعدوان ، وبمنأى عن الجمود والنمطية ،

إن إدراك الواقع بعوالمه المختلفة جزء من أجزاء تجديد الخطاب الديني ، ولابد أن ندرك أن هذه العوالم في غاية التداخل وليست منفصلة بأي صورة من الصور : عالم الأشياء ، عالم الأشخاص ، عالم الأحداث ، عالم الأفكار ، عالم النظم ...

وقد لقيت الدعوة إلى تحديث الخطاب الديني وتجديده رواجا كبيراً وجمعت آراء حول هذا التحديث منها أهمية الانحياز إلى صحيح الدين ، والتمسك بالشريعة الإسلامية مع الاجتهاد المحمود ، والبعيد كل البعد عن التعصب والانغلاق ، والتأكيد على ذلك . وأيضاً أهمية أن يتوجه الخطاب الديني إلى بناء الإنسان في خط متوازن في الدعوة إلى بناء الحياة الدنيا بكل ما فيها من قوة وتقدم ونماء ، مع مراعاة الاهتمام بزاد الآخرة ، وعلى أن يراعى الخطاب الديني عامل التطور ، ومستجدات العصر طالما لا تتعارض مع قيم الدين ، كما ركز على فقه المستجدات وتغير الزمان والمكان ، فعلى الخطاب الديني إدراك فلسفة ذلك الأمر وما يحمله من تباين وتميز بين الأصول الثابتة والجوهر بين القوالب والأساليب المتغيرة مع تفعيل الخطاب للمتلقين في أهمية العلم ومكانة العلماء ، ولا بعد عن عالم الخرافة .

وأكدت الآراء على ضرورة تغيير ثقافة الرجل تجاه نظرته إلى المرأة ، والمطالبة بأن يفعل الخطاب الديني ما جاءت به النصوص الصحيحة ، وليس الموروث من التقاليد أو الضعيف من النصوص ، مع الاهتمام بالبعد عن الإبهار اللفظي ، والتمادي في لغة التخويف والترهيب ، وأن يكون الاتجاه نحو التوازن والاعتدال في بناء عقيدة وفكر المتلقي ، وعلى الخطاب الديني مسئولية إدراك المجتمع المتعدد الأديان والملل في توجيه يعمل على غرس ثقافة حب الآخر ، بعيداً عن الثغرات أو إثارة الفتن الدينية ، وأن يتميز الخطاب بالتقريب بين النفوس والعقائد ، ومراعاة ذلك أيضاً في المناهج التربوية في المدارس والأندية ودور العبادة ، كما ترى الآراء ضرورة إبراز العناصر المشتركة بين الحضارات الأخرى ، ولا تنغلق في مواجهتها .

أقول إن الآراء أجمعت على أن المرأة جوهر الحضارة العريقة ، وقد حظيت بالمساواة لأنها كانت شريكاً رئيسياً في العملية الإنتاجية التي تسوء المجتمع ، وأيضاً أجمعت الآراء على أهمية التوجه بالخطاب الديني للخارج

من أجل عودة التأثير في بيان وجه الإسلام المتعدل والحضاري . وهنا لابد أن ننوه إلى أن تطوير الخطاب الديني لا يمكن تحقيقه دون تطوير المناخ الثقافي بمعناه الواسع ، وتحديث الخطاب الفكري بصفة عامة ، ولابد من تحديث الخطاب بأدوات وآليات جديدة تجعل منه منارة لكل من يريد الهداية والنجاح في الدنيا ، وحسن الثواب في الآخرة .

مناهج الدعوة :

مطلوب من الداعية أن يخاطب الجمهور بالمفهوم العام لمعنى العبادة ، والتقرب إلى الله فإذا هو أخلص و أحسن وراقب ربه في جميع شئون الحياة اتسع المعنى ، ثم ينطلق من مشكلات عصرنا وقضاياه وواقعنا ، فيقدم لهم الحلول العصرية المناسبة بدلاً من أن يقودنا الداعية في خطابه الديني إلى العيش في مشكلات مضى زمنها فكأن عجلة التقدم قد توقفت في مجتمعاتنا الإسلامية ، ولم يعد أي جديد ..

إن كثيراً من المشكلات التي يعاني منها المجتمع لم تجد حتى الآن من يشرح أسبابها بصدق وأمانة حتى يسهل على المسئولين علاجها ، ومن واجب الدعاة ، ومن حق الوطن على أصحاب الرأي والكلمة أن يوضحوا لهم أن هذه الظاهر المرضية كالسلبية واللامبالاة والتطرف والإرهاب كلها أمراض اجتماعية علينا أن نتعرف على أسبابها حتى يبرأ منها المجتمع ، ونعيد من خلال مشاركة الجميع الإسهام في إعادة البنية الاجتماعية للوطن ..

على الدعاة تكثيف جهودهم من أجل التعريف بحقائق الدين الإسلامي الحنيف ، وتنقيتها مما يعلق بها من شوائب أو يلصق بها من دعاوي وافتراءات ليست من الدين في شئ ، وهذا أمر مطلوب بإلحاح ، لتبصير المسلمين أنفسهم بحقائق دينهم ، وتعميق إيمانهم بخالقهم الواحد سبحانه وتعالى على هدى وبصيرة ، وشحذهم واستنها من غرائمهم نحو فهم الإسلام – إسلام القرآن الكريم والسنة المطهرة – فهما صحيحاً يساعدهم على تغيير حياتهم إلى الأفضل دائماً ، ويمكنهم نشر لواء الإسلام في كل ربوع الأرض باعتباره منهجاً ربانياً متكاملاً يحمل للناس كل ما فيه سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة . كما أن هذا الأمر مطلوب بإلحاح لترشيد الخطاب الموجه إلى الآخر الذي دأب على مهاجمة الإسلام ومصادره ، ولم يكف عن محاولات التهوين من دوره في تشييد صرح الحضارة الإنسانية . هذه المحاولات التي تتخذ أشكالاً مختلفة وأساليب متنوعة منذ ظهور الاشتراق الذي كان في الأغلب ولا يزال – يعمل من أجل أن يحول بين العقل الغربي ، وبين معرفة حقائق الإسلام ، ويوفر المناخ الفكري الملائم لغرض السيطرة الاستعمارية على البلاد الإسلامية ، وقد زاد من ضراوة هذه الحملات المسعورة في السنوات الأخيرة ما وفرته تقنيات الاتصال والمعلومات من منافذ لإثارة العديد من الشبهات ضد الإسلام وحضارته ، بتأويل نصوصه المقدسة ، والبحث عما يدعم مزاعمهم من أحداث شاذة في التاريخ الإسلامي ليس لها صفة العموم ، وهذا ما تفعله حالياً بعض المنظمات المشبوهة التي تحاول من خلال الدولية (الإنترنت) تشويه صورة الإسلام ، وتخريف آيات القرآن الكريم ، وتلفيق أقوال مكذوبة على لسان النبي العربي الأمي الأمين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ومثل هذه الأفعال المشينة والمتعمدة تتنافي مع كل الأعراف والمواثيق الدولية التي تؤكد ضرورة احترام المعتقدات وعدم الماس بالمقدسات .

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان أهمية البعد العلمي ودوره المحوري في دعم مرتكزات الخطاب الديني وتعميق أثره في المسلمين وغيرهم انطلاقاً من الاعتقاد الراسخ لدى الجميع بأن الأمن العلمي والتقني أصبح – وسيظل عنصراً حاكماً في كل أشكال الحوار ، بما فيه الحوار الديني .

وبالنسبة لباقي عالمنا العربي والإسلامي فإن غياب الأمن العلمي والتقني يعين تعطيل فريضة واجبة الأداء ، وغياب التحضر والمدنية يعني أن المجتمعات الإسلامية لا تقوم بواجبات الخلاقة ، ولا تحقق غايات الدين الذي تنتسب إليه . وهذا من شأنه أن يفقد خطابنا الإسلامي مصداقيته وتأثيره ، ويجعله أقرب إلى العبارات الجوفاء والثرثرة التي ليس وراءها طائل ..

ناقص ورقة رقم (٧٢)

إن المقصود بتطوير الخطاب الديني هو أن يكون ما يتحدث فيه الخطباء على المنابر ، وكل الذين يعملون في محال الدعوة ، مما يشغل أفكار الناس ، ويجيب عن تساؤلاتهم ، ويقدم الحلول لمشكلاتهم ، وباختصار يعايش حياتهم وقضايا عصرهم . ولن يتحقق هذا إلا إذا كان الدعاة على مستوى علمي وثقافي كبير يسمح لهم بذلك .

إن الداعية ليس فقط مجرد يؤثر في الناس بوعظه وصوته وقصصه التي يثير بها العواطف – كما يقول محمود مهدي – ذاكرا قول الداعية الإسلامي الكبير يوسف القرضاوي ، وإنما الداعية القادر على تطور الخطاب الديني هو الذي يعرف حقيقة الإسلام ، ويعرف ما يجري في الحياة حق المعرفة ، لا يعيش منفرداً عن عصره وما يدور فيه من تيارات ، وما يعتريه من مشكلات .. هو الذي يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية .. هو الذي لا يشغل الناس بالسنة وهم يضيحون الفرص ، ويشغلهم بأمر مختلف فيه ، وهم يرتكبون الكبائر .

والحقيقة أن هذا النوع من الدعاة لن يوجد إلا بإعداد جيد قائم على مناهج متطورة ، وتدريب خلال أعوام الدراسة الأزهرية ، خاصة من كليات الدعوة التي أنشئت خصيصاً لتخريج دعاة على مستوى عال من التأهيل .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى باختيار دقيق لمن يتقدمون لهذه الكليات من خلال اختبارات تراعي توافر الموهبة

والرغبة في العلم في مجلا الدعوة ، وعدم وجود عيوب في النطق وغيره تقلل من قدرة الداعية على أداء رسالته كاملة .

إن التطوير في الخطاب الديني فوق المنابر أن يواكبه ويسير معه جنباً إلى جنب تطوير في الخطاب الإعلامي في وسائل الإعلام : الصحف والإذاعة والتلفزيون ، خاصة في الجانب المتعلق بالموضوعات والبرامج الدينية .. ويجب أن يشمل هذا التطوير في الخطاب الإعلامي الكم والكيف معاً ..

إن مساحة البرامج والمعلومات الدينية لا تتجاوز ثلاثة من إجمالي الإرسال .. والواقع في الصرف والمجلات ليس أحسن حالاً من ذلك – بيان حكومي ، وهذه النسبة من حيث الكم في وسائل الإعلام إذا أضفنا إليها عامل الجودة من حيث الكيف ، تكون المحصلة النهائية عاجزة عن تلبية حاجات القراء والمستمعين والمشاهدين من المواد والبرامج الدينية .

من هنا يصير ضرورياً أن نربط بين تطوير الخطاب الديني والخطاب الإعلامي في وقت واحد في حديثنا وأن نربط بينها من حيث أهمية تطويرهما ، وأن يسير التطوير أن معاً جنباً إلى جنب حتى لا يهدم الإعلام ، خاصة المرئي منه ، ما يبنيه الدعاة .

إن ما يشغل أفكار الناس واهتماماتهم ، وما يحيط بهم من مشكلات ، وما يثار منهم وحولهم من تساؤلات يجب أن تتضامن مواجهته وتقديم الحلول له ، المؤسسات الدينية والإعلامية والتعليمية والثقافية جميعاً . ولن تؤتي هذه المواجهة ثمارها بدون تطوير هذه المؤسسات لأساليبها وبرامجها والنهوض بمستوى القائمين عليها .

أعدت لجنة الشئون الدينية والاجتماعية والأوقاف تقريراً هادفاً لتطوير الخطاب الديني ، مستندة في ذلك إلى المتغيرات المتسارعة والمتعددة التي واكبت عالمنا اليوم في العلوم والثقافة والفكر ، بل وفي الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية ، حيث لم يعد من الممكن لأي مجتمع أن ينغلق على نفسه ليعيش في دائرة محدودة .

وقد رصد التقرير مجموعة من السلبيات للخطاب الديني بواقعه الحالي ، ومن بينها انفصال الخطاب عن واقع الناس ، ومداومة الحديث عن الماضي والبعد عن الحاضر والخوف من المستقبل ، وكذلك استخدام الترهيب والتخويف كأسلوب للدعوة والتدين .

في الوقت الذي يجب أن يكون فيه الخطاب الديني هو القادر على تعديل السلوكيات وتقويمها ، ونبذ الكراهية والتعصب ، موظفاً المبادئ الدينية لإقناع الناس بما ينطوي عليه الدين من أخلاق ومثل عليا وقيم رفيعة واحترام حقوق الإنسان .

وبحيث يظهر الخطاب الديني تأثير الثقافة الإسلامية على عصر النهضة الأوربية ، بل وعلى الحضارة كلها بما تحويه من معارف وعلوم وفنون ، أما عن ثقافة الدعاة وهم الأمناء على شرعة المكلفون بوصول الدعوة إلى كل مكان ، وهم الحافظون لدين الله ، والقائمون على حدوده ، فإن مهمتهم خطيرة ، ومسئوليتهم عظيمة .

من هن وكما ذكر التقرير فإن جوانب ثلاثة لابد أن تتوافر لإعدادهم إعداداً صحيحاً بدء بالإعداد النفسي ، ويقصد به تهيئة الداعية وصقله نفسياً ليكون مؤهلاً لتحمل مسئولية الدعوة في ثبات وشجاعة وصبر على ما قد يناله من أذى ، تم الإعداد الخلقي والاجتماعي بحيث يكون الداعية مثلاً وقدوة في الخلق والسلوك ، ثم يأتي الإعداد المهني وتبدأ عملية التعليم بتخصيص كليات بعينها للدعوة لا يلحق بها إلا الطلاب الراغبون في ممارسة الدعوة الذين يؤمنون بها ، ويتصفون بالنزاهة والاستقامة ، وحسن المظهر والأداء .

وعن المنهج التعليمي ترس اللجنة وجوب التطوير المواد الشرعية بالأزهر وكلياته بصفة المعمل الرئيسي لتخريج الدعة ، وأن تنظم دورات تدريبية للخريجين لمواجهة الجماهير . وعن دور المؤسسات الإعلامية والثقافية وما تملكه من تأثير كبير على المتلقين الذين تتفاوت درجات ثقافتهم أكد التقرير وجوب أن يكون الخطاب الديني الذي تبثه هذه المؤسسات لا يصادم ديناً ، ولا يخدش حياء ، ولا يؤذي شعوراً ، ولا يبلبل فكراً ، ولا يزرع بأسا قائماً على الشفافية والصراحة ومساعدة الفرد العادية على فهم الحياة والتجاوب معها والإسهام في حل مشاكلها .
وفي مجال الثقافة الدينية في الجامعات وهو أمر بالرغم من أهميته البالغة فما زال مفتقداً بالجامعات والكليات والمعاهد ، فقد طالبت اللجنة بأن تكون الثقافة الدينية مادة تخضع للاهتمام الذي يجب على الطالب اجتيازه ، وبذلك نضمن – أو على الأقل نحد من – الدور الذي يلعبه لعض الطلبة والطالبات تحت دعوة علمهم ومعرفتهم بأصول الدين ، بل والفتوى أيضاً ..

ومن هنا قد يخرج التعصب الأعمى الذي يؤدي إلى التصادم كنتيجة للفهم غير الصحيح أو الفتاوى التي تستند إلى كتب وأفكار صاغها متشددون أصوليون .

وإذا كان تقرير اللجنة وتوصياتها جاءت متأخرة فإن علينا أن نبادر في وضع ما سيصل إليه واضعو التقرير إبان عرض ومناقشة تقرير اللجنة إلى مقررات تنفيذية قابلة للتطبيق العلمي سواء على المستوى العاجل أو الآجل .

ونحن من أنصار أن يعيش الداعية عيشة كريمة ، وأن يهيأ له كل وسائل الراحة حتى يستطيع أن يؤدي دوره ، ولا يجب أن نبخل عليه بالمال أو بالإمكانيات .

إن أخطر ما يواجه الأمة حالياً هو الاعتقاد الوهمي أن الكلمة نفني عن الفعل ، وأن الأمة يمكن أن تنهي بالكلمات الرنانة أو الشعارات أو الصوت العالي دون أن يصحبه عمل وفعل جاد ومخلص يزيد من قدرات وإمكانات الأمة . فليس الإيمان بالمتمنى ، ولكن للأسف الأمة لا تزال تتكلم فقط حتى صرنا كفتاء السبيل ، وأغمضنا أعيننا ، وجعلنا أصابعنا آذاتنا ، وأصررنا واستكبرنا استكباراً ، وقبلنا أنه ليس في الإمكان أبدع مم كان . لذلك فنحن تدور في حلقة مفرغة ، ولا نتقدم مثل غيرنا ممن تقدموا ، فلابد من العمل الجاد . والأمة في حاجة ماسة إلى كل طاقة عربية وإسلامية ، وأن تجند هذه الطاقات تجنيداً صحيحاً وراشداً لتحقيق النهضة الشاملة للأمة ، ولتحسين أحوالها ومكانتها بين الأمم .

ولا يمكن التسليم بأن كل شئ في الأمة ومنه الخطاب الديني على ما يرام ، وليست فيه مشكلة أو أنه يسير في مساره الطبيعي ، بل يجب الاعتراف بأن المشكلة ليست في الخطاب الديني فقط بل هي في الفكر الديني نفسه ، لأن الخطاب هو التعريف بشئ ، ونستطع أن نقول للدعاة وخطباء المساجد ، والذين يقومون بوعظ الناس لا تطيلوا الخطبة ، وتقول لهم حدثوا الناس بواقعهم ، وحدثوهم بفكرهم ولغتهم وبينوا لهم حقيقة الدين الحنيف بوسطيته ويرى إلى غير ذلك . ولابد أن يفهم الناس من الخطاب الديني واقع الأمة وعلاقتها بالآخر . وهل هي علاقة حوارات ثم تناقص ؟ أم علاقة سلام ومودة وتعاون ؟ فالتطوير يجب أن يبدأ من الفكر وسوف ينعكس ذلك على الخطاب الديني ، فلابد أن يجتهد الدعاة وخطباء المساجد في فهم الفكر الإسلامي الصحيح حتى يوصلوه إلى الناس بصيغة ميسرة ووسطية . ولابد أن نعلم أننا إذا ظللنا بالآمنا وأمراضنا الفكرية وغيرها ، فلن نتقدم في شئ ..

وفي الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذي يعقد تحت رعاية رئيس جمهورية مصر العربية ، أوضح إذا كان عصرنا الحاضر يعرف بأنه عصر العولمة فإنه لا معز أمام العالم الإسلامي من الدخول في معترك هذا العصر ، مشيراً إلى أن هذا ليس قراراً اختيارياً فالعالم الإسلامي دخل بالفعل عصر العولمة .

وطرح الرئيس سؤالاً : ماذا سيصنع المسلمون في عصر العولمة ؟ مؤكداً أن العولمة – كما هو معروف – لها جوانب إيجابية وجوانب سلبية ، مثلها في ذلك مثل أي ظاهرة جديدة ، كما أن لها أبعاداً مختلفة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها ، ولابد أن يكون للمسلمين مواقف محددة أمام جميع هذه الأبعاد وانعكاساتها .

وأكد أنه إذا كان مؤتمر هذا العام يركز على الأبعاد الثقافية والاجتماعية للعولمة ومدى تأثيرها على العالم الإسلامي ، وانعكاس ذلك على الحلول المقترحة لمشكلات العالم الإسلامي ، فإنه من المعروف أن التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمعات الإنسانية بصفة عامة هي تحولات مستمرة ومتواصلة تبعاً لتطورات الزمان والمكان ، ولكن هذه التحولات الجديدة تختلف اختلافاً واضحاً في طبيعتها عن التحولات الاجتماعية والثقافية في مجتمعات ما قبل عصر العولمة ، ذلك لأن تحولات ما قبل عصر العولمة كانت محكومة أو متوائمة بشكل من الأشكال مع الخصائص التي يتميز بها كل مجتمع ، وبالتالي فإنها لم تستطيع أن تخلخل هذه الخصائص بشكل يذيبها أو يقضي عليها . ولكن الأمر في عصر العولمة يختلف ، فمستجدات عصر العولمة تدخل كل مجتمع دون استئذان ، ولن يفيد في هذا المجال غلق الأبواب وسد النوافذ . فلم يعد ذلك أمراَ ً ممكناً كما كان عليه الحال من قبل .

وشدد على أن المسلمين في عالمنا المعاصر يقفون في مفترق طرق يوجهون ظاهرة العولمة ، وإن علينا أن نسعى للاستفادة مما تتيحه من فرص ومكاسب ، وأن نحمي مجتمعاتنا في ذات الوقت مما تنطوي عليه من انعكاسات سلبية في أبعادها الثقافية والاجتماعية ، وعلينا أن نحصن مجتمعاتنا بما يحفظ هويتها ، وخصوصياتها ، وقيمها الدينية والثقافية .

وقال إنه يتعين على عالمنا الإسلامي أن يمتلك رؤية واضحة من أهم معالمها :

- ضرورة الاسترشاد بما فعلته الحضارة الإسلامية في السابق ، فقد كانت هذه الحضارة الإسلامية في بداية نشأتها ، وفي أوج عظمتها منفتحة على جميع الحضارات والثقافات .

- أهمية الحفاظ على قيمنا الاجتماعية والأخلاقية في مجتمعاتنا الإسلامية عن طريق المناهج التربوية والوسائل الإعلامية ترشيحنا لهويتنا ، ودفاعاً عنها من مخاطر تذويبها .

- ضرورة التجديد والتطوير المستمر في ثقافتنا وفي فكرنا وفي خطابنا الديني ، كي نكون قادرين على تحقيق المواءمة بين الحفاظ على هويتنا وخصوصياتنا وثوابتنا ، والانفتاح في ذات الوقت على العالم .

- تعزيز الحوار بين أمتنا الإسلامية والعالم .. على نحو جاد وبناء يقوم على الاحترام والتكافؤ والمصالح المتبادلة .. ويتصدى لدعاوي ونظريات صدام الحضارات والأديان .

وأشار إلى أن العالم الإسلامي لم يعد أمامه وقت لإضاعته في صراعات تفتت وحدته وتضعف قوته وتحد من انطلاقه نحو النهوض بأمته ، كما أن عصرنا الحاضر يتسم بالسرعة الفائقة في حركته وانطلاقه . ومن هنا فإنه لا يجوز أن نعطي الفرصة لبعض القوى داخل العالم الإسلامي أو خارجه لتوقف مسيرته ، وتعطل نهضته .

وقال " إنه لا يجوز لن أن نثقل كاهل أجيالنا الجديدة بصراعات الماضي القريب أو البعيد .. فالأجيال الجديدة تمتلك تطلعات وطموحات مشروعة ، ومن حقها علينا أن تفتح أمامها الطريق نحو مستقبل أفضل تنعم بالأمن والسلام والاستقرار والتنمية .

وأكد أننا سوف نستطيع أن نتغلب على التحديات التي تواجهنا في العصر الحاضر بتضامنا وتوحيد جهودنا لحل مشكلاتنا ، والانطلاق بأمتنا نحو بناء مستقبل مشرق لأجيال الحاضر والمستقبل .

واختتم بأن الأمل معقود على علماء الأمة وقادة الرأي والفكر كي ينشروا الوعي في أرجائها وينعشوا الأمل في نفوس أبنائها حتى تتحرك الطاقات الإبداعية ، وتنبعث الهم وتتجه الأمة بكل طاقتها نحو البناء والتعمير على المستويين المادي والمعنوي لتتبوأ أمكانها اللائق بها في عالم اليوم .

من أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة في إقامة الأدلة على وحانية الله تعالى ، وعلى صدق رسوله .. أسلوب الحوار والجدال والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلي ، وارتياح نفسي ، واطمئنان وجان ين يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتاً لا يتزعزع ولا يخالطه شك أو تردد .

والمادة التي تدل على التحاور والجدال والمناقشة والمراجعة بين الناس في أمور معينة هي مادة " القول " وما اشتق منها كمقال ، ويقول ، وقل ، وقالوا ، ويقولون ... وقد تكررت هذه الألفاظ في القرآن الكريم مرات ومرات ..

ويمتاز أسلوب الحوار والجدال في القرآن الكريم باتساع دائرته ، ووضوح قضاياه وشموله لما لا يحصى من المسائل .

فنهاك محاورات بين الخالق – عز وجل – وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ، ومن الملائكة المقربين ، ومن الشيطان الرجيم .

وهناك حوار يدور حول وحدانية الله – تعالى – أو حول القرآن الكريم ، أو حول اليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب .

وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم ، أو بين الاختيار والأشرار من الناس ، أو بين الاختيار فيما بينهم ، أو بني الأشرار فيما بينهم .

وهناك حوار بين أهل الكتاب ، أو مع المنافقين ، أو مع المشركين المقلدين لسابقيهم أو لزعمائهم في الباطل ، أو مع السائلين للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهناك حوار يتعلق بشخصية النبي (صلى اله عليه وسلم) ، أو برسالته ، أو بما أحله الله تعالى ، أو بما حرمه من الأطعمة والأشربة .

إن شريعة الإسلام تحت للإنسان حق حرية التعبير عن رأيه بأوسع الطرق وأحكمها ، وبأقوى البراهين ، وأنصع الأدلة ، التي تقنع العقول السليمة ، والعواطف الشريفة ، والقلوب الظاهرة ، التي تقذف بحفها على باطل خصومها فإذا هو زاهق ، والتي تجعل المؤمنين الصادقين يزدادون إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على ثباتهم ..

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تفرق بين الخير والشر ، وهناك قوة عميقة تفصل بين مصير القلوب المخلصة ومصير المنافقين ، وبين أولئك الذين يتوكلون على الله والذين يركنون إلى حولهم وقوتهم ..

أما المؤمنون الصادقون فالله يمثلهم " كزرع أخرج شطأة فآزره فاستغلظ فاستوي على سوقه يعجب الزراع " (الفتح ٢٩) كما يمثل المؤمنين وإنفاقهم في سبيل الله بقوله " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لممن يشاء والله واسع عليم " (البقرة ٢٦١) . ويمثل الكلمة الطيبة بقوله : " ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء " (إبراهيم ٢٤) . وهو يذكر الكافرين بالله وآياته بقوله : " وأولئك الأغلال في أعناقهم " (الرعدة) . وهو يصف الغافلين عن آيات الله بأنهم : " كالأنعام بل هم أضل " (الأعراف ١٧٩) ويضرب مثلاً للذين كفروا بربهم بقوله : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوقاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لحب يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " (النور ٣٩ – ٤٠) . وشبه أعمال الكافرين بقوله ، " مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها حرت قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون " (آل عمران ١١٧) . كما يصور المشركين بالله بقوله : " مثل الذين اتخذوا من دون اله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أو هن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " (العنكبوت ٤١) . وفي يوم الحساب نجد أصحاب النفوس المجردة من أعمال الخير يتوسلون إلى الذين آمنوا قائلين : " انظرونا نقتبس من نوركم " (الحديد ١٣) .

إن ما قاله الرئيس يعتبر دعوة إلى علماء الأمة الإسلامية بتجديد الخطاب الديني ، وحول إلى خطاب ديني متطور في دور العبادة ، وفي البيوت وف بالمدارس ومناهج التعليم والإعلام والثقافة وسلوك المجتمع . ودعوة أخرى إلى الشعوب الإسلامية بأن تقرن الأقوال بالأفعال ، وأن يعلن الجميع قيم التسامح والعلم والاجتهاد ، وهي دعوة تكررت على لسان عدد كبير من قادرة وزعماء المجتمعات الإسلامية ، وهو تكرار عبر في جانب منه على

أن كثيراً من المشكلات والأزمات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية تابع منها في ذاتها نتيجة عدم تطورها الفكري والسلوكي مقارنة بما يجرى في المجتمعات الأخرى ، وأن الضعف الذي يعبر بها سياسياً واقتصادياً والناتج عن التخلف الفكري والعلمي هو الذي يفري الدول والقوى الأخرى ، لاسيما الغربية ، والتي تعتبر نفسها قمة التقدم العلم ي والصناعي في العالم المعاصر في أن توجه الضربات المجتمعات الإسلامية واحدة تلو الأخرى ، أو على الأقل تخمل مطالبها المشروعة وطموحاتها في التقدم والتنمية ، وأن تتعامل معها باستيلاء استعماري .

الأصل إذن هو الفكر وإعمال العقل وتدبر الكون ، واستنباط القوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تتشكل من رحم التطورات المختلفة ، والتكيف الإيجابي مع الظاهر الكبرى التي تفرض نفسها على الجميع ، كالعولمة وتشابك المجتمعات والأسواق وثورة الاتصالات والتقدم التكنولوجي المتسارع الذي يبدو منطلقاً بلا قيود من أي نوع ، وهي ظاهر نعيش في ظلها وتحت رحمتها بحلوها ومرها ، سواء شاركنا في صنعها أو تغيبنا عن هذه المشاركة واكتفينا بمجرد الفرجة والمشاهدة ولعن التقدم بأشكاله المختلفة ، دمنا – للأسف الشديد – من يتمسك بأن يستمر على حالته المتدينة ، ووضعه المتأخر في طابور الأمم . نفعل ذلك في حين أن الذين صنعوا وطوروا هذه الظاهر الكبرى يعملون على تغييرها وتبديلها وتحسينها ، والاستفادة القصوى من كل نتائجها ومنجزاتها وهنا يكمن الفارق الجوهري بين الذين يعملون والذين لا يعملون .

لا ينكر أحد أن الإسلام بني أساساً على إعمال العقل والتفكر المستمر فيما يطرأ من مستجدات ، وأن دعوته الأولى للإنسان تمثلت في القراءة والتعلم ، وهما عنصر أبناء التقدم وفهم الكون ، ويشكل العلم بمعناه الواسع ، والسعي إلهي ركناً أساساً من أركان الإيمان ، وفي كثير من الآيات الواردة في القرآن الكريم تأكيد على أن الذين يعلمون هم الأفضل ، وأن الذين لا يعلمون هم الأدنى ، ولا ينكر أحد أيضاً ا، المجتمعات الإسلامية في عمومها لم تكن لتتخلف إلا بعد أن أعملت العلم ، واكتفت باستهلاك ما ينتجه الآخرون ، واعتبرت أن وظيفتها الكبرى هي مجرد استنساخ خبرات تاريخية قديمة بنصها وروحها ، فأهملت العقل واكتفت بالنقل .

واعتبرت أن كل ما يختلف عن حياة الأوائل من المسلمين ليس من الدين أو على الأقل يناهض بعض أسسه .

ولا ينكر أحد أن حياة الأوائل من المسلمين مليئة بالدروس التي تساعد على فهم مفاتيح معينة من التغيرات الفقهية ، وبعض الأحكام التي تتعلق بصحيح الإيمان ، ولكنها أيضاً ليست هي كل شئ خاصة أن الحياة البشرية بخبراتها المتنوعة غير المحدودة تثير الكثير من القضايا والإشكاليات الفكرية والعملية التي لم تكن منصورة في حياة الأوائل من المسلمين ، وهو ما يفسر تلك المسميات المتداخلة مع تطورات الحياة الحديثة والمعقدة ، مثل فقه الأولويات ، وفقه المقاصد وفقه التعايش مع غير المسلمين سواء في بلدانهم ، أو في بلدان مختلطة .

إن المطالبة بتجديد الخطاب الديني ، ولكي تكون عملية فعالة ومثمرة يجب ألا تكون مجرد اجتهادات لعلماء إجلاء وحسب ، كل على حسب ما يراه ضرورياً بحكم اللحظة التاريخية ، أو تكون محصون في أمور جزئية وظواهر عارضة ، وغم أهمية ذلك وضرورته أحياناً . وأتصور أنها تتطلب حركة تجديد شاملة تتضمن عمل المؤسسات الدينية التعليمية والبحثية ، والمنوط بها إصدار الفتاوى واستنباط الأحكام الكبرى ، وإعادة تشكيل العقل المسلم لكي يكون مؤمناً منتجاً ومطوراً ومبدعاً ، وفي المقدمة الأزهر وبجمع البحوث الإسلامية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، وكافة المؤسسات المعينة الجدد الذين . وهو أمر يتطلب بدوره أيضاً إعادة نظر جذرية في طريقة تدريب وتجنيد الدعاة الجدد الذين يمثلون حلقة الوصل الأكبر بين المسلمين العاديين ، وبين فهم مقاصد الدين وأحكامه ، والذين يقومون على شئون المساجد .

إذ من غير المعقول في زماننا هذا أن يكون هم بعض هؤلاء الدعاة الجدد صغار السن ، وقليلي التجربة أن يزايدوا على بعضهم البعض ، لاسيما في المساجد المتجاورة ، في مكبرات الصوت حيت الآذان أو إقامة الصلاة بما في ذلك الإمعان في أعلاه الصوت بلا مبرر حين الصلاة الجهرية ، وتصور أن ذلك يرضي المصلين ، ويزيد من خشوعهم ، أو يعتبروا أن استخدام المكبرات في إقامة الصلاة هي شرط لازم لاكتمالها رغم أن العهد النبوي لم يعرف فيه هذه التقنية قط ، أو أن يشيعوا بين المسلمين أن بالإمكان أن يفتح المرء أجهزة الراديو على إذاعة القرآن الكريم ، حتى ولو كان مشغولاً بعمل آخر كالمذاكرة مثلاً ، أو القيام بعمل مهني يتطلب نوعاً من التركيز خشية التعرض لسوء ، وعدم الاعتداء بالأمر الرباني بأن الاستماع إلى القرآن يتطلب الاستماع والإنصات التام ، وذلك تحت زعم أن الحق في هذه الحالة هم الذين يستمعون إلى القرآن الكريم . أو أن يتصوروا أن كل ما عليهم هو مجرد العودة إلى كتب الأقدمين لإعادة تقديم ما فيها من تفسيرات وأحكام على مجريات الحياة الراهنة رغم بين هذه الكتب وزمنها ، وبني واقع الحياة المعاصرة ..

أو يروا في الأحاديث الضعيفة السند أساساً لاستنباط فتاوى لأمور معقدة تتطلب طريقة جديدة تماماً في الحكم على الأشياء .

هؤلاء هم نتاج عملية تنشئة تعليمية قاصرة بكل المقاييس ، وهم الأجدد بأن يكونوا في قلب أي تجديد للخطاب الديني ، بشأنهم في ذلك شأن المتلقين ، أي المسلمين العاديين ، الذي هم بحاجة إلى هزة كبرى يفيقوا من سباتهم ، وأن يعلموا أنهم محاسبون على تقصيرهم في حق أنفسهم نتيجة كسلهم الفكري والإيماني معاً .

إن تجديد الخطاب الديني هو حركة فكرية دينية شاملة ، عليها أن تراعي أعمال الإيمان كرافعة لنهضة الأمة من كبوتها التاريخية والمعاصرة ، حتى تكون جديرة بالحكم الإلهي بأنها خير أمة أخرجت للناس ..

التجديد ليس معناه تجديد الأحكام ، أو تجديد أصل من أصول الإسلام ، أو فرض من فرائضه أو سنة من سننه فهذا لا يعد تجديداً ، وإنما هو خروج وارتداء وتغيير كما هو ثابت في الدين ومعلوم منه بالضرورة ، فكل هذه الثوابت لا تقبل التجديد مطلقاً ، بل يجب العمل بها واحترامها ، وإنما الذي يحتاج إلى تجديد هو الداعية ، والعالم الذي يعرض هذا الدين وهذا المنهج الإسلامي الرباني على الآخرين .

التجديد يعني القدرة على الاستجابة للتحديات والإبداع في ظل الارتباط بالثوابت الحضارية التي تشكل فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة ، ووجهة نظرها في العلاقة مع الأخر ومع الحياة والكون .

إن الحاجة تدعو الآن أكثر من أي وقت مضى لتضامن جهود دول العالم الإسلامي وشعوبه ، كي نتحدث بصدق واحد يتصدى لمحاولات الإساءة والتطاول والتجاوزات .. يعتبر الأخطاء والمغالطات ، ويعبر عن الوجه الحقيق للإسلام وجوهر تعاليمه وصحيح عقائده ، هكذا تحدث الرئيس حسني مبارك في الاحتفال بليلة القدر ، وقال : وأحسب أن كل هذا يقتضي مصارحة مع العالم من حولنا ووقفة مصارحة مع أنفسن لا تقل أهمية .

نقول للعالم من حولنا : إن الإسلام جاء مصدقاً بشرائع أهل الكتاب .. مبرهنا على أن الأديان تنبع من أصل واحد ، وتلتقي حول وحدانية الله ، والقيم المشتركة للإنسانية .

نقولهم : إن الإسلام أعلى قيمة العقل والمنطق ، ودعاً للتفكر والتدبر ، خاطب في الناس فطرتهم ، وحاز العقول والقلوب من الأندلس لمشارق الصين بسماحة تعاليمه والأسوة الحسنة .

نقول لهم : إن الإسلام نهى عن العنصرية والتعصب .. لم تنشأ النازية أو الغاشية على أرضه ، حمل علماؤه وفلاسفته تصل الحضارة لقرون عديدة ، وأضافوا بمعارفهم الكثير لتراث الإنسانية.

نقول لهم : إننا لا نقبل الإساءة لمقدساتنا ، تذرعاً بحرية الرأي والتعبير والصحافة ، وأن التطاول على معتقداتنا يؤجج مشاعر الغضب والتطرف ، ويجرنا جميعاً لمنزلقات خطرة .

نقول لهم : حاذروا من دعاوي الفتنة والمواجهة ، ومن نظريات صدام الحضارات والأديان .. حاذروا من خلط الدين بالسياسة ، والسياسة بالدين في إدارة العلاقات الدولية ، وحاذروا من ربط الإسلام والمسلمين بإرهاب أعمى ، لا يعرف وطناً أو ديناً .

ونقول للعالم : إن الأمة العربية والإسلامية تتطلع لعلاقات دولية تقوم على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة ، لا تفرط في هويتها وخصوصياتها ، تدافع عن مواقفها وقضاياها ، وتنشد الحيز للجميع في عالم أكثر عدلاً وسلاماً واستقراراً .

تلك هي رسالتنا للعالم ، فماذا الدنيا لنقوله لأنفسنا ؟

يقتضي منطق المصارحة أن نتمعن في أحوالنا .. علينا أن نعترف بأوجه قصور يتحمل مسئوليتها العالم الإسلامي .. وعلينا أن نستنهض الهمم ، كي يصبح حاضرن – بحق – موصولا بماضينا العريق ، ونقطة انطلاق لنا نحو المستقبل .

لقد أرس الإسلام منذ أربعة عشر قرناً مبادئ الخير والانطلاق والتسامح ، ونهي عن الإفساد في الأرض وترويع الآمنين .

أين نحن الآن من ذلك ؟ في مواجهة إرهاب يرتدي عباءة الإسلام ، ويستهدف بشروره أرواح الناس وأرزاقهم .

ألا نتحمل نحن المسلمين بعض مسئولية الأفكار المغلوطة عن الإسلام ؟ وهل نهضنا بواجبنا في تصحيح صورة الإسلام ؟ والمسلمين ؟ .

إلى متى تستمر مباهاتنا بحضارتنا الإسلامية العريقة ، وعطاء أسلافنا من العلماء والفلاسفة والمفكرين ؟ أما آن الأوان لكي نصنع حضارتنا المعاصرة ، وأن نسهم نحن بعطائنا ؟ كي يتبوأ عالمنا الإسلامي مكانته اللائقة في القرن الحادي والعشرين .

لقد تراجع العصر الذهبي لحضارة الإسلام ، عندما تراجع الاجتهاد ، وتوقف الخطاب الديني عند قشور العقيدة دون جوهرها . فهل حان الوقت لخطاب ديني جديد ؟ يعلم الناس من صحيح دينهم ما ينفعهم ، يعلي قيمة الإخلاص في العلم ، يرتقي بالسلوك والمعاملات ، ينشر مبادئ التسامح ، ويناهض الغلو والتطرف ..

ألم يحن الوقت لينبز عالمنا الإسلامي نوازع الفرقة والشقاق والنشر ذم ، ليوحد كلمته وصفوفه ومواقفه ، ويوظف إمكانات ثروته الطبيعية والبشرية دفاعاً عن مقدساته ومصالحه وقضاياه .

إن الأمة العربية والإسلامية إنما تنهض بنهوض أوطانها ، ولا تتحقق نهضة الأوطان إلا بفكر وسواعد أبنائها وبمجتمعات عصرية تنفتح على العالم من حولها ، تواكب تطوره ، وتلاحق علومه ومعارفه ..

خطبة الجمعة :

يلتقي المسلمون لقاء أسبوعياً جامعاً ، يتجهون فيه بشوق إلى المساجد لتأدية فريضة الجمعة استجابة لقول الله تعالى " يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع " (الجمعة ٩) . هذا اللقاء الإيماني من شأنه ترشيح العقيدة من نفوس المصليين وفي قلوبهم ، وهو أيضاً من أجل العقيدة بحل مشكلات المجتمع ، وتصحيح السلوكيات الخاطئة فمشكلاتنا لا حصر لها ، وتحتاج معها إلى وقفة في كل مرة لمناقشة قضية من قضاياها ، وإيجاد الحلول لها في أسلوب سهل ممتع بحيث يجذب انتباه السامع ويشده إليه ، ويخرج وقد عرف شيئاً عن مشكلة من المشكلات المحيطة بنا ، وتوصل إلى حل ولو جزئي لهذه المشكلة ، وهو يستمع إلى الخطيب في المسجد ، وقد عرض المشكلة بشكل جيد ، وقام بتحليلها وبيان أسباب وكيف يفتش على هذه الأسباب من خلال الخطاب الديني ، وتحت مظلة الإسلام ، وما أكثر سلوكياتنا الخاطئة فكيف السبيل إلى تصحيحها ومعرفة الطريق المستقيم وقد اشتمل القرآن الكريم على العلاج في سوره ، لكن في حاجة إلى من يقضي عن هذا العلاج وستخلصه ويقدمه في صورة شائقة محببة لهذا الجمع في بيت من بيوت الله .

إن لخطبة الجمعة أهمية كبيرة في تجديد الفكر الإسلامي ، ولأهميتها كان يتولاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه ، ثم الخلفاء الراشدون من بعده ، ثم الأمثل فالأمثل . وبالتالي فنحن في حاجة ماسة إلى الاهتمام الكبير ، والعناية الخاصة بهذا اللقاء الأسبوعي . أنه مدد للأيام بعد هذا اليوم ، وتجديد للعهد وحرص على أداء الصلاة في موعدها ، وتدريب على صلاة الجماعة ، والذهاب إلى المساجد ، فالمسلمون جميعاً يلتقون في هذا اليوم .. رجالاً ونساء وصبية على تقوى من الله ورضوانه ، وما أحسن من لقاء وأحبب به كل وقت ..

ومن هذا لابد للخطيب أن يكون مؤهلاً راقياً ، بما في هذا التعبير من معنى ، فلأهمية الخطبة وأثرها في السلوك الإسلامي ، وتطور الأمة ، لابد أن يقوم عليها المتخصصون أصحاب البلاغة والبيان ، الذين يملكون قوة التعبير وإثارة السامعين في شئ من الهدوء والسكينة ، لا الضجيج والصراخ والعويل ولن تكون الخطبة مؤثرة ، ولا الخطيب مفوها إلا إذا كان المكان معداً إعداداً جيداً ، وأن يكون المسجد فسيحاً نظيفاً يتسع لأكبر عدد من السلميين ، لا بأس أن يصلي عدد من المصليين خارج المسد إذا امتلأ بالناس ، فليس في هذا غضاضة على أن يهيئ لهم أيضاًُ ما يعينهم على الصلاة في شئ من الراحة أن موضوع الخطبة لابد أن يختلف من مكان إلى مكان حسب طبيعة الوضع الاجتماعي والاقتصادي لبيئة الخطبة ، وليس معنى هذا أن تكون الخطبة في مكان أضعف منها في مكان آخر ، فهذه مهمة الخطيب الناجح الذي يعرف كيف يخاطب الناس بما يحبون ، المهم أن يكون هناك اهتمام خاص بالعقيدة والأخلاق ، أمام صراعات شتى يمكن أن تقضي على الأخضر واليابس .

فالعقيدة والأخلاق هما الآن محور التركيز الذي يجب أن تهتم به غاية الاهتمام ، كما يجب أن تكون معلوماتنا أفكارنا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهادات العلماء والمفكرين ، وأن نتنزه عن الإسرائيليات ، فقد شرعت خطبة الجمعة لتعالج قضايا ومشكلات المجتمعات ، وأن يتوجه الناس إلى الصواب والرشاد والدين الصحيح ، وإلى ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم من استقامة في سلوكه وف يخلقه وحياته ..

هؤلاء المصلون الذين يحشدون في المساجد للصلاة ، والاستماع إلى قول الله في قرآنه ، هم أنفسهم الذين يمنعون الماعون ، ولا يحضون على طعام المسكين ، وهم الذين يعطلون معاملاتنا إذا ذهبنا إليهم في مكاتبهم أو طلبنا منهم إنجاز عمل ما .. أين تذهب الرشاوي ؟ وأين تتجه المحسوبية ؟ وإلى أي مدى يصبح هذا الإهمال والتسيب في حياتنا شيئاً ملموساً ... إنها أمور مأساوية لا أشك في أن أحداً يجهلها أولاً يشعر بها ، أولاً يصادفها في يومه ، من أجل ذلك لابد على من يقوم بموعظة الناس أن ينتبه إلى مثل هذه السلوكيات ، وأن يعيش مشكلات الناس في حياتهم ، ثم يوجههم إلى حل هذه المشكلات التوجه الأسمى الصحيح الذي يأخذ بأيديهم لإرضاء الله عز وجل ثم إلى العمل الجاد النافع المثمر في الحياة .. ولن يتم ذلك إلا إذا كان الأمام على قدر كاف من الفهم والإدراك وأحوال الناس حتى يستطيع صوغ مشكلات الناس في كلام طيب مفيد يحظى بالقلوب ، ويجد أفئدة متفتحة تتلقى هذا الكلام بالقبول وتعمل به ، أو على الأقل تحد من أضرار السلوكيات الخاطئة وعلى الخطيب أن يلتزم الحكمة في كل قول وفعل حتى يصلح الله لنا أعمالنا ، فإذا كانت الأعمال نافعة مثمرة جادة جعلت للناس حياة رغدة ، وعيشة هنية ، ثم يغفر الله لنا خطايانا – وما أكثرها – لأننا التزمنا واتبعنا واستقمنا على الطريق المستقيم .

لابد أن يكون الخطاب مؤثراًُ في قلوب الناس وفي ضمائرهم ووجدانهم ، ويحولهم التحول الذي ينبغي أن تصنعه الخطبة في الفروض الجماعة ، ولا يجب أن تخاطب الناس فوق مستواهم ، ولا تنزل بهم إلى مالا يفهمون .. إنما ينبغي أن تخاطب الناس بلسانهم ، وحال فكرهم وما يحبونه ، فقد قال الإمام علي كرم الله وجهه : " خاطبوا الناس بما يعرفون .. " خاطبوهم بحديث شائق ، وشدوا انتباههم واجذبوهم لما تضحون ، وليكن كلا منكم مواكباً للأحداث ، وطرح المشكلات وإيجاد الحلول ، وبينوا ماذا تريدون من موعظتكم ، ومن المواقف التي تطرحونها إلى غير ذلك مما فيه صالح الإسلام والمسلمين .

إن حرص الإسلام على أن يظل المسلمون على علاقة ببعضهم البعض ، يعيشون مشكلاتهم ، ويجون ويتباحثون في حلولها – كان وراء التشريع لصلاة الجمعة وخطبتها ، ليستمع المسلمون فيها إلى ما يفيدهم في دينهم ودنياهم ، لأن منها الموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والدعوة إلى الفضائل .

فريضة الجمعة ليست فريضة عادية ولكنها بمثابة عيد أسبوعي يلتقي فيها المسلمون للتعارف ، وتوثيق أوامر المودة بينهم ، وقد شرعت هذه الفريضة لحكمة ظاهرة لا تخفي على المتأمل المفكر ، فهي لقاء أسبوعي لعرض مشكلات المجتمع ، والعمل على حلها ، وشحذا لهم وتقوية الغرائم ، والدعوة إلى الخير .

والخطيب يمثل في موقفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وينوب عنه في دعوة الأمة إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة ، لذا فالالتزام بهدى النبي الكريم إلى جانب تمتع الخطيب بمقومات ومواصفات خاصة تتناسب مع هذه المكانة هو السبيل لنجاحه في أداء رسالته ، فقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كلام رسول الله ، فقالت : كان كلام رسول الله كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه وورد عنه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال إن أبغضكم إلى وأبعدكم عني يوم القيامة الثرثارون والمتشددون والمتفيهقون . والثرثار هو الذي يكثر الكلام تكلفاً ، والمتشدد هو الذي يتطاول على الناس بكلامه ، والمتكلم بملء فيه تفلحصاً ، والمتفيهق المتكبر على غيره بواسطة الكلام إظهاراً لفضله على من سواء – هكذا تحث الدكتور محمد عفيفي ، عميد كلية الدعوة الإسلامية السابق بجامعة الأزهر بهذا الحديث ، ويواصل بقوله :

كما كان رسول الله يراعي في حديثه التأني في الكلام لقول السيدة عائشة : إن رسول الله لم يكن يرد الحديث كسددكم ، وكان رسول الله لا يطيل الموعظة يوم الجمعة حتى لا يمل أصحابه ، وكان من قوله (صلى الله عليه وسلم) ، " أطلبوا الصلاة واقصروا الخطبة " . كما كان رسول الله يستخدم الإشارة مع الموعظة لما لذلك من الأثر البالغ في النفوس .. ومن ذلك على سبيل المثال : قوله (صلى الله عليه وسلم) : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى " وقوله أيضاً : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ثم شبك بين أصابعه ...

وكان رسول الله ينفعل أثناء الحديث إذا أقتضى الأمر ما يستوجب ذلك ، فكان رسول الله إذا ذكرت الساعة أحمرت وجنتاه ، وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر حبس يقول : " صحبكم مساكم . وكان من هديه (صلى الله عليه وسلم) . التجمل والتهيؤ للقاء الناس ، فكان يسوى لحيته وشعره ، ويقول لأصحابه : " إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه ، فإن الله جميل يحب الجمال " ومصدقاً لذلك قول الحق جل وعلا : " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " .

إن خطيب المسجد يقتلع جذور الشر من نفوس مستمعيه ، ويبعث فيهم خشية الله ، وحب الحق والعدل ، فإذا أدى هذا الدور على الوجه الأكمل ، وفر على القائمين على أمن البلاد جهداً كبيراً وعملاً شاقاً ، هذا بخلاف ما يحصل عليه من أجر عظيم لأن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن مقومات الخطيب الناجح أيضاً عنايته بالثقافة والمعرفة في جميع الفروع ، فالخطيب يقف من جمهوره مقام المعلم الذي يعلمهم ما يجهلون ، وينبههم إلى ما هم غافلون عنه ، ولا يأتي ذلك إلا من خلال كثرة الإطلاع ، وسعة المعرفة وعليه التعرف على التيارات والأفكار المعاصرة ، وأن يقرأ الواقع الذي يعيشه بسلبياته وإيجابياته ، ويدرك ما يعانيه المسلمون في عالم اليوم من مشكلات .

إن خطبة الجمعة تصحيح لبعض مفاهيم الناس ، فكثير من أمور الدين يجهلها الناس عن غير قصد ، ولذا فإنه ينبغي على المسلمين كافة ، أن يحرصوا على الاستماع لخطبة الجمعة ، الإضناب لكل ما فيها فقد جعل الله الاستماع إليها قربة وعبادة ، لا تقفل عن عبادة الصلاة . فإذا كان لخطبة الجمعة هذه الأهمية الكبرى في العظة والتذكرة ، فإنها يجب أن تكون على مستوى هذه المهمة المنوطة لها ، فعلى الخطيب أن يعدها الإعداد الجيد ، وأن يلقيها الإلقاء الحسن .. يصمنها كل قيم الدنيا من خلق حسن ، وخير وبر ومعروف ومسامحة ، وكل فضائل الأعمال ، كما يجب أن تكون الخطبة على قدر من البساطة في الأسلوب ، والاختصار ، وعدم الإطناب ، وتحسسها لحاجة المسلمين وهمومهم .

إن المناهج وحدها لا تصنع عالماً ، وإنما تهدي إلى الطريق الصحيح لمن وجد في نفسه الرغبة والموهبة ، إن ما يحدث اليوم من بعض الخطباء سببه أن هذه المكانة تصدرها عدد كبير من ليسوا مؤهلين لها ، حتى الذين يحملون مؤهلات علمية ينظر بعضهم إلى هذه المنزلة على أنها وظيفة يرتزقون من ورائها ، وليست رسالة يجب أن يفرغ لها وقته وجهده ، بل وحياته كلها .

إن الإعداد لخطبة الجمعة ليس أمراً سهلاً ، بل له تسلسل محدد ويستلزم وقتاً وجهداً من الخطيب ، فكيف تعد خطبة الجمعة خطوة بخطوة ، أولها عندما يطرح على نفسه هذا السؤال ، ماذا أريد أن أقول ، والإجابة المركزة عن هذا السؤال هي أساس وعنوان الخطبة ، فيجب أن يكون هذا العنوان محدداً حتى يكون هناك وضوح في الرؤية ومراعاة للفروق الدقيقة بين الموضوعات المتشابهة ، وقد تبدو الفروقات طفيفة ، ولكنها دقيقة ، ويتوقف عليها الطرح والمناقشة من حيث الاستدلال والهدف .

ثم لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ وما هو الدافع لطرح هذا الموضوع الآن وما الفائدة من طرحه ؟ وهذه الخطوة من أهم مراحل إعداد الخطبة – تلك هي الأسئلة التي طرحها الدكتورة طه عبد الجواد أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر ، ويتابع أسئلته : ما مدى مناسبة الموضوع للزمان ؟ وللبيئة المحيطة ؟ وهذا السؤال يحتاج إلى خطبة من الخطيب ، فمراعاة الزمان وأحوال الناس ، وما يشغلهم من قضايا عوامل رئيسية في تقبل المستمعين لموضوع الخطبة ، وضمان تأثيرها عليهم ، وأما عن خاتمة الخطبة ، وهي بمثابة خلاصة الموضوع ،

واختيار الخاتمة المناسبة لا يقل أهمية عن المقدمة ، وليكن هدف الخطيب من اختيار الخاتمة التأكد من حصول الأثر ، وتحقق الدف ، كما يجب أن يضفي الخطيب نوعاً من التشويق للمستمع ...

ونحن ننبه إلى أمر مهم في ختام الخطبة وهو الدعاء ومشروعيته فهو من أركان خطبة الجمعة ، ويكون الدعاء ، بصلاح الأحوال ، وتيسير الأمور ، فقد كان من هدى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وأنه لم يستخدم أسلوب الإطناب والتفصيل ...

ويؤكد ريا من العوي المدير العام للإعلام بالمسجد الأقصى على أن يخصص الخطاب الديني في الدول الإسلامية كافة بالمسلمين لنجدة المسجد الأقصى المستهدف لهدد وبناء الهيكل المزعوم مكان المسجد قبلة المسلمين الأولى ، وأن الجهاد فرض عين على كل مسلم لنجدة المسجد الأقصى ..

إن بعض الخطباء يعمدون إلى حفظ عدد من الخطب يؤدونها أيام الجمع ، خاصة في المناسبات لا تلحظ فيها تجديداً ولا تطويراً ، وإنما هي نصوص جمعت من هنا وهناك ، ليس للخطيب إلا أن يلقبها على مسامع الناس ، وهو يحسب بذلك أنه أدى ما عليه ، وتخلص من حمل ثقيل ..

إن بعضهم يقف عاجزاً – كما يقول الدكتور من المسير ، لا يدري عن أي موضوع يتحدث ، فهو لم يعد موضوعاً معيناً بحجة أن الوقت قصير ، والمشاغل كثيرة ، وربما حدثته نفسه أن يعيد خطبة العام الماضي ، فالناس عادة لا يتذكرون ، والبعض الآخر ربما لا يكلف نفسه بإعداد الخطبة ، ولا يبذل جهداً فيها ، المهم عند الناس أن ينصرفوا مبكراً . إنهم يحضرون الجمعة من أجل أداء الفريضة ...

وبرغم أن التجديد في موضوع الخطبة أمر ضروري ، فإن التكرار لا يعد في كل أمر شراً مسيطراً ، بل إنه ربما كان ضرورياً أن يكرر الإنسان لقطة أو جملة معينة أو موضوعاً عاماً يثير الانفعال والذهن معاً . وهذا بعض ما جاء في القرآن الكريم من تكرار لبعض الجمل والألفاظ في السورة الواحدة ..

ويؤكد الدكتور محمد إبراهيم عبد الرحمن أن التكرار يحقق بعض الفوائد منها استقرار الآراء والأفكار المطروحة ، وتثبيت هذه الأفكار والآراء ، وبالتالي يمكن تعلمها والتأثير في اتجاهات الناس لطرح فكرة ما . كما أن التكرار يكون مقبولا إذا لبس كل مرة ثوباً جديداً يوحي بأنه لم يعرض من قبل ، فلا تمله الأسماع ، ويبقى المستمعون في حالة تنبه دائم وتشوق مستمر لما يلقي عليهم من الوعظ والإرشاد ، وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) ، إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه . وهذا يكون التكرار من اجل توكيد المعنى من جهة ، وليفهم وينتبه من لم يفهم ، أو ينتبه في المرة الأولى ، والتكرار والتوكيد يتكئ عليها علماء النفس في عملية غسل الأدمغة ، ولو تتبعنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عاشور لرأينا أن موضوعات الوعظ كثيراً ما تتكرر في أكثر من موضع ، وفي الحديث النبوي نرى ظاهرة التكرار ، حيث كان النبي (صلى الله عليه وسلم) ، يتعهد الصحابة رضوان الله عليهم بالموعظة ، فكلما أحس منهم فتورا جدد نشاطهم بالموعظة ..

ويستطيع الداعية فيما بيئة وبين نفسه ، أو مع مجموعة من الدعاة مثله أن يتناولوا موضوعاً معيناً كالمولود النبوي ، ويعقدوا حوله عدة حلقات نقاشية ، يقدم فيها كل واحد منهم رؤيته في تناول ذلك الموضوع ، ويقدم أفكاره ، وينثر رؤاه ، ثم يتم تسجيل كل هذه المقترحات بأفكارها في ورقة منفصلة ، فماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة أننا سنصبح أمام عشرات الأفكار المتجددة برؤى عميقة ، ونظرات شمولية إلى الموضوع المطروح ، ومن ثم يمكن أن تفيدنا هذه الأفكار لعدة سنوات في تناول ذلك الموضوع ، ويطبق كل ذلك على موضوعات أخرى ، قديمة كانت أو جديدة ..

هناك بعض السلبيات في خطبة الجمعة ، في الدول الإسلامية ، ومنها الميل إلى التشديد على الناس بشكل عام ، وقيامها على الوعيد ، وتذكرة الناس بما ينتظرهم من عذاب في القبر ثم في الآخرة ، والابتعاد عن التيسير على الناس ، وعدم التوكيد بالجنة ، كذلك الاعتماد على أحاديث ضعيفة وروايات وإسرائيليات لا يمكن أن يقبلها العقل ، ولا تستقيم مع المنطق خاصة في الترهيب .

هذا إلى جانب ضعف مستوى بعض الخطباء في اللغة العربية ، وعدم حفظهم القرآن الكريم ولا سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حفظاً جيداً ، وتناول الخطباء موضوعات جانبية لا تتصل بأحداث الحياة ومشكلات المسلمين المعاصرة .

أما خطبة الجمعة في الدول غير الإسلامية ، فيشعر المتلقي لها- أو للكثير منها- بأن كل الخلافات التي حدثت في التاريخ الإسلامي بين مختلف الفرق والجماعات الإسلامية ، إنما بعثت من مرقدها وتجسدت في هذه الخطبة ، فتجد مهاجمة المسلمين بعضهم لبضع وأنقسامهم .

والخطاب الإعلامي هو الآخر خطاب حائر بلا مرجعية ، يستعين بلغة الغرب في التعبير عن مجتمع شرقي إسلامي ، ويستعين ببعض العلماء عبر الشاشات ليتحدثوا دون استخدام أي فن من فنون التأثير ، مما يؤدي في النهاية إلى غلق مفاتيح التلفاز ، أو التحول إلى البرامج التفاهة .

لابد من وضع إستراتيجية متكاملة ومتراصة البنيان في جميع القطاعات ، على أن يصاحبها حفاظ على الثوابت الإسلامية ، مع أخذ المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية المستحدثة في الاعتبار ، وأن هذه

المعادلة تحتاج إل جده وشجاعة وتعمق في العلوم الشرعية من جهة ، وعمق في العلوم الاجتماعية والطبيعية ، وأخذ المستجدات التكنولوجية في الاعتبار من جهة أخرى . وهذا يثير عدة قضايا تتصل بإعداد الدعاة وتأهيلهم وتزويدهم بأساليب الفهم العلمي للمجتمع ، وأساليب العمل والتعامل مع الجماهير والتأثير فيهم ، والتعرف المنهجي على البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع الذي يتعاملون معه ، كذلك فإن هذا الموضوع يثير أهمية صياغة الخطاب الديني بما يتفق مع فهم الناس وقدرتهم على الاستيعاب ، ومع اهتماماتهم والإجابة بما يشغلهم من أمور الدين والدنيا ، مع أهمية عدم إساءة الخطاب الديني للعقائد الأخرى ، أو الديانات المخالفة خاصة في المجتمعات متعددة الديانات ، وأهمية الالتزام بالأدب القرآني الذي يجب التأسي به في الخطاب الديني في كل عصر ، مستشهداً بنهي المولى عز وجل عن سب الأصنام التي يعبدها المشركون حتى لا يقابل المشركون هذا السب بالإساءة إلى المسلمين بسب الله ، وكذلك أهمية مراعاة ثقافة المجتمع ، سواء كان الخطاب داخلياً أ، خارجياً ، ونمط تفكير أبنائه والأساليب الناجحة للاقتناع ، والبعد عن التشدد والتعصب ، والاسترشاد بالتوجهات الإسلامية في الحكمة والسماحة والموعظة الحسنة ، ونبذ كل صور التطرف . أما بيت القصيد في تجديد وتطور الخطاب الديني ، فهو رسم إستراتيجية إعلامية داخل كل بدل مسلم ، ثم التنسيق بين مختلف البلدان الإسلامية لوضع إستراتيجية إعلامية ، تتجاوز أي خلافات سياسية أو فقهية أو مذهبية ...

تلك السلبيات التي قد يحتوينها الخطاب هي التي أخذ منها الكاتب أنيس منصور موقفاً من مواقفه حيث كتب يقول : إذا كانت لا تزال في عينيك دموع فأرجو أن تسكبها على حال المسلمين في الشرق الأوسط . ما هذا الإسلام الذي شوهناه وأفسدناه .. ما هذه الخرافات التي يعيشها المصريون في الصحف والإذاعة والتلفزيون .. من هذا العبقري الشرير الذي خرج علينا بالأحاديث المفبركة عن الرسول (صلى الله علياه وسلم) . من الذي جعلنا أضحوكة الأمم . ماذا أحدث حتى نفاجأ بما لا نهاية له من أدعياء الإفتاء على كل قناة ، وصحيفة .. هل هي صحوة إسلامية .. كمما يناما وصحت ضمائرنا فرحنا نتلمس شواطئ الأمان من هذا الشلال ؟ .

أبدا وإنما لدينا استعداد عظيم للإيمان بالخرافات .. هل أقدم لك أمثلة – أنت تعرف – وأنت ناقشت واستنكرت ، ولكن وحدك لا تستطيع أن تقاوم طوفان الفتاوى .. ليس رجال الدين ولا المفكرون وإنما المحترفات من الفنانات التائبات ، التائبات من ماذا ؟ التائبات عن الفهم وعن العلم والدين .. حتى هؤلاء اللاتي لم يكن شيئاً في الفن يحاولن أن يكن شيئاً في الدين .. لقد هان الدين علينا ، وهان أمرنا على الدين أيضاً ..

لقد استمعت إلى المفتي د . علي جمعة يرد على سؤال من هشا : لماذا يصر بعض الناس على أن يسأل في كل كبيرة وصغيرة دون أن يفكر ، ما خوفه ، ما الذي يجعله يسأل هل يدخل بالقدم اليمنى أو اليسرى ، يا أخي أدخل وأخرج كما تريد . ولكنه الخوف ، وفي نفس الوقت كراهية أن يكون الإنسان حراً ، وأن يكون له رأي مستقل حتى لو أخطأ . وإنما هو حريص على أن يكون ذليلاً يضع نفسه في لجام ليجده أحد غيره . أي أن ينزل عن إنسانيته ليكون حيواناً ..

ثم نشكو من لعب العيال الرسامين في الدنمارك . ما هذه الرسومات التافهة السخيفة .. إن الذي نناقشه من أحاديث الرسول – (صلى الله عليه وسلم) – هي أعظم إهانة له وللإسلام الحنيف . إن هذه الخرافات والخزعبلات التي نحشرها ، وينحشر فيها المشايخ والملالي في كل مكان هي أفدح وأفضح وأبشع أزوراء للإسلام والمسلمين . (الأهرام . الاثنين ٦ مارس ٢٠٠٦م) .

المعاصرة :

هناك اتجاه ليس ظاهراً في تبسيط الحديث الديني ، أو الحوار الديني ، وأن عدداً من الخطباء – ومن تلقاء أنفسهم – قد اهتدوا إلى الأسلوب الصحيح في الحديث إلى الناس .. وأنه مختلف تماماً عن الأسلوب الذي تجمد عند القرنين الأول والثاني للهجرة .. عندما كان الناس أقل ، ومشكلاتهم أيضاً .. أما الآن فملايين كثيرة ، ومشكلاتهم أضعافهم وأعقد وليس عندهم وقت للتفكير .

ولعل السبب في ذلك أن الشباب من الخطباء قد اقتحموا هذا المجال ، حتى أنه دفع بهم إلى المساجد الكبرى التي كان من المعتاد ألا يعمل بها إلا كبار السن من الدعاة ... ويقوم الشباب بعملهم عل خير وجه ، ومنذ عام ١٩٩٨م لا تعين الوزارة إلا من الناجحين في المسابقات التي تجريها ، ولا تتعدى نسبة النجاح ١٠ % من بين المتقدمين ، وإذا كانت وزارة الأوقاف في مصر حالياً تشرف إشرافاً كاملاً على أكثر من ٩٤ ألفاً من المساجد والزوايا ، فإن عدد المعينين في الوزارة لا يتجاوز ٤٥ ألفاً خطيب ، والباقون من أساتذة الأزهر والمحالين إلى التقاعد في الوزارة أو الأزهر ، أو من خريجي الجامعات المصرية الذين درسوا وتخرجوا أيضاً في معاهد الدعاة بالوزارة .. وقد حددت الوزارة زمن الخطبة بما لا يزيد على عشرين دقيقة .. فلم يثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) خطب خطبة تزيد على عشر دقائق .. وغالبية الدعاة ملتزمون بتعليمات الوزارة ، ولا بد من أن نقوم بتقويم الذين يعمدون إلى الكثرة في غير ما فائدة ، وأن نأخذ بيدهم إلى الطريق الصحيح .

لابد إذن من تجديد الخطاب الديني شكلاً وموضوعاً بما يتناسب مع مشكلات المجتمع ، وقضايا العصر .. والأمر يحتاج إلى وقت لتغيير العقليات ، وإعادة صياغة فكر العديد من الدعاة ، حتى لا نمل ولا نسمع كلاماً سمعناه

ألف مرة ، ولا ضرورة له ، وحتى لا يفقد الرجل وتفقد الأحاديث أهميتها لأنها لا تقول ولا تضيف ولا تساعد ولأنها قديمة فلا الوقت مناسب ولا الزمان ولا المكان ولا الناس .

لابد من المعاصرة فالمشكلات اليوم اعقد ، والكوارث أعظم ، والمسلمون أكثر وكذلك متاعبهم إننا نستمع إلى بعض الخطباء فنجدهم في حالة من الغضب والعنف وهم يلوحون بمفاتيح جهنم كأن الذين يستمعون إليه كلهم عصاه ، ولا رحمة لله ولا غفران ، مثل هؤلاء يجعلون الحياة قاسية على العباد ، ولا يهونون ليهم العذاب : عذاب الدنيا : الناس والأولاد والزوجات والتعامل مع الآخر ، لماذا يخيفون المسلمين من دينهم ؟ .

إنهم يتناولون موضوعات لا تخدم الناس في حركة حياتهم ، وفي الوصول إلى حل قضاياهم ومشكلاتهم الحياتية واليومية ، أمور كثيرة متعلقة بحياة الفرد ، وبقدرته على ممارسة عيشه لابد أن يبصر بها ، وأن يجد ما يعنيه على قضاء حوائجه وتفسير مشكلاته ، فهل من المعقول مثلاً أن يزلزل المجتمع ويرفع حرارته لدرجة الهذيان على ما هي المساحة الحلال لتغطية وجه المرأة ؟ والحلال بين الحرام بين ، والدين دين فطرة ، وأمامنا القرآن الكريم ، والسنة النبوية كدليل واضح على مثل هذه التساؤلات ، هل معقول أن نقنع الملايين لنؤكد لهم أن الحجاب والنقاب أهم من مأساة البطالة .. وارتفاع الأسعار .. وأزمة السكن .. والمفاعل النووي .. والمواصلات .. والتعليم .. والتربية .. والبحث العلمي ؟ فهل كل هذا لا قيمة له وليس في حسابنا ؟ هل الحجاب أخطر علينا من كل المصائب التي نعانيها ؟ هل من المعقول أن تخصص الدورة البرلمانية لحكاية الحجاب ؟ هل في ذلك معركة ؟ وهل هذا موقف ؟ .

وكم من موضوعات يسأل عنها الفضائيات على كثرتها ، ويجاب عنها من أساتذة أكفاء ، ولا حاجة لنا بمعرفتها ولا يجهلها الداني والقاصي ، وإنما هو استعراض وتجارة كلام حتى نحكم في النهاية من الرابح ومن الخاسر في هذه المعارك ، وعلى تلك الساحات ، وهذه المعارض الكلامية ، وإنك لتعجب ممن يقدمون بعض البرامج في غير ما استحياء حول أمور يخجل المرء أن يناقشها أو يتحدث فيها أو حتى يسمعها ، وإنها لتقدم إليك من مذيعات لا يجدن حرجاً في تناولها وعرضها أمام المشاهد ، فقد أصبحت هناك غفلة عن الأمور الأساسية ، وانسقنا وراء أمور في غاية البساطة من مثل وضع اليد على اليد في الصلاة ، ودخول المكان بالرجل اليمنى أو اليسرى ، والوضوء في داخل المسد وخارجه ، إلى جانب الموضوعات المكشوفة مثل عذرية الفتاة ، والختان ، والعادة السرية وأمور يستحي الرجل أن يتناولها ، فما بالك والفتيات والنساء هن اللاتي يتحدثن عنها أمام المشاهدين .. لابد أن يكون الحديث راشداً ، ويكون داعياً للأمة ويراعى فقه الأوليات ، يعني ما هي الثوابت وما هي المتغيرات ؟ ما هي الأصول وما هي الفروع ؟ حديثاً معبراً عن مقتضى الحال ، ولن يكون إلا رتب الأوليات .

لابد أن تكون البرامج ذات فكر متكامل يتضمن التخطيط والأهداف والإستراتيجيات والأساليب والوسائل ولا محتوى والجمهور والتوقيتات ، وأساليب التنفيذ وإجراءاته ومتطلباته المادية والمعنية والبشرية .

الفصل الثاني

التطور

أسباب التطور وملامحه :

تطور أسلوب الخطاب الديني منذ ظهور الإسلام ، فقد تحول من الخطابة والشعر والمسلمات التي لا نقاس فيها ، ولا جدال حولها خلال عصور الجاهلية وعبادة الأصنام إلى الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وما فعله الصحابة والتابعون الكرام ، والحكمة والموعظة الحسنة في الجدال مع غير المسلمين لإقناعهم بالدين الجديد ، وهكذا كان الخطاب الديني القرآني والإسلامي بصفة عامة نقطة تحول يشهد لها التاريخ والحضارات ..

لقد كانت الدعوة الإسلامية في حاجة ماسة لنشر الإسلام ، فكان من اللوازم المهمة للدعوة تطوير فنون الخطابة ، فاعتنى المسلمون بها ، وزادت عنايتهم عندما وجدت خطبة الجمعة والعيدين ، وكان ذلك من أسباب تطور في الخطابة ، فقفزت الخطبة في صدر الإسلام قفزة نوعية ، واتصفت بصفات عامة متميزة أشد التميز ، ومتباينة أشد التباين بالمقارنة بمستوى خطب العصر الجاهلي مثل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) – " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده "

وهناك مميزات مهمة للخطبة في صدر الإسلام منها : تجدد وتنوع الموضوعات التي عالجت أمور الدين والدنيا ، واستعانت الخطب بالآيات القرآنية التي رفعت مستوى الخطبة والتي تستهل دائماً بالحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، والاستغفار والشكر ، كما حرض المسلمون على ونضع خاتمة لخطبهم أسوة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) .

ونحن نلمس ف يخطب الصدر الأول في الإسلام الإكثار من سيفتي الأمر والنهي ، وهو أمر مترابط بالإمامة ، ونشر الدين ، كما امتازت بالتدرج المنظم للأفكار ، والترتيب المنطقي للنتائج بعد ذكر المقدمات ، ونجدها واضحة ف يخطب الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بصفة خاصة .

وقد برز في نهاية عصر الخلفاء الراشدين في الخطابة مع الفتنة الكبرى لاسيما بعد أن وضحت الفروق بين الشيعة والخوارج والأمويين ، وحاول كل فريق أن ينتصر لآرائه ، ويجتذب الأتباع ، ولعبت السياسة والعصبية دورهما المؤثر الذي تبلور في خطباء تلك الفترة ، ونلاحظ كذلك في خطب الإمام علي (كرم الله وجهة) والإمامين الحسن والحسين (رضي الله عنهما) هذه المؤثرات .

ولا تزال العصبية ممتدة إلى يومنا هذا ، فالشيعة والسنة وغيرهما من الفرق يما رسون ندورهم في الحياة السياسية وفي الحياة العامة – وتلك ظاهرة نشاهدها في العراق وفي لبنان بصورة واضحة ، وفي الأمصار الأخرى بصورة عادية .. ومن هنا كان لابد أن نلتفت إلى الخطاب الديني وأن يضع أمامه هذه المؤثرات في حركة الحياة ..

ينسى بعض القائمين على أمر الخطاب الديني دوره الحقيقي في إظهار الصورة المضيئة للدين الحنيف ، ويبعد عن أغراض الخطاب وأهدافه ، والبعض يترك الساحة لغير المتخصصين الذين يخربون عقول الشباب بأحاديث ملفقة فتاوى مختلفة في الفضائيات وشرائط الكاسيت مما يجعل الشباب في حيرة من أمر هذا الدين .. من أجل ذلك طالب البعض بإصدار قانون يجرم الفتوى عن غير متخصص ، وألا تصدر الفتاوى إلا بتوقيع شخص من المفتي توقيعاً يدوياً وليس آلياً حتى نضمن الثبات والتيقن من ديننا الحنيف ، وأن يقوم الأزهر الشريف بتدريب المتخصصين تدريباً مهنياً بحيث يكون صالحاً لحمل هذه الأمانة وتوصيلها إلى السائلين في ثقة وصدق ...

وعلى ذلك فيجب أن يرتكز الخطاب الديني في الإسلام على مبادئ منها : أن الإسلام هو دين السلام ، وأنه الدين الذي يستهدف خير البشرية ، وبالتالي فالإسلام في جوهره إذا ما فهم فهما صحيحاً ، يتناقص مع العنف والقسوة والتهديد والترويع .

وأن العقيدة الإسلامية تقوم على الإقناع العقلي ، ولا يتفق الإقناع العقلي مع الإكراه والإجبار .

وأن الإسلام لم يشرع الجهاد إلا للدفاع نعن مقدساته ، وحماية ذاته من أذى المعتدين ، ومن هنا فالإسلام لا يخاطب الآخرين إلا من باب الرحمة ، ومن الغريب إذن أن يتحول هذا الدين إلى سلاح في يد المعتدين الآثمين ، ومن ثم فالخطاب الديني الإسلامي حين ينحرف به المنحرفون إلى الإرهاب ، فإن ذلك أمر خارج عنه ، متناقص مع خطابه الأساسي ، مضاد لجوهره الأصيل ..

لقد كان لسلفنا الصالح فتاوى قاطعة من أمثال الشيخ جاد الحق ، والشيخ الذهبي ، والشيخ عبد الحليم محمود ، ولذلك تركوا بصمة فما أحوجنا إلى أمثال هؤلاء الذين يأخذون الشباب من الظلمات إلى النور ، ويهدونهم سواء السبيل ، ويبصرونهم بأمور دينهم .

إن معالجة ثقافة اختلاف الفرق والأفكار والمذاهب التي قد تؤدي إلى العنف والتعصب ترتبط بتحديد الأسباب التي تؤدي إلى أهمية تحديث لغة الخطاب الديني حتى نسيطر على الانحراف الفكري والسلوكي الذي هو بالفعل يشكل خطراً على المجتمعات .

إن وراء مظاهر العنف والإرهاب منظمات وشبكات ترعى وتنشر هذا الفكر المتطرف ، وتستطيع أن تسيطر على أتباعها لدرجة تجعل من يفجر نفسه في حادث إرهابي شهيداً وجزاؤه الجنة ؛ وهذه المعتقدات الهدامة هي التي تبث في أذهان الشباب لتنفيذ مخططات القادة الإرهابيين الذين يخططون من أجل الهيمنة والسيطرة والحصول على السلطة ، فأهدافهم سياسية بحتة ، ويستقطبون الشباب تحت مسميات براقة مثل الجهاد والتضحية .

ومن هن يأتي دور أصحاب الفكر السليم الذين يفهمون ما يقرأون من الدين فهماً صحيحاً ، ويقفون على جوهر الدين الإسلامي وقوفاً ثابتاً مبنياً على التأمل والتفكر والتبصر وإمعان النظر والفكر ، وليس من شك في أن علماء الأزهر يشكلون الثقافة الفكرية الواضحة ووسطية هذا الدين من أجل ذلك يجب أن يكون لهم الدور البارز في توجيه الشباب وإبعادهم عن الانحراف الفكري والعنف والإرهاب .

مثل ذلك يستحق العلاج ، ومثل ذلك ناتج عن قصور في فهم الدين الصحيح ، وشبابنا لم يتعلموا من المصادر الأساسية ، ولم يفهموا ما يعينهم على حركة حياتهم بشكل سليم وصحيح ، ومن هنا وجب التحذير وتوجيه الخطاب إلى الشباب بما يتواءم وأفكارهم وميولهم ورغباتهم .

والدعوة ليست عملاً ارتجالياً ، وليست مجرد مجموعة أساليب أو وسائل ، ولكنها فكر وبرنامج متكامل ، يتضمن التخطيط والأهداف والإستراتيجيات والأساليب والوسائل والمحتوى والجمهور والتوقيتات ، وأساليب التنفيذ وإجراءاته ومتطلباته المادية والفنية والبشرية ، ويتضمن في الوقت نفسه المتابعة والتقويم .

وليس معنى تجديد الخطاب مستمد من الظروف الواهنة (إرهاب – تطرف ديني – عنف – سلوك عدواني فردي وجمعي) فضلاً عما تشهده الساحة السياسية من أحداث فارقة ، بل يستمد أهميته أيضاً باعتباره من أهم العوامل المؤثرة عمقاً واتساعاً في الوجدان الجمعي للشعوب بحكم نزوعها إلى التدين من ناحية ، وباعتباره واحداً من أهم مقومات عمليات التطور المجتمعي من ناحية أخرى .

نحن إذن في أمس الحاجة إلى خطاب ديني عصري ومستنير يتبنى قضايا معاصرة تمس احتياجات الجماهيرية من ناحية ، ويدعو إلى الحب والوئام من ناحية أخرى ، ويستطيع كذلك التفاعل مع الأزمات الدولية .

محاولات التجديد :

لا يعني التفكير في تجديد الخطاب الديني التنكر لقديم هذا الخطاب ف يكل أحواله ، أو تجاهل محاولات التجديد السابقة لهذا الخطاب في كل عصوره ، فلا تجديد أصيلا بقطع علاقاته بكل ما سبقه من محاولات . وقيمة إنجاز أي تجديد تتحدد بأمرين : أولهما الإفادة من المحاولات السابقة ، وإحياء طاقاتها الخلاقة ، وقوتها الدافعة جنباً إلى جنب تنشيط الذاكرة الثقافية كي تستعيد من محتويات هذه المحاولات ما سعت عوامل عديدة إلى إقصائها من الوعي الثقافي العام . ومن المعروف أنه في عصور بعينها ، ونتيجة عوامل يمكن توصيفها ، تقوم الأجهزة الإيديولوجية للدولة ، أو الأجهزة الخاصة بالمجموعات الموازية أو المضادة لسلطة الدولة ، والساعية إلى الانقلاب عليها ، بالتقييم على الجوانب المناقضة لها في الوعي الثقافي ، وتغييبها ، واستخدام ما يخدم الدولة أو هذه المجموعات بما ينقص أهدافها في الذاكرة العامة ، وذلك على نحو ما حدث في الفترات التاريخية التي أحرقت فيها كتب الفلسفة ، واضطهد التفكير العقلاني ، حماية لسطوة التقليد الجامد والإتباع الذي كان يعمل بالتحالف مع أنظمة الحكم المستبدة على امتداد التاريخ .

ولذلك فلابد أن نستعيد محاولات تجديد الخطاب الديني في تاريخنا الثقافي ، وأن نكشف عن أسباب انقطاعها في هذا القطر أو ذلك ، أو إقصائها والعداء لها في هذه الحقبة السياسية أو تلك . ولا تهدف هذه الاستعادة إلى معرفة ما جرى في الماضي فحسب ، وإنما الإفادة منه لمواجهة ما يحدث في الحاضر ، خصوصاً في لحظات الردة ، أو الرجوع إلى الخلف ، نتيجة عوامل داخلية وخارجية ، وتشمل هذه الإفادة التواصل مع الإيجابي من تراثنا في جوانبه الإيجابية ، والتفاعل مع هذه الجوانب بما يخدم الحاضر ويدفع به إلى الأمام . ولا يحدث ذلك إلا بدراسة التراث كله ، تميزاً للإيجابي من السلبي ، وانحيازاً للإيجابي من منظور مشكلات الحاضر الذي نعمل على تطويره والوصول به إلى ما لا نهاية له من وعود التقدم والتحرر .

ويقضى ذلك إلى الأمر الثاني الذي يترتب على الإفادة من محاولات التجديد في الماضي ، وإيقاظها في الوعي الثقافي العام في مواجهة محاولات الإظلام ، وهو الأمر الذي يجاوز الاستعادة إلى الإضافة ، انطلاقاً من المشكلات الجديدة للعصر الذي نعيشه ، والذي يطرح علينا من التحديات ما لم يعرفه السابقون . ويعني ذلك البدء من حيث انتهى المجددون السابقون بعد تمثلهم ، والانطلاق منهم إلى ما فرضته الوقائع التي حدثت بعدهم .

ولو تأملنا محاولات التجديد في الخطاب الديني في تاريخه الطويل ، وفي تشابك علاقاته مع شروط لخطاتها الخاصة ، وجدنا علامات على التراكم الكمي والكيفي الذي يضيف به اللاحق إلى السابق ، مبتكراً من أنواع الاجتهاد غير المسبوق ما ظل جديداً في عصره .

وإذا كان التراكم الكمي والكيفي الذي تتميز به محاولات تجديد الخطاب الديني يؤكد معنى الإضافة ، في علاقات المتأخرين بالمتقدمين ، فإنه يحتم على علماء زماننا الانطلاق إلى الأمام ، وصياغة إضافاتهم التي ينتجها وعيهم المختلف – ضرورة – بالمتغيرات الجديدة في حياتنا .

والمعرفة الموسوعية المعاصرة لازمة لهؤلاء العلماء لزوم المعرفة النوعية المخصوصة التي تعين المجددين من فقهاء الدين على إنتاج فقه جديد ، فقه يجيب لأبناء الأمة الإسلامية عن الأسئلة المؤرقة بما يحررهم داخل أوطانهم ، ويتيح لهم من إمكانات الابتكار والإبداع ما يرقي بهذه الأوطان ، ويضعها في الموضع المرتجي بين بلدان التقدم وأقطاره ، فيمنح المسلم فرحة التطلع إلى المستقبل الواعد ، وفخر العراف بما ينطوي عليه دينه من دوافع التقدم والتحرر الفكري ، وإمكانات الإبداع الفني في الوقت نفسه ، ولن تنتج هذا الفقه الجديد ، عقول التقليد التي لا تعرف سوى تراث الأتباع الذي انحازت إليه ، وأقصت غيره من التيارات العقلانية أو العلمية التجريبية أو حتى الصوفية عن دوائر الاهتمام . ولن ينتج هذا الفقه الجديد من أغلق عقله في وجه معارف العصر ، ومن تصور أنه ليس في حاجة إلى تجديد معارفه ، أو وضعها موضع المساءلة ، ومن ظل على إيمانه النقلي بما قاله أمثال أبن رجب الحنبلي (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ) من فضل السلف على الخلف بإطلاق ، أو توهم أن العلم في نقصان ، وأن الذين مضوا أتموا علوم الدين وأكملوها ، فم يعد لمتأخر بعدهم سبيل إلى الإضافة أو التجديد .

ربما أن هذا الفقه الجديد – إن وجد حقاً – سيعلو فوق تعصب الفرق والطوائف ، ولن يعرف التمييز بين السني بكل مذاهبه ، أو الشيعي بكل طوائفه أو غيرهما من الفرق الإسلامية المعاصرة التي ورثت من العداء القديم ما يحول بينها واستكمال آفاق الحوار الكامل ، والتفاعل الأصيل ؟ وإذا تحقق هذا الحوار والتفاعل ، فسوف يختفي العداء بين الأخوة الأعداء ، وينبذ الجميع مبدأ " الفرقة الناجية " التي تلقي غيرها من الفرق المخالفة في النار ، وتبرز مبادئ واعدة بإمكانات التعاون الخلاق ، وتبادل الخبرات والاجتهادات ، في مواجهة التحديات التي تهدد الجميع ، والتي لا يمكن التغلب عليها بالعودة المذعورة إلى الوراء ، أو القياس المطلق على ما مضى ، أو النظر في ريبة العداء إلى الجديد الذي يوصف بأنه بدعة ضلالة تقضي إلى النار .

هكذا يرى الدكتور جابر عصفور ، ويضيف قائلاً :

ومن المؤكد أن هذا الفقه الذي نرجوه سوف يحمل بصمات عصره وملامحه ، ولكنه لن يعكس هذا العصر على نحو محايد كما تفعل المرأة ، وإنما سيكون استجابة إلى هذا العصر بمواجهة سلبياته وتطوير إمكاناته الإيجابية ، وذلك في لغة صورة لا تخشى أعداء الاجتهاد ، أو أنصار إبقاء الأوضاع على ما هي عليه ، كأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وما أكثر هؤلاء فغي كل محال ، وأغلب الظن أن المجددين الجذريين من منتجي هذا الفقه الجديد سينا لهم ما نال رواد التجديد الديني ، وزعماء الإصلاح في عصرنا الحديث ابتداء من الشيخ حسن العطار الذي تولى مشيخة الأزهر ما بين سنتي ١٨٣٠ – ١٨٣٤ وكان يقول : " إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها " وليس انتهاء بالشيخ محمد عبده الذي عمل على إصلاح الأزهر ، محاولاً إزاحة العقبات الناجمة عن " غفلة المشايخ ، ورسوخ العادات القديمة عندهم " . وقد حدثنا الإمام – فيم اكتبه في " الإسلام دين العلم والمدينة " – عن الشيخ عليش الذي كان قطب المقلدين من شيوخ المالكية في الأزهر ، والعدو اللدود لنزعة الإمام محمد عبده الاعتزالية . وقد وصل عداء الشيخ عليش للاجتهاد إلى الدرجة التي دفعته – فيما يرويه الإمام – إلى أن حمل حربة توجه بها ليطعن الشيخ السنوسي ، الذي جرؤ على الاجتهاد ، وصنف كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على الأصول المالكية ، ولو لا مغادرة الشيخ السنوسي القاهرة ، قبل ملاقاة الشيخ عليش ، لوقعت الكارثة ، واغتيل واحد من المجتهدين على يد واحد من أعداء الاجتهاد .

ولكن الاغتيال الذي لم يقع في حالة السنوسي نوقع في حالات عديدة شهدنا كوارثها في زمننا ، وأحفاد الشيخ عليش أو أشباهه ازدادوا تطرفاً بما أدى إلى المصائب التي أضرت بالمسلمين في كل مكان . ولا سبيل إلى إيقاف تداعيات هذه المصائب إلا بتغيير العقلية التي ترفض تجديد الخطاب الديني ، إما اكتفاء بالقديم الذي ألفته ، أو انحيازاً إلى بعض المذاهب المتطرفة التي أنتجت الإرهاب ، أو حفاظاً على مكاسب مادية . ولن يتم تغيير هذه العقلية إلا بأوسع وأعمق مستويات الحوار العقلاني الذي لا يكف عن المجادلة بالتي هي أحسن ، ولا يلجأ إلى العنف الذي هو ينقص العقل ، بل يعتمد على الحجج المنطقية والبراهين العلمية التي لابد أن تسود في النهاية . ولن يكتمل ذلك إلا بإصلاح جذري في برامج التعليم الديني بواسطة ذوي الفكر المستنير المتجدد ، وبيننا منهم من تفخر بهم ، ونستمع إليهم باحترام عميق ، ويتبع ذلك تغيير نمط الخطاب الديني المقدم في برامج " الإعلام " وتطويره في أجهزة الثقافة والتعليم ، وتسليط الأضواء إلى رجل الدين العصري الذي يحسن إدراك لغة العصر وطبيعة تحدياته . ويوازي ذلك رعاية الاجتهادات المخالفة السائدة ، الخارجة على المعتاد ، وعدم قمع أصحابها بما يجعل منهم أمثولة مخيفة لغيرهم بوسائل العنف التي تستأصل – في النهاية – رغبة الاجتهاد في النفوس .

والطريق إلى ذلك كله يبدأ يوصل الإتباع الغالب بالأتباع اللازم ، وتعرية كل المحاولات التي تهدف إلى توظيف الدين سياسياً ، انقلاباً على الدولة المدينة ، أو حفاظاً على أنظمة سياسية فاسدة لا تثمر سوى المزيد من التخلف ، أو اتساقاً مع تراتب قمعي لمجتمعات بطريركية منغلقة على علاقاتها الجامدة ، ويصعد الطريق إلى تحقيق هدف تجديد الخطاب الديني بأخلاق التسامح التي تقترن بنبذ التعصب الذي يؤدي إلى التطرف والإرهاب ، ومن ثم الإيمان بأنه ما من أحد يمهلك الحقيقة المطلقة في دائرة الخطاب الديني ، ولا أحد يملك إصنغاء أي قداسة على

اجتهاده ، أو يملك تكفير غيره على اجتهاد مخلف ، فقد تعلمنا من تراثنا الديني الأصيل أن من كفر غيره من المسلمين فقد باء بها ، أحدهما ، وأنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولم يحمل على الكفر .

ويقول د . جابر عصفور أيضًا : كل خطاب ديني تأويلي بالضرورة ، ذلك لأنه خطاب بشرى من صنع إفهام البشر للنصوص الدينية ، وكيفية استجابتهم إليها ، تفسيرًا وشرحًا واستخلاصًا لقواعد وأحكام هي - في النهاية - محكومة بشروط أدوات إنتاج المعرفة ، وعلاقاتها في المجتمع في المجتمع الذي تتأول فيه النصوص الدينية ، حسب شروط اللحظة الزمنية للتأويلات والمجتمع الذي ينتجها ويعيد إنتاجها ، معبرة عن علاقاته المختلفة وصراعات طوائفه الداخلية ، أو صراع المجتمع نفسه مع شروط خارجية ، تتصل بالأوضاع الناتجة عن المتصل الذي يبدأ من أشكال الهيمنة التي تفرضها أسباب يمكن حصرها ، وينتهي بالغزو العسكري الذي يؤثر تأثيرا عميقًا في بنية الثقافة ، ويفرض عليها منحى بعينه في تأويل النصوص الدينية وتفسيرها بما يؤدي إلى استنباط أحكام بعينها ، ولا أدل على ذلك من أشكال التشرد الفقهي لدى الحنابلة المتأخرين من عصر الحروب الصليبية ، وتصاعد المد الديني المقرون بالتعصب والتطرف في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، ولذلك فإن كل خطاب ديني صورة لعصره ، ومرآة لزمنه، يتخلف في أحوال الهزائم والانكسار والتراجع، فضلاً عن انتشار الفساد الذي يفترق بالدول التسلطية ، ويتقدم في الأحوال المناقضة حين تعلم الأمم من أجل مستقبل وأعد في أفق مفتوح من الشفافية ، ونزاهة الحكم الحريص على التعددية والتنوع . المفتوح على كل تجارب العالم المتقدم التي يأخذ منها بقدر ما يضيف إليها في مدى التنوع البشري الخلاف .

ولذلك لا يفارق الخطاب الديني شروط الضرورة التي تعيشها مجتمعاتنا ، في المجالات الاقتصادية ، والسياسة الاجتماعية والثقافية. والنتيجة هي تحول هذا الخطاب إلى مرآة لشروطه التي يؤكدها بقدر ما يتأكد بها . وأولى صفات هذا الخطاب الصفة النقلية الاتباعية المعادية للعقل ، وفتح أبواب التجريب على مصراعيها ، صحيح أن كل دين يتكون من نصوص نقلية هي آيات محكمات ، واجبة النفاذ ، ولكن هناك المتشابهات والنصوص القابلة للتأويل ، وذلك في المدى العقلاني الذي يمايز بين نصوص ثانوية مرتبطة بأوضاع عرفية ، ذهبت واندثرت ، بعد أن نسختها متغيرات الأزمنة ، ونصوص أساسية تظل معاينها صالحة لكل زمان ومكان . ويبدأ التخلف في الخطاب الديني بالخلط بين الثانوي والأساسي من النصوص ، ساجنا نفسه في المدار المغلق للتقليد الذي هو إتباع سلبي لما سبق أن ذهبت إليه فقهاء العصور القديمة ، خصوصا العصور التي ظلت معادية للنزعات العقلانية ، رافعة شعارات من قبيل : (من تمنطق تزندق) وهي عصور شاعت فيها تهم الكفر . ورغم أن هذه التهمة تبعث على السؤال عمق يملك الحكم في هذا الأمر ، وينفرد بحق الاتهام دون سواه ، فوجود ظاهرة الاتهام نفسها تشير إلى تحول الخطاب الديني إلى سلطة قمعية معادية للاختلاف أو الاجتهاد الجذري ، والسلطة تأخذ أشكالا متعددة في هذا السياق ، وتشمل الرمزي والحقيقي ، والمعنوي والمادي ، خصوصا مع ظهور مجموعات الإسلام السياسي الداعية إلى إقامة دولة دينية أو مجموعات التطرف المقترنة بالإرهاب ، وهي المجموعات التي يتحول الخطاب الديني من ممارستها إلى سلطة قمعية لا تجادل بالتي هي أحسن ، بل بالتي هي أقمع ، رافضة الخروج على الإجماع الذي جمدت عليه ، شأنها في ذلك شأن المؤسسة الدينية الرسمية التي يسود فيها الجمود والتقليد . والدليل على ذلك . ماثل في التفادي من قبيل شرب دول الرسول [أو جواز إرضاع الكبار ، أو تأثيم الفنون] وهي فتاوي لولا مواجهة القلة القليلة لها من عقلاء الأزهر المستنيرين لكانت صورة المؤسسة الدينية الرسمية معتمة إلى أبعد حد ، ولكن للأسف لا تزال الكثرة الغالبة على جمودها الذي يتجاوب مع تيارات التطرف والتعصب ، بمعنى أو غيره . وقد تعلمنا من علماء الإصلاح الرواد أمثال الإمام محمد عبده ، أنه لا سلطة دينية في الإسلام ، وأن من حق أي مسلم أن يفهم من كلام الله ورسوله ما شاء ، ما ظل متمكنًا من الأدوات التي تعينه على ذلك ، كما تعلمنا أنه لا وصاية على مسلم من مؤسسة أو فئة أو تيار ، وإن كان هو مباح للمسلم على المسلم هو حق النصيحة ، فالني كان مبلغًا وليس آمرًا ، والمسلم الذي يقوم بتكفيره غيره يبوء بتهمته التي تتقلب عليه ، فتعينه هو ، ولا فارق بين رجل وامرأة في مجال الاجتهاد ، ولا بين عربي وغير عربي إلا بالتقوى ، والتعايش السلمي بين الأديان المعقودة ، والحوار بينها مبدأ حسن ، ما ظلت هذه الديانات ، تعترف بالإسلام دينًا .

لكن مثل هذه الأفكار لا وجود لها في الخطاب الديني الذي يأخذ من الدولة التسلطية تسلطيها التي يعيد إنتاجها في مجاله النوعي ، في الوقت الذي يدعم التسلطية السياسية المجانسة لطبيعته القائمة على التراتب والإجماع ، ولذلك يتبادل الطرفات التعاون المؤازرة في مجالين لا تختلف بينهما التراتبية القسرية إلا من حيث الظاهر فحسب ، فأمير الجماعة هو الموازي للحاكم الدكتاتور الذي لا يملك أحد معصيته أو مراجعته في التراتب الديني أو السياسي ، أو حتى القبلي ، ويتحول تراتب البنية إلى معيار للقيمة الموجبة في المجالين ، فأمير الجماعة وشيخ القبيلة والحاكم الدكتاتور يحتلون أعلى منطقة من الهرم الاجتماعي والسياسي والديني ، وأوامرهم - مثل نواهيهم - تنزل من الأعلى إلى الأدنى بواسطة أو غير واسطة ، في اتجاه واحد هابط دائمًا ، لا يعرف الصعود من الأدنى إلى الأعلى ، ويقمع في عنق أية محاولة لمثل هذا الصعود ، وينتقل هذا التراتب القسري إلى بنية العلوم ، فتغذو علوم الدين أفضل العلوم وأرقاها بالقياس إلى علوم الدنيا التي تشغل إلى أدنى مكانة ، حيث العلوم البحتة والطبيعية ، وما شبهها من العلوم ، إلا ما كان منها خادمًا لعلوم الدين ، خاضعًا لها ، وذلك على نحو ما نسمع من الطب الإسلامي ،

والاقتصاد الإسلامي ، والحكم الإسلامي ، وأخيرًا العلاج بالقرآن أو بالآناجيل ونصوص الكتب المقدسة ، وأمثال التفاوي التي نسمعها ...

مهمة التجديد

تجديد الخطاب الديني ضرورة يفرضها الجمود الذي لا يزال يعوق السائد من هذا الخطاب عن ملاحقة متغيرات العصر بتحديداته غير المسبوقة . وهو التزام قومي لمواجهة الكوارث التي تبحث عن هذا الخطاب من تطرفه الأصولي الذي اقترب بجرائم الإرهاب المستترة بشعارات الدين محليا ودوليًا . وهو واجب ديني لاستعادة الجوهر السمح للإسلام ودعوته إلى المجادلة بالتي هي أحسن ، ومن ثم تنقيه صورته من البقع السوداء التي تركتها جرائم الإرهاب البشعة التي يدينها كل مسلم ، ويستغلها أعداء المسلمين لتشويه صورة الإسلام في كل مكان ، وتوصير المسلمين على أنهم أعداء الحضارة الإنسانية الذين يهددون سلام البشرية وتقدمها الواعد ، ولا مبرر للنكوص عن النهوض بأعباء الالتزام القومي والواجب الديني في هذا الأمر ، خصوصًا بعد أن وصلت الأوضاع إلى ما وصلت إليه ، وبعد أن انكسرت تيارات التجديد التي قادها أمثال محمد عبده من الذين سعوا إلى فتح باب الاجتهاد الديني على مصراعيه ، فسعت أصوليات التطرف إلى خنق كل محاولة للاجتهاد في نقد الخطاب الديني السائد ، وأشاعت مناخًا من التعصب الذي أفرخ الإرهاب بكل كوارثه ..

وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ينهض بمهمة تجديد الخطاب الديني ؟ المثقفون أم الأفراد ؟ أم المؤسسات والمعاهد الدينية ؟ أم الاثنان معًا ؟ إن الجميع مندوبون للقيام بنقد الأشكال المتعددة من الخطاب القائمة ، والسعي إلى تجديد الخطاب الديني السائد بما يجعله - كما هو في الأصل - قوة دافعة للتقدم الواعد الذي لا نهاية لإمكاناته الخلاقة ، ولا غرابة في أن يشعر المثقفون المستنيرون - على اختلاف تياراتهم ، وتنوع وسائل تعليمهم ، أنه لا سبيل إلى تجديد خطابنا الثقافي العام من غير تجديد أربعة خطابات ، يتكون الخطاب الثقافي العام من شبكة علاقاتها المتجاوبة ، وهي الخطاب الديني والخطاب السياسي والخطاب الاجتماعي والخطاب المعرفي ، خصوصًا أن كل خطاب من هذه الخطابات يتجاوب مع غيره ، ويتبادل وإياه التأثير والتأثير ، وذلك على نحو مؤدي إلى تأثير الدين في السياسة ، أو استقلال السياسي للديني ، أو انعكاس أحدهما أو كليهما في الاجتماعي ، انفتاحًا أو انغلاقًا . ويلزم عن ذلك التأثير الذي يسهم في توجيه الخطاب المعرفي في أحوال تقدمه أو تأخره . وبالطبع لابد أن تكون حركة التجديد شاملة ، متعددة الأبعاد والمجالات ، تنبسط على دوائر الخطابات المتشابكة ، ابتداء من الديني الذي لا ينفصل عن السياسي ، فالمالك بالدين يقوى ، والدين بالملك يبقى ، كما قال القدماء ، وانتهاك بالخطاب المعرفي المحدد بأفق الخطاب الاجتماعي والمحاصر - عاد - بالمدارات المغلقة للخطابات الدينية والسياسية .

ولابد أن الهم الذي يؤرق المثقفين في تجديد الخطابات السائدة ، وعلى رأسها الخطاب الديني ، يؤرق المؤسسة الدينية ومعاهدها التي تقوم على تعليم هذا الخطاب ، وإعادة إنتاجه ، وإشاعته عبر وسائل الإعلام المتاحة لها . وتبدأ توازع التجديد في هذه المؤسسة بمراجعة البرامج التدريسية التي تتجسد من خلالها أو بواسطتها ، الممارسة الخطابية المفضلة ، تلك التي تقوم على اختيار مكونات تراثية دون غيرها ، مضافًا إليها اجتهادات معاصرة في الفهم والتأويل ، واستنباط أحكام جديدة ، لكن في مدى الدائر ة نفسها من الانحياز الذي يحجب مكونات مغايرة ، أو يقلل من قيمة تيارات مختلفة قد تكون لها أهميتها في تأكيد دوافع التجديد والانفتاح على التيارات العقلانية في التراث الإسلامي له مغزاه في هذه المراجعة التي لا تقل أهمية عن الانفتاح على علوم العصر المختلفة ، خصوصًا ما يتصل منها بإنجازات علوم اللغة المعاصرة في تحليل الخطاب بمختلف أنواعه وأشكاله ، أو ما يرتبط بإنجازات نظريات التأويل التي تفتح أفقا واعدًا في عمليات التفسير النصي والتعددية المحتملة للمعاني الكامنة ، وذلك جنبًا إلى جنب الميراث الإنساني المتطور للدراسات المقارنة للأديان المختلفة ، وما أصبح بها من موضوعات جديدة من الدرس المفتوح على تضافر الاختصاصات .

إن مراجعة المناهج السياسية القائمة ، والانفتاح على العلوم الحديثة ، وتشجيع البعثات في هذه العلوم ، كل ذلك لن يحدث أثره الإيجابي إلا بمراجعة نوعية الطلاب الذين يقبلون في المعاهد الدينية ، أو الذين تفرض عليهم هذه المعاهد الدينية ، ولا يجدون غيرها سبيلا إلى التعليم ، إما التدني مجموع الدرجات التي يحصلون عليها ، أو توهم التعليم الديني هو الأقل كلفة مادية بالقياس إلى غيره من أنواع التعليم ، ولعل سياسة التوسع غير المحسوب في التعليم الأزهري في بعض الفترات نتيجة ملابسات سياسية معروفة قد تسببت في غلبة الكيف على حساب الكم الذي تمثل في القبول العشوائي لطلاب ما كان مستواهم التعليمي يؤهلهم للتقدم الكيفي في التعليم الديني ، فكانت النتيجة ضعف المستوى التعليمي العام والخاص ، وضعف الأداء اللغوي ، وغير ذلك من المشكلات التي لم تلقن بصراحة لا من داخل المؤسسة الأزهرية أو من خارجها . والمؤكد أن التدقيق اختيار الطلاب الذين يتقدمون للكليات التي تنهض بتعليم علوم الدين مسألة ضرورية جدًا ، خصوصًا إذا أردنا أن يكون رجل الدين القادم نموذجًا للمعرفة الأصلية التي تجمع بين أنقى ما في الموروث ، دون إغفال علوم العصر الحديثة .

وليس من شك في أن توعية جديدة مدربة أرقى تدريب وأحدثه من خريجي المعاهد الدينية والكليات الأزهرية مطلوبة إلى أبعد حد ، خصوصًا بعد أن لم تعد المؤسسة الدينية الرسمية هي المسئول الوحيد عن إشاعة الوعي الديني بين الجماهير . فهناك - للأسف - مجموعات التأسلم السياسي الموازية لسلطة الدولة ، والمعادية للدولة المدينة بوجه عام . وهي مجموعات تعمل بين الجماهير غير المتعلمة ، والشباب الذي لم يجد ما يدعم عقله النقدي

فـي المدارس الحكوميـة المدنيـة التـي تحتـاج بـدورها إلـى تطـوير جـذري ، وقـد نجحـت هـذه المجموعـات فـي إشـاعة ممارسات أصـولية جامـدة ، أنتجـت مناخًـا مـن التعصـب كـان بيئـة صـالحة التفـريخ التطـرف والإرهـاب الـذي أكتـوى الأبرياء بناره . ورغم أن الأرهـاب المحلـي لهـذه المجموعـات تتوقـف حاليًـا بسـبب المواجهـة الأمنيـة الناجحـة ، لكـن أفكاره لا تزال قائمة ، منتشرة ، باقية في الأذهان التي لم يحصنها العلم أو الثقافة . الأمـر الـذي يحتـاج إلـى رجـل ديـن من نوع جديد ، يجمع بـين أصـالة العلـوم التراثيـة فـي تياراتهـا المتنوعـة ، ومعاصـرة معـارف العصـر فـي انجازاتهـا المفيدة لرسالته ، ولا سبيل إلى وجود هذا النوع الواعد من رجال الدين إلا بتعديل برامج التعليم ، ومنـاهج التـدريس والتدقيق في شروط القبول للتعليم الـديني ، وذلـك كلـه فـي نـوع مـن التنسـيق مـع القـائمين علـى أجهـزة التعلـيم المـدني والإعلام والثقافة التي يفترض أن تسعى إلى تحقيق الهدف نفسه .

هذا التنسيق ينطلق من أن الوعي الديني في المجتمع ليس مسئولية المؤسسة الدينية وحدها ، حتى وإن وقـع عليها العبء الأكبر والأخطر من هذه المسئولية . فهناك أجهـزة الدولـة الموازيـة التـي تسـهم فـي صـياغة الـوعي الـديني بأكثر من وسيلة ، وعلى رأس هذه الأجهزة مؤسسات المجتمع المدني والتعليم المدني ، حيث تتأكد ضـرورة التنميـة المستمرة للعقل النقدي العام والخاص عند الفرد والجماعة . ولا تقل أجهزة الإعلام أهميـة عـن التعلـيم ، فهـي توازيـه في الأثر وتكمله ، سواء من حيث إشاعة ثقافة الاستنارة ، أو تقديم النماذج الدينية المنفتحة على زمنهـا المتطـور ، أو إشاعة القيم الدينية الأصيلة بواسطة إنتاج فنـي لا يعـرف الضـجيج الخطـابي ، بـل يعـرف الفـن الـذي يخاطـب العقـول والقلوب في مواقف عصرية تستجيب إلى مشكلات الشباب ، وتجيب عن أسئلتهم الحائرة ، وقس على ذلـك مـا يمكـن أن تفعلـه مراكـز الشـباب ، والمعاهـد العماليـة ، ومراكـز الثقافـة الجماهريـة ، إلـى جانـب مـا تقـوم بـه وزارة الشـباب ووزارة العمل ، ووزارة الثقافة من نشر المكتبات الحديثة ، وإتاحة الكتب للجميع ، وتوصـيل أنـواع الفـن الرفيـع إلـى الراغبين فيه .

كل هذه الأجهزة وغيرها لها إسهامها في صياغة الوعي الديني للأمة ، وذلك بما لا يقل علـى الإطـلاق مـن أهمية الدور الذي تقوم به المؤسسة الدينية ، بل ما يضيف إليها من التحديدات التي لابد من مواجهتهـا مـا دمنـا نسـعى على الخلاص من مشكلات التخلف بكل لوازمه ، وفي كل جوانبه .

ويعني ذلك ، أنه لا مبرر للحجر الذي يفرضه بعض المتعصبين من رجال الدين على المثقفين المدنيين في مجـال تجديـد الخطـاب الـديني ، وذلـك بـزعم أن تجديـد الخطـاب الـديني مهمـة رجـال الـدين وحـدهم ، ومقصـود علـى مؤسسة الرسمية وحدها . والواقع أن هذا الحجر لا يصمد كثيرا لأي تأمل عقلي . فالاهتمام بـأمور الـدين ـ كـالعلم بـه ـ لا يقتصر على الشيوخ ، وإنما هو متاح لكل مجتهد سعي إلى استكمال أدوات الاجتهـاد وشـرائطه ، أيـا كـان موقـع المجتهد أو صفته ، وقد تعلمنا من قراءة الإمام محمد عبده ـ أنهلا سلطة دينية في الإسلام ، ولا كهنوت يحتكـر العلـم به ، أو يقصره على فريق دون غيره ، ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسـوله دون توسيط أحد من سلف أو خلف ، فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

الحديث القديم

نحن في حاجة إلى تطوير وتبسيط الخطاب الديني ، ليس الآن ولكن منذ فترات ماضية ، هذه حقيقة فرضتها الوقائع التي مرت بالعلم العربي ، ثم راحت تتسع دائرتها حتى أصبحت ذات طابع عالمي تعاني منه جميع بلاد العالم بدون استثناء ، ولأننا غالبًا نؤجل بعض المشكلات أو نتركها لأن غيرها قد نراه أهم منها فقد أجلنا وتركنا مشكلة الخطاب الديني حتى وصلنا إلى مرحلة راحت الدول الأجنبية ، وهي غير إسلامية بالطبع تطالبنا بتطوير هذا الخطاب لأنها وجدت فيه أحد العوامل المثيرة لنزعه التطرف التي تؤدي أن أجلاً أو عاجلاً إلى الإرهاب .

نحن بحاجة إلى أحاديث تتعلق بالحث على التوبة من الذنوب وتصحيح مسيرة الإنسان الخاطئ ، والتفتح لاستقبال الحياة بقلب سليم ، ومراعاة جانب الله بصدق وإخلاص مهما تغيرت الظروف والأحوال .

نحن بحاجة إلى أحاديث كالتي يلقيها كبار العلماء من أمثال الشيخ المراغي والشيخ محمد شلتوت ، والدكتور محمود سلامة ، والدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ محمد متولي الشعراوي وغيرهم كثير ممن رحلوا ، ثم خلف من بعد هؤلاء العلماء خلف راحوا يهيجون الناس ويثيرون مشاعرهم بالحديث عن السلبيات الأخلاقية وفساد المجتمع وتدهور الأحوال ، مع عدم إيجاد حلول لهذه القضايا عن الثورة والفتنة ، لكن حب الشهرة والجماهيرية دفع البعض إلى السير في اتجاه النقد والشتائم ، واستخدام أقسى الألفاظ في وصف الظواهر والأشخاص ، الأمر الذي يدعونا إلى أن يكون فقدنا فقدًا بناء يدعو إلى الإصلاح والتقويم .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن المؤسسة التعليمية التي كانت مهمتها الأساسية تخريج الدعاة لم تطور نفسها على النحو المنشود ، ولا بالسرعة المطلوبة ، ولذلك لوحظ ضعف الخطباء ، وقلة تأثيرهم وجمود اللغة التي يستخدمونها ، مما خابهم إلى الانفصال عن الناس وانفصال الناس عنهم ، وهذا ما جعل بعض الدعاة غير المتخصصين أساسًا في العلوم الدينية يبرزون في وسائل الإعلام ، ويتخاطف الناس أشرطتهم ، ويحرصون على سماعهم في القنوات الفضائية ، مما دفع المتخصصين من الدعاة إلى إعلان استنكارهم لمثل هذا الخطاب غير المتعمق ، والذي يدغدغ فقط أحاسيس الشباب .

لقد كانت هناك دعوة إلى إصلاح وتحديث الخطاب الديني منذ جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ومن سمتها في التفكير الديني ، وتلاميذ هذه المدرسة التنويرية - الدينية يقومون بهذه المهمة خير قيام . لكن ما حدث من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية جعل هذه الدعة المعتدلة إلى الاجتهاد والتحديث في التفكير الديني يتضاءل وتضمحل أمام القيود التي فرضت عليها سواء من المثقفين اليساريين الذين مدوا الخيط إلى آخره في التطرف نحو الشيوعية ، أو محاولة تهميش دور رجال الدين والدعوة ، فكان من الطبيعي والحال هذه أن تنمو تحت السطح ظاهرة التطرف في ظل تنامي الصحوة الإسلامية المضادة ، وبين هؤلاء وأولئك ضاع صوت الاعتدال إزاء التحزب الفكري الصارم الذي يغذي الشللية بين أوساط المثقفين المصريين حينما يكون الأمر بيد أي منهم بشكل كاد يقضي على صوت الاعتدال تمامًا ، وتعدي الأمر حدود الكتابة في الصحف والمجلات إلى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة .

ولما كان اليوم أمام مرحلة جديدة اتضحت فيها الغايات ، وتكشف الأهداف والوسائل وخاصة بعد أن مر علينا أصوات إرهابية أقلقت المجتمع بكل فئاته ، وبعد ما حدث بعد ذلك في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي والولايات المتحدة الأمريكية صار الأمر يحتاج إلى هذه الوقفة التي ندعو فيها إلى تجديد الخطاب الديني ونبذ الإرهاب .

ففي الوقت الذي على العالم أن يضع يده على أهداف المنظمات الإرهابية التي لم يعد يخلو منها مجتمع لم تعد تخلو منها ديانة من الديانات العالمية ويجتث جذورها ويجفف منابع تمويلها وتسهيل أعمالها الذي كان يتم تحت غطاء (اللجوء السياسي) والحفاظ على حقوق الإنسان ، وحرية تنقل رؤوس الأموال .

إنه في هذا الوقت الذي على العالم أن ينتبه إلى خطورة هذه المنظمات الإرهابية سواء تمت أعمالها تحت غطاء العمل الأهل ي- التطوعي - أو تحت غطاء حكومي كما يحدث من الحكومة الإسرائيلية التي تمارس إرهاب الدولة . في هذا الوقت تأتي الدعوة في ذات اللحظة إلى تجديد الخطاب الديني الذي يمثل ضرورة قومية وإسلامية لابد منها ، فنحن أمة متدينة بطبعها ، وجوهر حضارتنا عبر العصور هو التقييم الدينية السامية الداعية إلى المحبة والسلام والإخاء بين الشعوب .

يجب أن نتنبه إلى أن تحديث أو تجديد الخطاب الديني لابد أن يأتي مساوقًا لتجديد الخطاب الإعلامي العربي ككل ، فالصورة الأكثر انتشارًا والأكثر تأثيرًا من الخطاب الديني هي التي تتم ليس فقط عبر المساجد والندوات الدينية المتخصصة ، بل تلك التي تتم ويجري تداولها عبر وسائل الإعلام المختلفة ، وعلى ذلك فإن زيادة كم البرامج الدينية - العلمية الرفيعة - وأن يباح فيها الاجتهاد ومعالجة القضايا المعاصرة بشفافية وجراءة.

كما أن تجديد الخطاب الديني ليس وحدة واحدة تؤخذ ككل ، بل ينبغي تناول الموضوع عبر ثلاثة تساؤلات رئيسية : ما هي آليات هذا التجديد .. وما هو المضمون المطلوب في هذا التجديد ، وما هي الأهداف التي يراد

تحقيقها من وراء ذلك ؟ وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات ينبغي الإعداد الجيد لمن يوكل إليهم في كل الأحوال مهمة هذا التجديد .

يجب أن ننتبه إلى أن تحدث أو تجديد الخطاب الديني لابد أن يأتي مساوقًا لتجديد الخطاب الإعلامي العربي ككل ، فالصورة الأكثر انتشارًا والأكثر تأثيرًا من الخطاب الديني هي التي تتم ليس فقط عبر المساجد والندوات الدينية المتخصصة ، بل تلك التي تتم وجري تداولها عبر وسائل الإعلام المختلفة ، وعلى ذلك فإن زيادة كم البرامج الدينية عبر الإذاعات والقنوات التليفزيونية المحلية والفضائية يمثل ضرورة بشرط أن يقوم على هذه البرامج أشخاص من ذوي الثقافة الدينية - العلمية الرفيعة - وأن يباح فيها الاجتهاد ومعالجة القضايا المعاصرة بشفافية وجراءة .

كما أن تجديد الخطاب الديني ليس وحدة واحدة تؤخذ ككل ، بل ينبغي تناول الموضوع عبر ثلاثة تساؤلات رئيسية : ما هي آليات هذا التجديد .. وما هو المضمون المطلوب في هذا التجديد ، وما هي الأهداف التي يراد تحقيقها من وراء ذلك ؟ وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات ينبغي الإعداد لمن يؤكل إليهم في كل الأحوال مهمة هذا التجديد .

المجددون فى القديم

المعروف أن الخطاب الديني هو في الأصل من عمل المجددين في الإسلام ، والتجديد في الإسلام ظهر في بدايات القرن الهجري الأول في عصر خلفاء الراشدين كحركة فكرية تطلبتها مواكبة ظروف الحياة ، وما تنطوي عليه من تغييرات . ولعل تناولنا الحركة التجديد في الإسلام هو في واقع الأمر ، حديث عن الإسلام في أرقى وأجلى صورة ، ورغم أن هذه الحركة على هذا النحو من الأهمية ، إلا أن الاهتمام بالتأريخ لها ظهور ظهورًا متأخرًا في المائة والخمسين عامًا الأخيرة ، في كتابات الإمام محمد عبده وأستاذة السيد جمال الدين الأفغاني ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد كرد علي ، ومحمد رشيد رضا . ثم كتابات الرواد المعاصرين ومنهم أحمد أمين وطه حسين والعقاد والحكيم ومحمد حسين هيكل . بل وأخذت اهتمامًا مكثفًا عن كل من الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، حيث أفرد لها كتابًا عنوانه " المجددون في الإسلام " ، أو كتابات الأستاذ أمين الخولي ، الذي أقرد لها كتابًا بالعنوان نفسه " المجددون في الإسلام " . هذا إلى جانب ترجمة لكتاب أجنبي هو " الإسلام والتجديد " قام بها في الثلاثينات الأستاذ عباس محمود ، وهو غير عباس محمود العقاد .

هذا الاهتمام المكثف سبقه اهتمام مبكر في القرن الثالث الهجري من العلماء والمفكرين ، كما يقرر الأستاذ أمين الخولي في كتابه عن التجديد .

ولا عجب على ذلك الاهتمام قديمًا وحديثًا بالكتابة عن حركة التجديد الإسلامي ، وذلك لأنها أحيت قضايا عديدة ، ونفضت عنها غبار القرون ومنها أن الإسلام منذ قرنه الأول حتى يومنا هذا ليس نظامًا دينيًا فحسب ، بل أيضًا نظامًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا ، وأن تعاليمه ليست بمعزل عن تطور الحياة وتفسيرها . والتجديد في الإسلام على هذا النحو ، كان لازمًا لزوم الحياة نفسها ، مواكبًا لظهور الإسلام على مسرح هذه الحياة ، وذلك أن هذا الدين الحنيف قد أتى بالقواعد التي تصلح لكل زمان ومكان . وغاية عمل المجدد هو التفكير في تنظيم الفروع التي لا تمس جوهر هذه القواعد ، وعليه مسئولية التفكير على اعتبار أن هذا التفكير هو أصل من الأصول المقررة في الإسلام ، كدين يشمل صلاح الدنيا والآخرة . فلا يقتصر الأمر على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضًا ، حتى يمكنه النهوض بالأمة الإسلامية التي ظهر فيها أولاً ، ثم سائر الأمم التي دخلت في حظيرته بعد ذلك ، وهو من هذه الناحية يتسع للتجديد في كل زمان ومكان ، تجديد ما يقوم به رجاله بنص حديث الرسول صلي الله عليه و سلم : " إن الله يبعث لهذه على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها " .

وقد قامت حول هذا الحديث خلافات كما يذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي - من علماء الأزهر - منها أن المراد " بالأمة " فيه هي أمة الإسلام ، ويجوز أمة الدعوة حيث يراد من الإسلام النهوض الديني والدنيوي للأمم التي تعاصره .

كما اختلفت المفسرون أيضًا في أمور حول عبارة " علي رأس كل مائة عام " فهناك رأي أخر أن هذه المائة على اعتبار أن المراد من البعث من شملته المائة عام وهو حي . وهناك من رأي أن رأس المائة في أولها على اعتبار أن البعث هو الإرسال ، أي إرسال النفع البشري ، وأخيرًا هناك من رأي أن بعث أو إرسال المجدد سواء في أول المائة أو في وسطها أو في آخرها .

كذلك اختلف المفسرون أيضًا حول (من) يبعث في المائة عام التي حددها الحديث النبوي الشريف ، وهل يكون واحدًا ، أم يكون أكثر ؟ إنه قد يكون واحدًا لأنه جاء في بعض روايات الحديثة التصريح بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام رجلاً . أو قيل إنه قد يكون أكثر من واحد ، لأن الرواية المشهورة لهذا الحديث (إن الله يبعث من) ولفظ (من) تطلق على الواحد ، كما تطلق أيضًا على الجمع . واختلفوا في المائة التي يبعث فيها هؤلاء المجددون ، هل تعتبر من المولد النبوي ، أم البعثة المحمدية أم الهجرة النبوية ، أم من تاريخ وفاة النبي الكريم ؟ . وقد رأى جمهور العلماء والمفسرين حسما لهذا الأمر أن تكون من الهجرة كتأريخ معتمد للإسلام .

ومن ناحية أخرى يذكر الأستاذ أمين الخولي في كتبه " المجددون في الإسلام " ، أن القدماء يقصدون بالتجديد " إحياء السنة " وإماتة البدعة ، وإحياء ما أندر منها ويتتبع تفصيل هؤلاء القدماء لأحوال التجديد ، وهل هي اتجاهات عملية ، اجتماعية أم أنها نظرية تبليغية ؟ فيراهم ينزعون حينما منزعمًا عمليًا ، وحينًا أخر منزعًا نظريًا ، ومع هذا وذاك يلحظ إيثارهم للمنزع العلمي في التجديد الذي تؤيده أشياء منها أنهم يعدون الخلفاء الراشدين مجددين ، وأن مجال تجديدهم في إصلاح الأمة هو في حفظ دينها ، وبث المعدل والإنصاف الذي به تحقق الدماء ، ويتمكن من إقامة " قوانين الشرع " ولذلك بدأ القدماء يصرون في كل مائة عام أحكامًا من العلماء ، ففي المائة عام الأولى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، بالطبع إلى جانب الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقالوا - أي العلماء - يكفي هذه الأمة وجودهم خاصة وأنهم جاهدوا لإقامة دعائم الإسلام ، وعدوا في المائة الثانية أمير المؤمنين المأمون مع الإمام الشافعي ، وفي الثالثة المغفور بالله مع أحمد بن حنبل والكندي والراز الفيلسوف ، وفي الرابعة القادر بالله مع أبو الحسن الأشعري والفارابي ، وفي الخامسة المستظهر بالله مع حجة الإسلام الإمام الغزالي ، والشيخ الرئيس بين سيناء والإمام ابن حم الأندلسي ، وفي السادسة الفيلسوف ابن رشد والشريف الإدريسي ، وأبو

الفرج الجوزي . وفي السابعة تقي الدين بن تيمية ، وفي الثامنة ولي الدين بن خلدون ، وابن القيم الجوزية وأبو إسحاق الشاطبي ، وفي التاسعة القاضي الأنصاري وابن الوزير اليمين ، وفي العاشرة سليمان القانوني ، وفي الحادية عشرة إبراهيم الكوراني ، وفي الثانية عشر ولي الدين ، وفي الثالثة عشرة الشوكاني والأفغاني ، وفي الرابعة عشرة الإمام محمد عبده ومصطفى المراغي ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة ، ولكل واحد من هؤلاء أعماله الإصلاحية العظيمة في خدمة الإسلام . أو كما رأى الأستاذ أمين الخولي ، أن للتجديد معنى خلاصته أنه حركة فكرية دائمة ، متصلة ما اتصلت الحياة ، وما قام فيها من يحمي الحياة من الانحراف ، ويجهر بالحق ، ويصون المجتمع من الظلم والعشاء .

وينال المجدد في الإسلام قدرًا عظيمًا من التوفير والاحترام إلى درجة أن القدماء اعتبروا منصبه يقترب من منصب الخلافة ، وتزداد أهمية التجديد في الإسلام حيث يتعدد المجددون في القرن الواحد ، كل في ميدان ، ينفع فيه .

يظن الناس أن في تناولنا لموضوع الخطاب الديني أمر جديد مستحدث في هذه الأيام لا سابق له ، وكأن العقل الإسلامي كان معطلاً تمامًا خلال الأربعة عشر قرنًا الماضية ، ولم يكن للسلف الصالح من مفكري الإسلام وعلمائه أي جهود تذكر في هذا الميدان ، أو كأن التفكير وهو فريضة إسلامية قد توقف تمامًا بعد أن كان من نتاجه هذا الصرح الحضاري الهائل المبني على التفكير الصحيح المستقيم والمتجدد في الوقت نفسه .

أو كأن التعاليم الإسلامية قد خلت تمامًا من الدعوة إلى التجديد في التفكير ، وفيها حديث واضح وصريح للنبي صلي الله عليه و سلم ، وهو الذي أشرنا إليه بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجعل أحد أفزاز المسلمين محمد أوتوا العلم والفضل وإمكان التفكير المستقيم ، ليقوم بتجديد التفكير في هذا الدين بصدمة لا تخالف ما جاء في الكتاب والسنة ، وفي الوقت نفسه تتلاءم مع روح العصر الذي يوجد فيه هذا المفكر ، وهو ما يعرف بتجديد التفكير في الإسلام في كل قرن من قرونه الماضية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، وفق أسباب ومسببات التعامل معها يجعل للإسلام خاصية متميزة هي مواكبته لكل العصور .

ولعلنا نبدأ بالتفكير المتجدد في تناول السيرة النبوية الشريفة كمثال لتجدد الخطاب الديني - على اعتبار أنه لو لم يوجد ذا التفكير المتجدد ، لأصبح تناول هذه السيرة صورة طبق الأصل لما قاله ورواه ابن إسحق عن النبي الكريم - صلي الله عليه و سلم - وما دونه وكتبه ابن هشام . بل على العكس من ذلك استمر الكتاب والأدباء بعد ذلك في تناولهم للسيرة النبوية مختلفين ومغايرين لأسلوب ابن هشام .. ولا يزال البعض يتحدث ، ويكتب البعض الآخر يبحث ويدرس ، والثالث يبتكر ويبتدع فيما رواه ابن إسحاق ودونه ابن هشام ، ولكن بتناول مختلف ، بمعنى أن المادة واحدة ، وطرق وأساليب التناول متعددة ، والكل يسعى إلى مزيد من البحث والدراسة كالإبداع والابتكار .. عن هذا الذي شاد بنيان خير أمة أخرجت للناس ، وأضاف للحضارة الإنسانية مزيدًا لا يمحي ، وصنع بتعاليمه وقيمه ومبادئه أساسًا للدولة الإسلامية الممتدة - عبر الزمان - من يوم مبعثه إلى اليوم .

وهكذا أصبح التأليف في سيرته صلي الله عليه و سلم - لا ينقطع ، والحديث عنه لا ينتهي ، والبحث والدرس حوله لا يكف ، والأقلام بما تجري به على الورق لا تجف .. وما أظن توقفًا لكل ذلك يحدث حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا الكم الهائل بكيفية ، الهادف بتوجهه ، يضع المؤلف أمام حيرة مصدرها من أين يبدأ ، وكيف يتناول ؟ ليبحث أو يدرس أو يبدع أو يبترك ؟ وفي الإجابة عن هذا التساؤل يصل إلى أسلوب يجتهد في أن يجعله مغايرا ومختلفًا ، أساليب سابقية ، مع الحافظ على جوهر هذه السيرة من حقائق ووقائع ثابتة ، حتى يخرج بعمل جديد غير مقلد ، يصلح لأن ينتسب إليه وحده ، مع أن هذا المؤلف يدرك تمامًا أن الكتابة في جانب من جوانب السيرة النبوية قائمة أساسًا على رواية الخلف عن السلف ، والمحدثين عن الأقدمين منذ زمن بعيد لعله منذ قام الرواة والإخبار يوم المسلمون يتناقلون منها ما يستطيعون حتى وصلت إلى ابن إسحاق .

في النصف الأول من القرن الهجري ليسجلها ويتبعها ودونة - في سيرة متكاملة - ابن هشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

وهكذا منذ البدء كان المهتمون بالسيرة النبوية رواة وناقلين ، ثم جاء من بعدهم جامعون مبوبون ، ولما أستوي للمتأخرين ما جمعه المتقدمون من التراث المحمدي الشريف ، جاء دور الشرح والتعليق ، مع بقاء هذا التراث الخالد ثابتًا غير قابل لأي تغيير في جوهره . وكل جديد فيه هو اجتهاد في اختيار طريقة أو أسلوب ، أو منهج للعرض أو التناول .

لذلك يقرر المحققون للسيرة النبوية الشريفة ، والمؤرخون لها ، أي المتهمين بها ينقسمون إلى فريقين :
فريق عاش في ظل ما كتبه الأولون يقرؤه ويتأمله ويجتهد في شرحه له وتعليقه عليه ، حتى يقربه من أبناء زمانه ، وفريق صبغ أعماله بصبغة إبداعية ، حيث جمع بين يديه كتب السابقين عليه ، ليخرج على الناس بعمل مؤلف مبدع في ظاهرة له ، وفي حقيقة لغيره ممن سبقه في ذلك .

ولهذا يمكن القول اتفاقًا مع هذا الرأي ، واستنادًا إليه ، أن يتناول السيرة النبوية في شتى الأماكن والأزمان هو في الأصل قارئ لما كتبه غيره من السابقين .. حيث قرأ وأستوعب وتأمل ، ثم اجتهد وفكر في البحث عن

طريقة مبتكرة وجديدة في العرض والتناول ، وطبيعي أن يكون ذلك إعمالاً للتفكير الإنساني ، وهو عين التجديد في الكتابة .

إن كل كاتب أو مؤلف باحث أو مبدع من تناول السيرة النبوية يختلف عن سابقة في التناول ، والمثل واضح فيما كتبه ابن هشام في السيرة النبوية في العصر القديم يختلف في تناول عما كتبه غيره في العصر الوسطي أو الحديث ، وفي العصر الحديث ذاته يختلف ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل في (حياة محمد) عما كتب طه حسين في أجزاء (على هامش السيرة) عن العقاد في (عبقرية محمد) عن الحكيم من (محمد الرسول البشير) عن إبراهيم الإبياري في (محمد بن السير) عن عبد الحميد جودة السحار في " محمد رسول الله والذين محمد " عن خالد محمد خالد من " وتحدث الرسول " و " رجال حول الرسول " عن الشرقاوي فيما كتبه من " محسن محمد رسول الحرية " ، وكل هذا يختلف عما ذكر في كثير من الكتب الأخرى لها صلة بالسيرة النبوية .

هذا التجديد في تناول السيرة النبوية على أيدي كتابها وهو مثل من أمثلة تجديد الخطاب الديني الذي يسعى إلى تقريب هذه السيرة إلى المعاصرين للمؤلف مع الحفاظ على جوهرها ، حيث إن ما كان يصلح كأسلوب في القرن الثاني أو الثالث الهجريين ، لا يصلح في القرن الخامس عشر ، وتلك واحدة من مآثر الإسلام هي مواكبته للحياة .

إن الدعوة لتجديد الخطاب الديني لم تكن وليدة اليوم ، بل سبقها عبر تاريخنا دعوات عديدة قادها أعلام عظام ، حملوا مشاعر التنوير والدعوة للحداثة ، والتبشير بالتجديد الديني ، والعودة لمنابع الإسلام الصافية للأخذ بأسباب القوة ، وفي مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده شيخ الأزهر الأسبق ، وإحدى الشخصيات البارزة والمهمة التي لعبت دورًا كبيرًا في حياة مصر والشرق .

لقد ركز الإمام في دعوته للتجديد على تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارضة إلى ينابيعه الأولى ، واعتبار من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وأن الدين على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم ، باعثًا على البحث في أسرار الكون واحترام الحقائق الثابتة لتأديب النفس ، وإصلاح العمل .

كما طالب الإمام بإصلاح أساليب اللغة العربية في التعامل بين الناس سواء في المخاطبة الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الصحف ، أو في المراسلات بين الناس .

إن البحث في سبل تجديد الخطاب الديني هو اعتراف منا بأن الخطاب السائد الآن تشويه شوائب وقصور أثرت على حياتنا العامة ، ومن ثم أصبح يتحتم الآن أخذ الأمر بجدية حتى لا يتحول الحديث عن التجديد إلى مجرد شعار تنشغل به المنتديات بعض الوقف ثم يذهب كغيره إدراج الرياح .

وتزداد أهمية هذا الموضوع باعتبار أن الدين طاقة روحية فاعلة للإنسان تتطلب الحيوية ، أمر المبادرة ، والعمل ، وإبراز الصومة الصحيحة ، والفهم المستنير للإسلام ، وإعلاء العقل في أمورنا ، ومن ثم فإن تجديد الخطاب الديني يحتاج إلى التنوع الخلاق ، والحوار الإيجابي ، وتجلية الغامض ، والتسامح ، والانفتاح على الآخر .

كما أننا نحتاج إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لملاحقة المتغيرات ، مع ضرورة إعداد الرجال والدعاة والمهتمين بالحديث ، وهو الأمر الذي ينطبق عليه قول المفكر الإسلامي عبد الرحمن الكواكبي :

" ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس ، ويرفعون الالتباس ، ويفكرون بعزم ، ويعملون بحزم ، ولا يفكون حتى ينالوا ما يقصدون " .

إن الدين الإسلامي يحمل في داخله جينات تطوره خاصة من مبدأ الاجتهاد ، وهو مبدأ يتحول إلى فرص عين على كل قادر .

إن الدعوة للاجتهاد ومراجعة الأفكار البشرية لفهم النص ليست دعوة جديدة ، وإن علماء المسلمين أنفسهم طالبوا على مدى قرون طويلة ، وفي العصر الحديث القريب من خلال العديد من المؤتمرات الإسلامية مثل ندوة تجديد الفكر الإسلامي في السعودية (١٩٨٥) وملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر في العالم التالي ، ومؤتمر الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة (١٩٨٧) ومؤتمر مناهج القرآن في (١٩٨٨) ومؤتمر الفقه الإسلامي في عام ٩٩ وندوة التربية الإسلامية التي عقدت في سرايبفو تحت رعاية المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم .

إن فكرة التغيير والتجديد ليست مرفوضة في الدين الإسلامي ، إلا أن التجديد يجب أن يكون من واصلنا ومن ذاتنا لا من جهات خارجية أو أجنبية ، بل انطلاقًا من عقيدتنا وثوابتنا ومنطلقاتنا ، ومن هنا نرفض التغيير والتجديد في خطابنا إذا جاء من الذين يريدون تفريغ خطابنا الإسلامي من بناء الشخصية القوية المدافعة عن الدين والوطن . كما يجب أن يأتي التغيير وفق متطلبات العصر ، والواقع الظروف المحيطة ، لأن الخطاب ينبغي أن يراعي الزمن والإنسان ، ويراعي التطورات المحيطة ، لا يصبح جامدًا ، ونحن مطالبون بالتغيير والتجديد وفق متطالبتنا وحاجاتنا ، وليس المسلمون هم وحدهم الذين يطلبون تغيير خطابهم ، وإنما يجب على الآخرين أن يغيروا أيضًا خطابهم الديني ..

إن مصطلح الخطاب الديني مصطلح مهم لتوقف معناه الدقيق على مقصود واضعه ، ذلك أن نفرًا من الناس حسبوه أصول (مصادر) الشريعة الإسلامية ، وحسب آخرون أنه وسائل الدعوة للدين الحق ، وظنه آخرون ذاتية الأحكام الشرعية ، لذلك تنوعت المنظمة ، وتعددت الفكرة ، وتباينت ردود الأفعال بين قابل ورافض ، بين قاهم ومزايدًا .

فهل يتجه الخطاب الديني إلى الشريعة الإسلامية ؟ ونحن نعرف أن الشريعة بنصوصها تقرر أحكامًا محددة في أمور معينة ، بطريقة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير على مر العصور ، وتنوع أو تبدل ظروف المجتمع ، لأن طبيعة هذه الأحكام لا تتغير بتغير زمان ، واختلاف المجتمعات .

ومن هنا فإن في تجديد الخطاب الديني يجب فهم المصطلح ودلالته بشفافية ومصداقية من ذوي العلاقة ، فالتطوير يعني تيسير طرح المضمون على الناس ، واختيار الألفاظ الوسيطة التي يستوعبها المخاطبون ، وعدم الدخول في مناطق محظورة ، ومناقشة قضايا لا تهم الناس ، والحرص على تقدم أسماء يستوعبها المتلقي وتكون ذات أثر ملموس بالنسبة له .

إن تطوير الخطاب الديني يحتاج إلى إستراتيجية تغطي مختلف جوانب هذا الخطاب ، ولو تم ذلك بشكل مخلص وأمين ، فسيتغير وجه الحياة في العالم العربي والإسلامي ، وسيؤثر ذلك تأثيرًا لا تحدثه قنوات الاتصال الأخرى مع ضرورة إعطاء البرامج الدينية حقها في الوصول إلى الناس .

التاريخ الإسلامي

في بداية ثلاثينات القرن العشرين دعا الدكتور طه حسين إلى المشروع الخاص بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي على نحو يقبله القارئ الذي أنصرف عن هذا التاريخ بأقلام أصحابه العرب ، ليقرأ مادة كتبها غير العرب وفق سياسات معينة تخدم أغراضًا معينة ، فاتفق الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي ، على إعادة كتابة هذا التاريخ منذ فجره إلى أواخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل واحد ، الثلاثة بدراسة جانب بتقنية ، فيختص طه حسين بكتابة جانب الحياة العقلية والفكرية في الإسلام ، ويختص عبد الحميد العبادي بكتابه جانب الحياة السياسية في هذا الدين .

وبالفعل كتب كل واحد من الثلاثة كتبًا تعالج هذه الجوانب الأدبية والفكرية والسياسية ، فكتب طه حسين أجزاء على هامش السيرة ، وجزئي الفتنة الكبرى ، والشيخان ، ومرآة الإسلام ، والوعد الحق ، إلى جانب مقالات التي تقدم الإسلام على نحو يقبله القارئ المعاصر . وكتب أحمد أمين في هذا المجال كتبا منها فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، ويم الإسلام . وكتب العبادي وشارك في كتب منها صور وبحوث من التاريخ الإسلامي ، والدولة الإسلامية وحضارتها ، والمجمل في تاريخ الأندلس وغيرها .

وواكبت هذه الكتابات للثلاثة كتابات أخرى للدكتور محمد حسين هيكل ، ثم بدأ الأستاذ العقاد في كتابه إسلامية التي تجاوزت الثلاثين كتابًا في الإسلام ، تنوعت بين العبقريات والشخصيات والبحوث والدراسات . كما أهتم الأستاذ توفيق الحكيم ، والدكتور أحمد زكي بالكتابة في هذا المجال ، وتبع هذا الجيل من الرواد جيل الأساتذة ويتقدمهم عبد الرحمن الشرقاوي ، وعبد الحميد جودة السحار ، والدكتورة بنت الشاطئ وغيرهم ممن عنوا بالكتابة عن جوانب من تاريخ الإسلام على نحو يقبله القارئ المعاصر .

هكذا قال الأستاذ سامح كريم ، ويسأل لماذا كانت هذه الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ؟ أو بمعنى آخر ما الأسباب والمبررات التي دعت هؤلاء المفكرين إلى التفكير في هذا الجانب من الكتابة خاصة في ثلاثينات القرن العشرين ؟

ويجيب عن ذلك شقان أحدهما عام يتصل بمادة التاريخ الإسلامي نفسها ، والثاني خاص يتصل بوقائع وأحداث تمت في ثلاثينات القرن العشرين ودعت إلى التفكير في ذلك .. ويواصل سامح كريم قوله :

أما ما يتصل بمادة التاريخ نفسها ، فإن من أسباب التفكير في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ما كان يواجهه الباحث من صعوبات في البحث في هذه المادة عن أحداث هذا التاريخ .. حيث درج العرب على كتابة حواراتهم بشكل مختلط فيتذكرون الأحداث في شتى نواحيها يختلط فيها الدين بالعلم ، والأدب بالسياسة ، والشعر بالروايات والحكايات . ولعلهم اعتبروا الإحاطة بكل هذه الجانب دليل مقدرة لذلك تصوروا أن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ، فنرى مثلا الجاحظ وهو يكتب في البيان والتبيين تفسير آية إلى جانب حكاية إلى جانب قصيدة ، وهكذا استطرادات لا يجمعها خط واحد .

وأصعب من مهمة الباحث الذي يتصدى بالبحث في هذا التاريخ على هذا النحو ، هي مهمة القارئ لهذه المادة ، فقراءتها عسيرة ، وفهمها أعسر ، وتزوقها أشد عسرًا ، فأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطلوبة المطولة ، والأخبار التي تتسم بالاستطراد ؟ وأين هذا القارئ الذي يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصرف وغيرها ؟ لكي يقرأ من أخبار العرب الآقدميين أو يقف على واقعة حدثت في الماضي البعيد ؟ ثم أين هذا القارئ الذي يملك من الوقت ما يسمح له بالبحث في المتون والأسانيد والحوليات عن قصة من القصص جاء ذكرها في العصر القديم ، ويريد الاستمتاع بقراءتها والرجوع إلهيا ؟ أين هذا القارئ المعاصر الذي يفضل قراءة التاريخ الإسلامي على هذا النحو ؟ ومن هنا برزت الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي على نحو حديث كصورة من صور الخطاب الديني .

أما ما يتصل بالأحداث التي تمت في ثلاثينات القرن العشرين ، ودعت إلى التعجيل بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي بأقلام أصحابه ، منها دخول الكتابات الأجنبية إلى العالم العربي ، وتعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، وطبيعي أن تتسم بعض هذه الكتابات بالتعصب للقرب وطنيًا وجنسيًا ، ومن الأسباب خلو الميدان من الكتابات الإسلامية الجادة والمقنعة بعد الشيخ الإمام محسن عبده ، والسيد جمال الدين الأفغان ، إلى جانب انصراف المفكرين والأدباء الكبار إلى الكتابات السياسية حيث الانشغال بالمشكلة الوطنية ، وسبب أخر هو اللياذ بالعقيدة الدينية خوفًا من المذاهب الاجتماعية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت خطيرة ، كذلك هناك سبب مهم يدور حول ازدياد الحركة التبشيرية التي تغافلت الصحف بأخبارها وقتئذ ، وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة هي مصدرها . ولهذه الأسباب وغيرها كان الأدباء والمفكرون أشد الناس تجمعًا لمقاومة هذه الحركة ، والسبيل إلى مقاومتها هي كتابة التاريخ الإسلامي بصورة تجلي أحداثه .. وغير ذلك من أسباب دعت هؤلاء الرواد إلى التفكير في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي سواء داخل الجامعة أو خارجها .. كخطاب ديني جديد .

لقد طالب أيمن الخولي والشيخ شلتوت والشيخ الغزالي بتجديد الفكر الديني ، والاهتمام بتشكيل العقلية الاجتهادية ، وتكوين الملكة الفقهية المتجددة ، وتصحيح تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، لإعادة تشكيل الفكر الديني ، وتأسيس خطاب ديني قادر على مواجهة التحديات الراهنة ، والنهوض بالمجتمع ككل ..

وأصعب من مهمة الباحث الذي يتصدى بالبحث في هذا التاريخ على هذا النحو ، هي مهمة القارئ لهذه المادة ، فقراءتها عسيرة ، وفهمها أعسر ، وتذوقها أشد عسرًا ، فأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطلوبة المطولة ، والأخبار التي تتسم بالاستطراد ؟ وأين هذا القارئ الذي يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصرف وغيرها ؟ لكي يقرأ خبرا من أخبار العرب الأقدمين أو يقف على واقعة حدثت في الماضي البعيد ؟ ثم أين ذا القارئ الذي يملك من الوقت ما يمسح له بالبحث في المتون والأسانيد والحوليات عن قصة من القصص جاء ذكرها في العصر القديم ، ويريد الاستمتاع بقراءتها والرجوع إليها ؟ أين ها القارئ المعاصر الذي يفضل قراءة التاريخ الإسلامي على هذا النحو ؟ ومن هنا برزت الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي على نحو حديث كصورة من صور الخطاب الديني .

أما ما يتصل بالأحداث التي تمت في ثلاثينيات القرن العشرين ، ودعت إلى التعجيل بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي بأقلام أصحابه ، منها دخول الكتابات الأجنبية إلى العالم العربي ، وتعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، وطبيعي أن تتسم بعض هذه الكتابات بالتعصب للقرب وطنيًا وجنسيًا ، ومن الأسباب خلو الميدان من الكتابات الإسلامية الجادة والمقنعة بعد الشيخ الإمام محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، إلى جانب انصراف المفكرين والأدباء لكبار إلى الكتابات السياسية حيث الانشغال بالمشكلة الوطنية ، وسبب أخر هو اللياذ بالعقيدة خوفًا من المذاهب الاجتماعية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت خطيرة ، كذلك هناك سبب مهم يدور حول ازدياد الحركة التبشيرية التي تناقلت الصحف أخبارها وقتئذ ، وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة هي مصدرها . ولهذه الأسباب وغيرها كان الأدباء والمفكرون أشد الناس تحمسا لمقاومة هذه الحركة ، والسبيل إلى مقاومتها هي كتابة التاريخ الإسلامي بصورة تجلي أحداثه .. وغير ذلك من أسباب دعت هؤلاء الرواد إلى التفكير في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي سواء داخل الجامعة أو خارجها .. كخطاب ديني جديد .

لقد طالب أمين الخلولي والشيخ شلتوت والشيخ الغزالي بتجديد الفكر الديني ، والاهتمام بتشكيل العقلية الاجتهادية ، وتكوين الملكة الفقهية المتجددة ، وتصحيح تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، لإعادة تشكيل الفكر الديني ، وتأسيس خطاب ديني قادر على مواجهة التحديات الراهنة ، والنهوض بالمجتمع ككل ..

إن رؤية نقدية بصيرة لمنظومة إسلاميات عبد الرحمن الشرقاوي ، تؤكد سمات منهج علمي ماد جدلي - في عناق حميم مع منهج سردي روائي واقعي نقدي ، يتقصى فيه أحداث ووقائع الدعوة الإسلامية في ظهورها وتطوراتها كثورة إنسانية تدعو للحق والحرية والعدالة كما درسها في كتابه الفقر (محمد رسول الحرية) ثمن أعقب ذلك ترجماته المبدعة لكل من أبي بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، إمام المتقين ، وعمر بن عبد العزيز ، كذلك أبدع كتب أئمة الفقه التسعة ، وابن تيمية الفقيه ، وثورة الفكر الإسلامي ، وقراءات في الفكر الإسلامي .

ولا يمكن تحديد وتقييم إضافات الشرقاوي في دراساته وسيره الإسلامية دون أن نرجع لجهود كل من طه حسين ، والعقاد ، ود . محمد حسين هيكل ، والطهطاوي قبلهم ، وتوفيق الحكيم وأحمد أمين .. في إنجازاتهم عن الإسلاميات ، وأبرزها على هامش السيرة النبوية ، والفتنة الكبرى ، على وبنوه ، والشيخان ، ومرآة الإسلام والوعد الحق . وحياة محمد ، وفي منزل الوحي ، وأبو بكر الصديق لمحمد حسنين هيكل ، والعبقريات للعقاد ، ومسرحية محمد لتوفيق الحكيم .

فعند طه حسين كانت النزعة التاريخية الاجتماعية بجانب الصياغة الروائية تحكمان إسلامياته . وعند هيكل كان تأكيد وإبراز واستخدام المناهج العقلانية ، والرد على خصوم الإسلام ، وعند العقاد كانت النزعة الفردية المثالية ، أما عند الشرقاوي ، فالرؤية المادية التاريخية للحدث التاريخي ودور الفرد في التاريخ تقدمان في صياغة روائية واقعية ملحمية تقدمان دعوة ومفهوم الإسلام كثورة إنسانية شاملة هي خلاصة خيرات الإنسان الطويلة د القهر واللا عقل ، وهي دعوة تاريخية ومعاصرة للحق والحرية وتحرير الإنسان والعدالة ، فلا معجزات ولا خرافات ولا تهويمات مثالية بل فكر وقانون وإرادة ونضال خلاق صلب لصالح البشرية ككل .

والأهم من ذلك أن تعمق الشرقاوي في الأصول التاريخية والحياتية للعالم وفكره ومعتقداته ودياناته وقت ظهور الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام كان صياغة وتكوينا لكل المنجزات الفكرية والروحية .

ولعل في هذه النظرة الرحبة التي يقدمها الشرقاوي في إسلامياته ردًا على ضيق الأفق والتعصب للتيارات الإسلامية الإرهابية التي تطل برأسها على الإنسان العربي .

في هذا الكتاب (محمد رسول الحرية - صدر عام ١٩٦٢) ينهج الشرقاوي سيررته الرينة عن (محمد الرسول) نهجًا روائيًا شامخًا مصيبًا ، يمزج العيني بالمتخيل ، والحدث التاريخي المستقر من أمهات المراجع القديمة والحديثة

، مع الرمز وشاعرية التناول وعمق التحليل العقلاني مع همس الوجدان الحالم ، ليقدم (محمد رسول الحرية) كعلم ورمز شامخ للبطولة الإنسانية الحاملة بالعدالة والدفاع عن كرامته وإنسانيته .

إنه يقوم ويبرز ظهور الإسلام ليس كدين سماوي فقط ، بل كثورة اجتماعية شاملة تجتث جذور التدني . ويكشف عن إرهاصات مهدت لظهور الرسول ودعوته تبناها بعض أبناء مكة الذين تمردوا على عبادة الأصنام . ولقد سافر الرسول صلي الله عليه و سلم في رحلات تجارية إلى الشام واليمن والتقى بالأحبار والكهان واستمع لهم واعتزال الأصنام ، وفكر في خلق السماوات والأرمن ، لذلك كان طبيعيًا أن يحقق قيمًات ومثلاً عالية ..

الترجمة

ينزع الإنسان بفطرته إلى كشف المجهول ، فإن وفق في ذلك لذله أن يطلع عليه غيره من الناس ، والترجمة تدخل في هذا الباب ، قبل أن تكون وسيلة رزق أو تنمية للفكر ، أو غير ذلك من أغراض .. وقد أهتم المسلمون الأوائل اهتمامًا بالغا بترجمة التراث اليوناني منذ القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) ، ونشاط المترجمين في نقله منذ مطلع العصر العباسي ، وأهل السنة اليوم لا يعارضون علوم الأوائل ولا يرون غضاضة في تدريس بعضها في الأزهر الشريف ، ويحرصون على أن تقدم مجلة الأزهر ترجمة إنجليزية لبعض موادها ليقرأها من لا يعرف العربية .

يشهد استقراء تاريخ النهضات بأن الأمم حين تهم بالنهوض والتيقظ بعد سبات ، تتلفت إلى ماضيها ، وتعلم على إحيائه . وتزيد فتتصل بالأمم ذات الحضارات وتترجم ماضيها وحاضرها معًا .

هكذا فعل العرب المسلمون إبان يقظتهم في عصر الإسلام الذهبي أيام بني العباس . وهكذا فعلت أوربا في عصر النهضة التي بدأت بالعصر المدرسي وبلغت ذروتها إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر لميلاد المسيح .

وهكذا ندرك أن الترجمة أسلوب عملي سريع لبث المعرفة الإنسانية في عالمنا ، ونحن اليوم نواجه تحديثات وصراعات خطيرة ، واتهامات وإساءات لديننا الحنيف ، وعلينا أن نواجه ذلك كله عن طريق الترجمة للذين لا يعرفون العربية بحقيقة ديننا وإظهاره بثوبه الناصع بعيدًا عن المعتقدات التي يؤمن بها البعض في جهل وبعد عن الواقع ، وقد أقمنا جهازًا لا بأس به للترجمة لمسايرة التيارات الفكرية المعاصرة ، وعلينا أيضًا أن يكون لنا دور فعال في توضيح صورة الإسلام المشرقة للعالم ، وبغير الترجمة ستوجد في مجتمعنا طبقة ارستقراطية تتصل بثقافات الغربيين ، وتنعزل عن سائر طبقات المجتمع ، ونترك الغرب يجتز أفكار سيئة عن العرب وعن المسلمين مقطوعة الصلة عن عالمهم وطبيعتهم ..

ولابد للمترجمين أن يجيدوا اللغة التي ينقلون عنها إجادتهم للفئة التي ينقلون إليها وبالعكس ، مع إلمامهم التام بموضوعات ترجماتهم ، مع التزام الدقة وتوخي الأمانة فيما يترجمون .. ونحن نعرف أن المسلمين حين أوغلوا في الحضارة في العصر العباسي ، كانت حضارتهم هذه تستند إلى العلم ، فالتمسوه عند أهله من أصحاب الحضارات ، وأن الحركة الدينية قد بلغت في آخر العهد الأموي شاءوا بعيدًا ، فتكلم المسلمون في كل شيء ، وثار الجدل بينهم وبين غيرهم من أصحاب الديانات ، وتساءلت العلوم إلى المسلمين مع اتساع الفتوحات الإسلامية ، فشجعوا المترجمين على نقلها إلى لغة الضاد .. وأنتقل إلى تراثنا العربي الإسلامي تراث الأمم القديمة المتحضرة ، واتصلت هذه الروافد كلها بتراثنا الأصيل وتفاعلت معه في ضوء خبرات العرب الحسية ، وتأملاتهم العقلية ، وكان منها ذلك التراث العلمي الحافل بوجوده الأصالة والابتكار .

فإذا كان هذا ما يطلعنا التاريخ عليه من حركات الترجمة ، وبين لنا ما لهذه الترجمات من أثر ، فإن ذلك يدفعنا إلى تنشيط ترجمة إسلامنا لكي يطلع عليه الغرب ، ولكي نبرأ من التهم التي ألصقت بديننا ، بل بكل من يعتنق الإسلام ، وهنا تتضح قيمة الترجمة في تغيير وجه المجتمع الحضاري ، ومن أجل ذلك تنشأ مراكز للترجمة ، ولابد أن تزود بميزانية ضخمة تتسع لكل احتياجاته ، وأن تقوم الدولة بدعم الكتب المترجمة ، وأن نكون هناك فروع الديون الترجمة ، وأن يكفل للمترجمين راحة البال ، وطمأنينة النفس وحرية التعبير مع مكافأتهم بسخاء ، وإنشاء معاهد وأقسام مستقلة للترجمة في كليات الآداب والمعاهد المماثلة ..

ومتى أحسنا اختيار ما نقوم بترجمته ونقله للآخرين ، ووفقنا إلى تبصيرهم بمالنا وواقعنا ، وتقديم ما يزيل اللبس والشبهات بالصورة اللائقة والموحية ، أمكننا أن نتحاور معهم وأن نقتحم أفكارهم بما لا يفسر للود قضية ، وأن نغير وجه الصورة التي أساءت إلينا ..

إن التطوير أو التجديد في الخطاب وتحديثه لا يمس الثوابت والمقدسات ، ويكون هذا التحديث بناء على احتياج حقيقي للأمة ، لا كرد فعل لضغوط خارجية ، أو مجاراة لشعارات ترفعها أي قوى لتحقيق مكاسب من أي نوع ، فالتطوير المطلوب إنما يعني بتيسير طرح المضمون ، وبمناقشة متطلبات العصر ، وبتقديم حلول للناس ، ورؤية متطورة للخطاب الديني تؤكد أهمية إعمال العقل والاجتهاد ، وإفشاء المحبة والسلام والتسامح ..

إن التجديد أصبح ضرورة للجميع بعيدًا عن التعصب والفكر المتعلق ، مؤكدًا على العمل الصالح والبعد عن المفاسد والتنافس على العمل حجر الزاوية في أي مجال ، والتركيز على عبادة الله الواحد ، والإيمان بالثواب والعقاب ، والجنة والنار والملائكة ، فلا تعصب ولا اقتتال ولا استغراق في قضايا أخلاقية ، يحول بيننا وبين ملاحقة التطور والابتكار .

وما يحدث الآن من محاولات إساءة للإسلام إنما هي حجة على تابعيها لأعلى الإسلام نفسه الذي لا يقر في آياته ، ولا سنته ما ينسب إليه الآن ، وعندما منح أول صك للاعتراف بالآخر عندما منح محمد ـ صلى الله عليه

و سلم - يهود المدينة حق إقامة شعائرهم بالقرب من مسجد الرسول ، وكما أشرنا إلى هذه الوثيقة التي محت الفوارق بين المسلمين وغيرهم ، فلا خلط بين الحضارة المتغيرة وثوابت الأديان ، وأن أرضية العمل ، والمشاركة بين الأديان هي القيم المشتركة التي تهدف لتحقيق الخير للبشرية .

إن الاجتهاد وتطوير الخطاب وتحديثه فرائض مطلوبة لتجديد حياتنا ، واستعادة خصائص ثقافتنا مميزاتها لكيلا تصبح على حد تعبير دكتور محسن عمارة - " فريسة لعلماء لا قلوب لهم ، أو دراويش لا عقول لهم " أو طائفة المنتفعين من الجانبين .

وعلى أثر الهجمة الضاربة على الإسلام في القديم ، قدمت نماذج طيبة للخطاب الديني ، سواء ف يتناول السيرة النبوية ، أو في أعمال المجددين في الإسلام قديمًا ، أو اجتهادات المفكرين المحدثين ، أو في مشروع إعادة كتاب التاريخ الإسلامي من النواحي الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية بالأسلوب العلمي الحديث . وكل هذه الأعمال وغيرها كانت بلغة عربية موجهة أصلاً للقراء العرب ، وأنها في تناولها للمادة الإسلامية حرصت على الحفاظ على جوهر هذا الدين وتعاليمه التي لا تمس القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف .

لقد كان الهدف من هذه الأعمال هو أن تكتب المادة الإسلامية بأسلوب ميسر بسيط يقبل عليه القارئ العربي أو المتلقي ، بدلاً من أن يقبل على غيرها من كتابات أجنبية لا تقدم الإسلام في صورته الحقيقية ، التي تعتمد أساسًا على الدقة سواء للعرب ، أو لمواطنيهم من الأجانب .

هل يمكن أن ننقل للقارئ الأجنبي هذه القيم والمبادئ الإسلامية الحقيقية عن طريق ترجمتها إلى الفئة ، تصحيحًا لمفاهيمه التي حملتها إليه كتابات غير العرب . لقد قدم الخطاب الديني على نحو يقبل عليه ويهرع إليه زمانهم من القراءة بلغة عربية ، وقدمت مبادئ وقيم الإسلام الحقيقية دون زيادة أو نقصان بصورة عصرية تقنع القارئ المعامر ، ويجعله يفضلها على مثيلاتها من الكتابات الأجنبية من أخطاء وإدعاءات وأفكار مقرضة إن بقصد أو بغير قصد .. ولعل المؤسسات والهيئات والمراكز العلمية والثقافية إلى جانب الدينية من الأقطار العربية والإسلامية تقوم بنقل هذه الأفكار إلى القارئ الأجنبي ، كي يعرف ما يزخر به الإسلام من قيم ومبادئ هي خير مدافع عنه ضد أباطيل وافتراءات خصومة ، هؤلاء الذين لا يكفون عن توجيه الاتهامات الظالمة إليه بسبب أو بغير سبب .

لماذا لا تنقل هذه الأفكار التي تنفق جميعًا على صلاحيتها للترجمة ؟ وما تزخر به من رصيد لقيم ومبادئ الإسلام ، أ لأننا لم نجد ما يسمعنا من لفتنا عن هذه القيم والمبادئ ، فالعيب في لفتنا ؟ أم العيب فيمن يقومون بالترجمة إلى اللغات الأخرى ، فقلما نجد من يترجم هذا الرصيد إلى لغات أوسع انتشارًا ؟ وهل يطلب أن تترجم هذه المبادئ والقيم الإسلامية العظيمة - التي تتضمنها هذه الكتابات والأفكار لعلمائنا ومفكرينا - إلى اللغات الأخرى - وأنه لا مناحي من أن نفعل ذلك ، على الرغم من أن الطبيعي أن ينقل عنا الراغبون فينا ، ما ننقله نحن عن أنفسنا ، كما هو الحال دائمًا في حركات النقل الثقافي .

لابد أن نقدم خطابنا بلغات أخرى ، ونفتح خزائننا الفكرية بأيدينا الأمينة الواعية ، بما فيها من مبادئ عظيمة ، وقيم رفيعة ، وبهذا الأسلوب نحفظها من العبث والتطاول ، فليس هناك من هو أصلح على المحافظة على هذا الخطاب الديني أكثر منا كأصحابه .

إن هناك من الأجانب من تهمة الثقافة الإسلامية ، وما تحويه من فكر ثاقب ، وخير عميم يتضمنها خطابها الديني ، ويسعى جاهدًا إلى تحصيل هذه الثقافة الإسلامية بشكل أو بآخر ، خاصة من هذه الفترة التي يهاجم فيها الإسلام ، وتلصق به شتى الاتهامات والافتراءات .

إن هذه الفترة التي يطالب العقل فيها كل ذي لب ، بالتعرف على الإسلام وقيمه ومبادئه ، وأن نعرفه بها بلغته فليس له مرجع إلا ما يكتبه مواطنوه من الكتاب والأدباء الأجانب ، الذين لا يعرفون العربية وأسرارها ومواطنها وبواطنها بحيث يحق لهم الوصول إلى الغاية ، وإلى الحقيقة ، ولو تمكن من التعرف على اللغة وأسرارها فلا يستطيع أن يصل إلى أبعادها ومراميها الرمزية ، وأعماقها التعبيرية ، فاللغة ذات إمكانات كثيرة غنية عن التعريف . لقد كان من الممكن الاكتفاء بما قدمه ويقدمه هؤلاء الكتاب والأدباء الأجانب إلى أقوالهم في لغاتهم ، وذلك فيما لو أنصفوا ، وتناولوا الحقائق بما يليق من القداسة الفكرية ، والدقة العلمية ، والتنزه عن الغرض .

يجب أن تتضمن ترجمة خطابنا الديني أهميته بالحياة الدنيا ، اهتمامه بالحياة الآخرة من قوله تعالى : "وأبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا " وقول النبي صلى الله عليه و سلم : " ليس خيركم من ترك الدنيا للأخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه " ، وعلى هذا الأساس فالإسلام تتداخل فيه الحياة الدنيا بالحياة الآخرة تداخلاً يجعلها كلا لا ينفصل . هذا الكل ينتج عنه توازن يحققه الإسلام بين الروح والمادة ، بين المثالية والواقعية .. إلى درجة أن فلاسفة الإسلام يحكمون على أن الإسلام مثالي في واقعيته ، واقعي في مثاليته .

هذا التوازن الواضح بين الروح والمادة في الإسلام هو الذي جعل الحضارة الإسلامية متميزة عن غيرها من الحضارات ، فلم يطغ الجانب المادي على الجانب الروحي ، متى يصبغ الروحنيات بصبغته على نحو ما هو معروف في الحضارة القريبة قديمها وحديثها ، ولم يطغ الجانب الروحي على الجانب المادي بصبغته على نحو ما

هو معروف في بعض حضارات الشرق القديم ، بل حرص الإسلام على هذا التوازن بين الإثنين ، بشكل يجعل المهتمين بدراسة الحضارات يذهبون إلى القول إن الإسلام من زاوية حضارية قد صبغ الحضارة بصبغة مميزة ، وطابع فريد لم يتيسر لأي من الحضارات قديمها أو حديثها .

لقد حقق هذا التوازن بين الدين والحياة عند المسلمين في قيم ومبادئ منها تعظيمهم لدور العقل وإيمانهم بقيمة الفكر ، وتقديرهم للعلم ورؤيتهم للعمل ، ورفضهم لأساليب الإرهاب وتحديهم لألوان العنف ، وأخلاقياتهم في الحرب والسلام ، ومعاملاتهم الطيبة لغير المسلمين ، وطريقتهم في التربية والتعليم ، وممارستهم للسياسة والحكم إلى آخر هذه القيم التي تميز بها الإسلام عن غيره من الديانات .

لقد بلغ تعظيم العقل في الإسلام وتقديره حدا جعل أئمة هذا الدين يعتبرون هذا العقل واحدا من دعامتين قام عليها الإسلام هما العقل والعمل ، فالإنسان وقد أتاه خالقه عز وجل عقلا به يفكر ويدبر ، فيدرك ويعرف من وراء إدراكه ومعرفته ، يتحرك شعوره وانفعاله ، فيرضى عن الشيء الطيب ، ويعزف ويعرض عن الشيء الخبيث ، فإذا هو يمضي في طريق ما ارتضاه من عقائد وقيم ومبادئ يتمسك بها ، ويطبقها ، وهذا بعينه هو العمل ، والقرآن الكريم كما يذكر الأستاذ العقاد : " لا يذرك العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل والرجوع إليه ، ولا تأتي إلى هذا العقل عارضة في سياق الآيات ، بل هي تأتي في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن إلى تحكيم عقله ، أو يلام فيها المسلم على إهمال ذلك الفعل .

والإسلام الذي عظم العقل ، عظم أيضًا عمل هذا العقل وهو التفكير ، فرحب به ترحيبًا بالغًا ، أمرًا يلحظه الذين يحصون عدد الآيات التي تشير إلى التفكير ، كما يلحظون أن هذه الآيات القرآنية لا نكتفي بمجرد توجيه الإنسان إلى التفكير في شيء من العمق ، وبعد النظر فحسب ، بل أنه يرمي إلى أبعد من ذلك حيث يوصف الذين لا يفكرون بعدم التعقل تارة أو عدم التبصر تارة أخرى . ودون هنا يتضح أن القرآن الكريم هو أول كتاب سماوي جعل التفكير فريضة على أتباعه .

إن أول أمر نزل من السماء ، هو الأمر الصريح بالعلم في قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم " كما تتضح مكانة العلماء من القرآن الكريم في قوله تعالى : " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " وقوله تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات " .

وعن رؤية الإسلام الواعية لقيمة العمل ، بلغ عدد الآيات القرآنية التي تدعو إلى العمل كما يسجل المفكر الإسلامي عبد الرازق نوفل " ٣٥٨ آية كلها تمجيد للعمل وتعظيم لمكانته ، ودعوة إلى ممارسته " وقد بلغ الاهتمام بقيمة العمل في الإسلام أن جعله القرآن أساس الخبراء وميزان التقدير في قوله تعالى : " فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحًا ولا يشكر بعبادة ربه أصرًا " وقوله تعالى : " إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً " ، ومن نافلة القول أن يكون العلامة ابن خلدون ، وهو من مفكري الإسلام ، هو صاحب نظرية قيمة العمل .. التي تأثرت بها كتابات العلماء الأجانب .

وعن ممارسات المسلمين الأوائل للسياسة ، قامت الدولة الإسلامية ، كما يقرر الدكتور مصطفى كمال وصفي - على ثلاثة أسس - أولها قيام السياسة الإسلامية على العدل ، في معاملاتها مع غير المسلمين ، وثاني هذه الأسس هو الالتزام بقواعد القانون الدولي كقانون داخلي ، والأساس الثالث في النظرية السياسية الإسلام هو التقيد بما تفرضه العلاقات الدولية كقوله تعالى ك " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " وقول النبي صلي الله عليه و سلم ؛ " المؤمنون عند شروطهم " .

وعن نظام الحكم في الإسلام يقول الدكتور إبراهيم بيومي مدكور : " مما لا شك فيه أن القرآن الكريم لم يأت بنظام معين من أنظمة الحكم ، وإنما وضع مبادئ عامة تصلح لكل زمان ومكان منها الشورى والعدالة والحرية والمساواة .. وفي عمومها ، ما أكسبها مرونة تفسح المجال للتطور والتجديد في نظام الحكم بعد ذلك " .

وأما عن معاملة غير المسمين ، فالإسلام منذ ظهوره كانت تربطه صلات تواد ورحمة وحس جوار ، وأعتبرهم والمسلمين شركاء في الوطن الواحد ، والنبي عيسى عليه السلام بشر بمجيء أخيه محمد صلي الله عليه و سلم ، وعمل الاثنان من أجل الإنسان والحياة ، أو كما عبر المفكر الراحل خالد محمد خالد " أنه فوق أرض فلسطين شهد التاريخ يومًا إنسانًا شامخ النفس مستقيم الضمير ، هو المسيح عليه السلام بلغ الإنسان في تقديري الغاية التي جعلته ينعت نفسه بأنه ابن الإنسان .. ومن بعده بستمائة عام تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنسانًا أخر هو محمد صلي الله عليه و سلم ، الذي ما كاد يسألونه عن أفضل الأعمال وأنقاها حتى يجيب تحقيق السلام للعالم ، وأن يعيشوا مسلمين ومسيحيين عباد الله إخوانًا " .

وكما يسجل الدكتور عبد الحميد متولي كبتاه - نظام الحكم في الإسلام - أن الإسلام يسوي بين المسلمين والمسيحيين في كثير من الشئون .. فهو يكفل لم حريتهم الشخصية وحرية إبداء الرأي والعقيدة ، وحرية إقامة الشعائر ، كما يكفل حماية أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ونشاطهم ، ويؤمنهم ضد العوز والحاجة ، ويسوي بينهم وبين المسلمين في حق الملكية ، وتولي الوظائف العليا وغيرها من الأصول الإسلامية التي تعيرها هذا الدين .

هذه المبادئ التي تميز بها الإسلام ينبغي أن يتضمنها خطابنا الديني موجه للأجانب بلغاتهم حتى يعرفوا الوجه الحقيقي والصحيح للإسلام .

وإذا كان العق الغربي الحداثي يعتقد أنه قد " أنجز " تجديد خطابه الديني وانتهى من ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر (أي في عصر الإصلاح الديني البروتستانتي ، والإصلاح المضاد الكاثوليكي) .

ويعتقد أيضًا أن خطابه الفلسفي لا يكف عن التجديد ، واقتحام مختلف التجديدات - المعنوية المجردة أو المادية المجسدة ، إذا كان هذا هو ما يعتقده العقل الغربي عن نفسه ، واقتحام مختلف التجديدات - المعنوية المجردة أو المادية المجسدة إذا كان هو ما يعتقده العقل الغربي عن نفسه ، فإن السائد عندنا هو توهم أن الدعوة إلى تجديد خطابنا الديني ، والفكري بشكل عام ، لم تبدأ إلا في السنوات الأخيرة مع تصاعد موجه التطرف المتعصب التي نجحت في نشر العنف الإرهابي متسترة وراء شعارات ذات صياغة دينية تقليدية ، ولكن الحقيقة قد تكون هي العكس في الحالتين .

فالخطاب الديني الغربي (الكاثوليكي الموحد ، والبروتستانتي المتعدد ، بحكم وحدة أو تعدد الكنائس) لم يتوقف عن تجديد نفسه ، بل يواصل هذا التجديد فيما يتعلق بالمسائل الدنيوية العملية طبقًا لنوع الاستجابة التي تفرضها عليه مستجدات الواقع الاجتماعي في المجتمعات الغربية نفسها (من مسألة الطلاق أو الإجهاض أو الأطفال غير الشرعيين حتى الموقف من اليهود أو الشواذ ، أو العلاقات بين الاعراق والأجناس ..) وذلك دون أن يعلن أو يؤكد بشكل علني تخليه عن معتقدات جزئية مختلفة - مما يسميها الفكر المعاصر " سرديات " جمعت الناس ووحدتهم - وجدانيًا ، أو نفسيًا وذهنيًا على مدى عصور طويلة ، مثل المعتقدات الخاصة بالكأس المقدس والبحث عنه ، أو اليهود المنتظر عودة السيد المسيح ، أو هذه العودة نفسها - وشرط تجمع اليهود في الأراضي المقدسة لكي تتحقق ..

أما الخطاب الديني الإسلامي فإن تجديده - بالعودة إلى الأصول الأولى واجتهادات الأئمة الأوائل ، أو بإعادة تأكيد ضرورة الاجتهاد الجديد - ربما تكون قد بدأت ولم تتوقف ، خاصة في العالم العربي منذ منتصف القرن الثامن عشر ..

وإذا كان الخطاب الفلسفي الغربي لم يكف عن التجدد خلال القرون الممتدة من عصر الإنسانيين في القرن السادس عشر إلى عصر التفكيك وما بعد الحداثة من ناحية ، والنقد المنهجي والمراجعة الاجتماعية من ناحية ثانية ، والنزعة اللغوية البيولوجية من ناحية ثالثة منذ أواخر القرن العشرين .. فإن هذا الخطاب في الحقيقة يمتلئ بالتراجعات ، أو بالالتواءات نحو الوراء ، أو نحو الماضي ، مما يشير إلى وجود نزعات سلفية واضحة ، وهي ظاهرة أنشغل بها مفكرون غربيون مهمون .. كما يمتلئ هذا الخطاب الفلسفي الغربي المعاصر بعلامات الفقر فوق الحقائق الفعلية المعاينة - الاجتماعية / الثقافية / العلمية / والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية بهدف فرض تصورات ذهنية شديدة التجريد على الواقع - وهي ظاهرة أخرى أشعلت في الغرب نقاشات ومحاولات حادة بين فلاسفة التيارات والنزعات الثلاث : التفكيك وما بعد الحداثة ، والنقد ، واللغوية البيولوجية .

وقد تكون في تحديد دلالة هذا التعارض في معنى تجديد الخطاب الفلسفي " الغربي ، ما يدل على التفاعل الدائم بين مكونات هذا الخطاب ، أي تياراته واتجاهاته أو مدارسه أو مراحله ..

وهذا ينطبق بالمعنى ذاته على الخطاب الفكري (الفلسفي) المصري والعربي ، لولا ما يبدو عليه من جمود متفلفل من إنتاج غالبية المتخصصين ، جمود يرجع إلى أن أكثر التيارات المشهورة ليست كلها أو أكثرها من الإنتاج المباشر للواقع " الاجتماعي الثقافي / المعرفي " المحلي المعاصر ولحركة هذا الواقع ، وإنما هي نتاج الاستعارة من الخارج أو من الأسلاف وتأويل ما تجري استعارته حسب الفهم أو حسب الحاجة .

غير أن موضوع تجديد خطابنا الديني أو الفكري الخاص ، يمكن تأجيله إلى ما بعد فحصنا لمسألة تجديد الخطاب الغربي الفلسفي ، بشكل خاص .. (هذا ما تقوله الأستاذة جيوفا نابورا دوري من كتابها " الفلسفة في زمن الإرهاب " وما يقوله لها اثنان من أكبر عقول الغر ب الفلسفية المعاصرة : يورجين ها برمناس ، الألماني ، وجاك ديريدا الفرنسي) .

الاهتمام بتنشيط حركة الترجمة للخطاب الديني إلى جميع اللغات أصبح ضرورة لملاحقة الأحداث الجارية ، وإبراز العناصر الحضارية للآخر - هكذا قال الدكتور محمد أبو ليلة - وأضاف أن أحد ملامح تطوير الخطاب الديني في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية من التعصب إلى الموعظة الحسنة ، وأخذ مواقع على الانترنت للرد على الشبهات يكشف جوهر الإسلام للآخر ، مع الاستعانة بالكتب والنشرات عند الدعوة في بيئة غير إسلامية بعد دراسة أحوال الأقليات الإسلامية في بلاد العالم للإلمام بأحوال البلاد ، ونجبن الخوض في أمور تثير الحساسيات الدينية ، بل لابد م احترام الآخر حضارته ودينه ، بل لابد من احترام الآخر حضارته ودينه ، وأن يكون الخطاب الديني صادرًا عن عالم بالعلوم الحديثة ليربط الدين بالدنيا ..

إن الخطاب الديني يرتبط بالأحداث الجارية ، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم . وقد طرأت على الأمة الإسلامية أحداث تطلبت وجود حوار بناء يتسم بالعقلانية والتعمق ، وليس بالإثارة واسترجاع الماضي ، أو إثارة المشاعر عن المسلمين تجاه الآخر ، فمحاولة شحن الخطاب الديني بالاتهامات وإلقاء اللوم لن تجدي ، بل الوقت

الحالي يحتاج إلى تقديم تفسيرات صحيحة واضحة للمستجدات مهما تكن قسوتها على العرب ، وما يحدث اليوم من هجوم على الإسلام ، والتخويف من التعامل مع المسلمين ، كلها أمور تحتاج إلى أسلوب للخطاب الديني دون أن تكون معصوبة العينين ، فنعطي حجمًا للآخرين غير حجمهم ، أو نولنهم بألوان وفق أهوائنا ، وحتى لا يتخلف الحوار مع الآخر عن دوره الأساسي ألا يجنح الخطاب إلى التهويل ، أو المباراة اللفظية ، والخطب النهجية عبر أجهزة الإعلام ، فالآخر يدرس نفسية المسلمين جيدًا ، ويجب أن نكون على قدر مفردات العصر الحديث ، وتفوق من نخاطبه ، والقرآن الكريم علمنا كيف يكون الخطاب الديني وتنوعاته ، ويبرز هنا دور الدعاة في تعزيز المفاهيم الإسلامية ، والنهوض بقيم الحق والعدل والمساواة لإيقاظ القوى الروحية والأخلاقية التي فطر الله الناس عليها حتى عند الآخر ، وتقوية المنهج التسامحي .

إن دور الخطاب الديني اليوم مؤثر وفعال في إرساء الثوابت الوطنية والدينية ، و الأمة الإسلامية في حاجة لتعبئة نفسية ودينية لا يحققها إلا خطاب ديني معاصر مواكب للأحداث بعيدًا عن الغلو والتطرف ، بل اتزان وحكمة كما أمرنا الله . فالإسلام أصبح هدفًا لكثير من الأعداء ، وصارت الأحداث مؤكدة أن العداء السياسي أساسه العداء الديني ، ولم يتورع مهاجموه أن يستخدموا كل الوسائل المادية والمفتوية برغم أن حقيقة الإسلام واضحة وضوح الشمس ، ولا ذنب لنا أن هناك من يغمض عينيه عنها ، وآن الأوان لأن يشكل ملامح الخطاب الديني مع الآخر صفوة مفكري الإسلام ليتم تطويره ليصبح أقدر على تغيير الاتجاهات و إثراء الحياة .

إن كل شيء حول الدعوة الإسلامية ومنهجها وأسلوبها لابد أن يعد النظر فيه كي يواجه الخطاب الديني الأحداث التي تمر على الأمة الإسلامية التي لابد من النهوض بها ، وتخطيها الأزمات بخطاب يواكب المتغيرات المتلاحقة .

ومع ثورة الاتصالات والمعلومات التي فاقت كل التوقعات يجب ألا يكون الحوار مع الغير متجاهلاً كل متغيرات العصر ، وذلك يدعو إلى ضرورة الارتقاء بمن يوجهون الخطاب الديني ، ومعرفتهم باللغات الأجنبية لمقابلة آراء الآخر بعقل وحكمه وأمانة والتزام بثوابت الدين ، ومطابقة الكلام المقتضي الحال لتنوير العقول وتزكية النفوس ، ومن المؤكد - الذي يؤسف له - أن الخطاب الديني لم يقدم للإنسان المعاصر ، ولا للأسرة الإنسانية والعالم أجمع الحلول لمشكلات العصر ، ولذلك يجب أن يركز الحوار على القيم الإسلامية بالترغيب لا الترهيب والتخويف ، واستخدام العقل والعلم في توضيح الفهم المتكامل للدين ، والبعد عن ترديد الآراء المكررة في الحديث عن الديمقراطية ، ووضع المرأة المسلمة ، فالبعض يجعل المقاصد الشرعية غافلين أن الشرائع وضعت لصالح العباد منذ جاء الدين الإسلامي .

ولابد من إدراك المخاطبين للآخر أن احترامه واجب فالدين مهما يختلف لله وحده ، والهجوم على الآخر يعني الانعزالية عن حركة التقدم الكونية بل مواجهته ، فالمستقبل سيعتمد على مدى إيجابية المسلمين مع الحياة ، وجديتهم نحو الإصلاح ، وقبل إلقاء اللوم على الآخر في جراءته على الهيمنة لابد من اللحاق بالمستقبليات الممكنة .

يجب أن يكون هناك خطاب ديني جديد يعبر عن أبعاد عبقرية الحضارة الإسلامية في توازنها بين التقدم في ميدان القيم والوعي الإنساني ، والتقدم المادي من خلال الحرص على تلبية متطلبات النفس والعقل والروح .. غير غافلة تربية العلاقات الدولية واحترام الآخر مراعية عنصر الزمان والمكان .. لقد تخاذل المسلمون أنفسهم ، وتخلفت أمة (اقرأ) عن التعليم ، وتوقف الاجتهاد ، وعجز المسلمون عن مسايرة الزمن ، وتقديم الحلول لمشكلاتهم المعاصرة مما أتاح لهبوب رياح الغرب في صورة تهديدات أو استيلاء على أرض ليست من حقهم ، وأيضًا هجوم على الإسلام ، وتواري الخير ، وذهبت الطمأنينة ، وأبيحت الدماء تحت شعار الحريات ، وتهيمن القوة تحت شعار الديمقراطية ، وبذلك تتعامل العقلية المتآمرة مع العالم الإسلامي .. الأمر الذي يدعو إلى حوار المسلمين مع إتباع الأديان الأخرى يهدف إلى جمع الناس في مناطق فهم مشتركة ، فالأديان السماوية كلها من مصدر واحد ، وأسسها الأخلاقية تكاد تكون واحدة إلا ما صرف منها ، ولا يوجد ما يمنع من الحوار مع الآخر ، فالرسول صلي الله عليه و سلم ، حاور اليهود في المدينة وكذلك مشركي قريش وكاتبهم ، والقرآن الكريم حدد قواعد الحوار مع الآخر ، ومن أولتنا من القرآن والسنة يمكن أن تكون لنا حجة قوية لاتهاب أهل الأديان والفلسفات الأخرى ، ولا يعني الحوار تقديم تنازلات ، ولا التخلي عن أسس وثوابت الدين الإسلامي لأنها أساس الخطاب الديني .

المؤتمرات والندوات

إن الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني لا تتوقف ، ولا تكف المؤتمرات والندوات والمطالبات للمسلمين بتحديد خطابهم سواء داخليًا أو خارجيًا ، ولكن كيف يكون هذا التجديد ؟

يقول الدكتور مراد هوفمان ، المفكر الألماني ، المسلم الذي أعتنق الإسلام منذ عام ١٩٨٠ أثناء عمله في السلك الدبلوماسي الذي أمتد لأكثر من ثلاثين عامًا ، ويعمل الآن مستشارًا في المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا ، يقول : إن نوعية الخطاب في حاجة ماسة للتغيير .. فللأسف ، تحول المسلمون - كما يقول - لمجرد وارثين للإسلام ، والتجديد يبدأ بأن تعيد الأجيال الجديدة قراءة القرآن الكريم باستمرار ، وتسعى دائمًا لتطبيقه على ما يستجد من أمور ، ويرى أن كل جيل جديد ، يجب أن يعيد اعتناقه للإسلام ، وهو ما يعني إعادة فهمه وقراءته للدين مرة أخرى .. وهذا يعني ألا نرث الدين ، بل يجب أن نمتلكه ونكتسبه عن جدارة .

ويستنكر د . هوفمان كثيرة عدد المؤتمرات التي تعقد لتجديد الخطاب .. مؤكد أن العلماء يقولون ويكررون نفسي الكلمات .. ويشير في تجربة عملية في ألمانيا وهولندا وفنلندا .. تعد نموذجًا للتجديد .. فلقد عقد مؤتمر لدراسة المناهج الدراسية الخاصة بالدين والجغرافيا والتاريخ الألماني لفحص ما جاء عن الإسلام ، وأوصوا دور الطباعة بتغيير الجزء الخاص بالإسلام ، لما يحويه من مغالطات كثيرة .. وفعلاً حدث التغيير .

ويتساءل : فلماذا لا يحدث هذا في أمريكا ، وبريطانيا ، وغيرهما من الدول ، مؤكدًا أن المنطق الراسخ في الغرب أن الإسلام مصدر تهديد وتخويف ، ولا يعرفون عنه سوى التطرف .. وهذه مفاهيم تتناقل عبر الأجيال المختلفة ، دون أن تجد مواجهة حقيقية ، كما يرى أن دعوة تجديد الخطاب الديني ، حتى تؤتي ثمارها يجب ألا تكون مركزية .. بل محلية .. فلا يمكن أن تنتشر دعوة هندية - مثلاً - في ألمانيا .. ويقول : كثيرًا ما تصلنا كتب من باكستان والهند مطبوعة بالإنجليزية ويكون التجليد شيئًا ، والكتابة مغلوطة والورق رديئًا .. فيؤدي إلى نتيجة عكسية ، وهي عزوف الناس عن القراءة وعن الإسلام .. وهذه .. كما يقول - هي نقطة الضعف الأساسية في الخطاب الإسلامي ، تجاه الغرب ، لذلك يجب أن تكون الدعوة محلية ، تخاطب الناس بلغتهم ، وتقرأ ثقافتهم وتعرف عاداتهم .

ويرى أن من وسائل تجديد الخطاب الديني ، ما قام به مسلمو ألمانيا أخيرًا ، ففي الثالث من أكتوبر من كل عام .. وهو عيد قومي .. تفتح ٢٢٠٠ مسجد أبوابها لاستقبال غير المسلمين ، وجدت التجربة نجاحًا كبيرًا ، حيث دخل عدد كبير المساجد واختلفت رؤيتهم للإسلام .

وقد دأبت جامعة دمشق في السنوات الأخيرة على تنظيم مجموعة من الندوات والمؤتمرات الفكرية والثقافية والعلمية المختلفة ، التي تتدرج تحت عنوان التحديث ، كان آخرها ندوة (تجديد الخطاب الديني) التي انعقدت بالتعاون بين مركز الدراسات الإسلامية ومركز البحوث والدراسات الإستراتيجية بجامعة دمشق .

شارك في هذه الندوة عدد من أبرز الأساتذة الجامعيين والمفكرين والعلماء والمهتمين من سوريا ومصر ولبنان والمملكة العربية السعودية وفلسطين والخليج العربي .

وبمقدار أهمية موضوع (تجديد الخطاب الديني) واتصاله بمختلف جوانب الحياة السياسية الفكرية الثقافية ، والأسئلة المصيرية ، فإن أعمال الندوة عمومًا اتسمت بالجدية والانفتاح على ما هو جديد (أو متجدد) من أطروحات ، تحاول النظر إلى المشهد الفكري الديني ، ومضمرات الخطاب المتعلق به ، في تحولاته خلال القرنين الميلاديين المنصرفين ، على الأقل ، وعلاقته بالذات والآخر .

إن الخطاب الإسلامي مر بأطوار من التحول في علاقته بمفهوم التجديد ، بما يكشف عن المفارقات المعرفية ، والوضعيات التي كان عليها الخطاب الإسلامي ، ما بين بدايات القرن العشرين ، وبدايات القرن الواحد والعشرين ، كما تكشف عن ملامح التطور الثقافي في بنية وتكوينات الخطاب الإسلامي : فقد كان الخطاب الإسلامي يتعامل بمنطق الرفض والشك لمفهوم التجديد تفسر بخلفيات التآمر والانفلات والتخريب لفكر المسلمين وعقيدتهم وآدابهم ، إشارة إلى أن الغربيين هم من اخترعوا مفهوم التجديد ، وهم أول من تحدث عنه ، بعد انحلال الخلافة العثمانية .. وفهم من التجديد ألا يكون الإسلام عقبة في طريق تقبل النموذج الثقافي والقيمي الغربي .. وقد وردت أمثلة على عدد من الكتابات من طراز محاولة د . طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ ، و (مستقبل الثقافة في مصر) عام ١٩٣٨ ، ومحاولة الشيخ على عبد الرازق في كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) عام ١٩٢٥ ، ومحاولات د . زكي نجيب محمود في (خرافة الميتافيزيقيا) و د . مصطفى محمود في (الله والإنسان) ، وخالد محمد خالد في (من هنا نبدأ) .. إذ تم النظر إلى هذه المحاولات في سياق فهم التجديد باعتباره إقصاء للفكر الإسلامي .

ويرى البعض أنه بالرغم من تجاوز الخطاب الإسلامي للكثير من الالتباسات والهواجس والرواسب التي أحاطت بمفهوم التجديد ، إلا أنه ما زالت لدينا بعض البقايا ، خاصة لدى الخطاب الإسلامي السلفي تحديدًا ، كما عبر البعض عن ذلك حيث يروق أن مصطلح التجديد (يثير القلق والريبة والتوجس في نفوس المسلمين ، لأن

التيارات العلمانية استطاعت احتلاله ، وتعبئته بمضامين وتوجهات جعلته يرمز إلى تجاوز الشريعة وتخريب الدين .

ويقول آخرون : إن مشكلة الخطاب الديني في هذا الطور أنه كان متأثرًا بصدمة انهيار الخلافة العثمانية ، وصدمة تخلي الدولة العربية الحديثة ، في مرحلة ما بعد الاستعمار ، عن الهوية المرجعية الإسلامية ، حينما تبنت الدولة العربية الحديثة فكر العلمانية ، ولهذا لم يكن واردا الحديث في الطور الأول عن التجديد في داخل الخطاب الإسلامي ، ولا قبوله من خارج الخطاب الإسلامي .

والطور الثاني من أطوار التحول في علاقته بمفهوم التجديد ، من جهة والمخدرين من مخاطرة ، ومو زالقة من جهة أخرى .

وأما الطور الثالث : مرحلة الاندفاع نحو التجديد ، وتمت بسبب عوامل الصحوة واليقظة الإسلامي ، وتخلص الخطاب الإسلامي من ذهنيه الخوف على الهوية ، ومن الغزو الفكري والاختراق القيمي ، أو أنه في موقع الدفاع عن الذات . وفي هذا الطور حل تراكم معرفي حول مفهوم التجديد ، من خلال الكتابات والندوات والمؤتمرات والدوريات المتخصصة .. ومع ذلك فقد تعرض الخطاب الإسلامي إلى نكسة خطيرة مع ظهور بعض الحركات المتطرفة من خلال بعض الجماعات التي تؤمن بالعنف والتكفير .

وأخيرًا جاء بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، حيث ظهرت الأصولية التي تجاوزت في خطورتها عالم الأفكار والمفاهيم وتحولت إلى قوة تدميرية ، على مستوى الأشياء وعالم الإنسان .. ومصدر تهديد وخطر على مستوى العالم ، فوجد الخطاب الإسلامي نفسه أمام محنة شديدة تجاه ذاته ، وتجاه العالم .

وقد نظم المركز الثقافي المصري بطرابلس ندوة حول (تفعيل الفكر الإسلامي) تحدث فيها أمين النشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ودارت حول تجديد الخطاب الديني والتعليمي والتربوي والإعلامي ، وتجاوز مرحلة التوصيات والمقترحات والأفكار إلى الترجمة والتنفيذية في العالمين العربي والإسلامي ، وقد أكدت الندوة على حتمية إعادة قراءة ومراجعة صيغ الخطاب الثقافي ، ونظرية المعرفة العربية والإسلامية في ضوء المتغيرات الدولية ، ومتطلبات التحدي والمواجهة لأعباء المرحلة .

وقد تناول العلماء وأساتذة الجامعات سبل تطوير الخطاب مع الآخر ، للرد على اتهامات التي توجه ضد الإسلام ، وناقشوا الوضع الحالي للأمة الإسلامية ، وما يجب أن يكون بينها من تراحم أو ترابط .

وقد تنهل الواقع الإسلامي من خلال عدة محاور تتناول التعليم والمرأة ، وأنظمة الحكم ، مؤكدًا وجود عيوب في الخطاب الديني في كثير من الأحيان ، التي يستخدم فيها الأحاديث الضعيفة وعدوانية الخطاب ضد المرأة بشكل مفتعل ، والتركيز على الوعيد والتخويف والتنفير أكثر من التبشير ، وكلها سبل تعبد عن تحقيق الهدف ، كما أشير إلى تدهور الرسالة الإعلامية بسبب غياب الإستراتيجية والرسالة المحددة للخطاب مع الآخر ، وطولب بوضع إستراتيجية للإعلام الإسلامي تجمع بين المنظمات والمؤسسات الإسلامية لتجاوز مشكلة التشرذم الفكري .

وقد وضع في الاعتبار أهمية دور الدعاة ، ووسائل الإقناع لديهم ، واختيار الخريجين وتأهيلهم لقراءة المصادر التراثية ، ونشر المكتبات ، وذلك من أجل أن يكون الخطاب مع الآخرين محدد المعالم والاتجاهات . كما كان الحديث عن مشكلة انصراف الجمهور عن الثقافة ، وإصابة الأمة بقضايا الحرمان ونسيانها ما هو جوهري ، مع أن الرسالة الإسلامية تحمل كل الحلول التي يعانيها العالم الآن ..

نحن والعالم

وقد نادي كثيرون بالتجديد ، وهذا إحدى الأصوات التي تعالت وكتبت قائلة :

نحن في الحاجة إلى خطاب ديني جديد ، ومعنى ذلك أننا في حاجة إلى فقه جدير يمكننا من أن نعيش في هذه العصور الحديثة أعضاء وعاملين فيها ، تتمثل مبادئها ، ونؤمن بها ، ونلتزمها ، ونسهم في حضارتها ، ونتخلص من الشعور الراسخ في أعماقنا بأن هذه العصور ليست عصورنا ، وأن حضارته ليست حضارتنا ، وأننا مفتريون فيها ، مضطهدون ، وأننا أمام خيارين كلاهما قاس عنيف ، أن نلحق بها فنفقد أصالتنا ، ونتخلى عن ديننا وقيمنا ، ونخسر أنفسنا ، أو نتمسك تبرأ منا ، وننحاز لحضارتنا ، فنخرج من هذه العصور الحديثة ، أو تظل فيها غرباء مضطهدين ، لا نفهم لغتها ، ولا نخالط أهلها ، وربما استبد بنا الشعور بالقهر والاضطهاد وتفاقم ، حتى يدفعنا إلى اليأس من كل شيء ، والتضحية بكل شيء ، وإعلان الحرب على العصر والحضارة ، وهذا ما حدث بالفعل في الانقلابات السياسية التي مكنت بعض الجماعات الدينية من الوصول إلى السلطة في بعض البلاد وفي التنظيمات الإرهابية التي نمت نموًا سرطانيًا في معظم الأقطار العربية والإسلامية ، واستشرى خطرها فروعت العالم كله حتى شنت هجماتها على نيويورك واشنطن في عملية رمزية بدأ فيها أن المسلمين يشنون الحرب على عواصم الحضارة الحديثة وقلاعها الكبرى ، وربما كان هذا الزعم غير صحيح ، ولكن خيل للناس مما يحدث على الساحة ، ومما يثار من أقوال ..

لقد تأزمت علاقاتنا بالعالم حتى وصلت الأزمة إلى ذروتها فمن تماثيل بوذا في أفغانستان ، ويذبحوا السياح الأجانب في الأقصر ، ويميز نفسه عن الآخرين ، ويرفض الاندماج في المجتمعات الأوربية ، ويعتدي على معابد اليهود في تونس ، ويقتل مئات الاستراليين في بالي ، ويفجر مساكن الأمريكان في الرياض ، ويشن هجماته الانتحارية على نيويورك وواشنطن ، فيزهق آلاف الأرواح البريئة فهو من الذين يعلنون على العالم أنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام ، جهاد في سبيل الله وإعلاء لكلمته ، والإسلام منهم براء ، لقد أعطوا الفرصة للأعداء أن يسيئوا للإسلام ، وأن يفعلوا أضعاف ما يجري .

ومن الطبيعي أن يكون رد الفعل عنيفًا عنف الفعل ، وأن يتمثل فيما تعرض له المسلمون ، وما زالوا يتعرضون له في أنحاء العالم من مقاطعة وتمييز تعددت صورهما ، فالمسلمون يراقبون في مختلف أنحاء العالم ، ويطاردون ، ويعتدي على أشخاصهم ومساكنهم في الولايات المتحدة ، وهناك مفكرون غربيون يبشرون بصراع الحضارات ، ويتنبئون بحرب عالمية تشتعل بين المسلمين والغرب .

وها هي حكومة الولايات المتحدة تمثل لهذه النبوءة ، وتشن الحرب على أفغانستان والعراق ، وتهدد بشنها على إيران ، إلى جانب ما يحدث في فلسطين ولبنان وكذلك دارفور .

لابد إذن من مواجهة هذه الأزمة ، ومن إعادة النظر في خطابنا الديني الذي أوقفنا من العالم موقف الخصومة والعداء ، ويرد للقوى الاستعمارية والتيارات العنصرية في أوربا وأمريكا وإسرائيل أن تعلن علينا الحرب ، وتستخدم فيها ما يباح استخدامه وما لا يباح .

وبوسعنا أن نحدد مواقع الصدام بيننا وبين الحضارة الحديثة فيما يلي : - الحكومة الدينية ، وتطبيق الشريعة أو إقامة الحدود ، حقوق الإنسان ، ووضع الأقليات الدينية في المجتمعات الإسلامية ، ووضع المرأة المسلمة ، وعلاقة المسلمين بالمجتمعات الأخرى ، وبوسعنا أن نحمل هذا كله في مسألة واحدة جامعة هي العلمانية ، وفصل الدين عن الدولة .

العلمانية شرط لقيام الدولة الوطنية التي انفصلت تاريخيًا عن الدولة الدينية ، وقامت على أساس الأخوة الوطنية التي تجعل من أبناء الوطن الواحد مجتمعًا حرًا متضامنًا بحكم نفسه بنفسه ، ويتمتع كل فرد فيه بالحقوق التي يتمتع بها الجميع ، ويؤدي الواجبات التي يؤديها الجميع ، وهذا هو العقد الاجتماعي الذي تتمثل فيه الإرادة العامة ، والمصلحة المشتركة ، وتكون فيه الأمة مصدر السلطات .

ومعنى هذا أن يكون النظام السياسي ديمقراطيًا ، وأن تكون القوانين وضعية تترجم وتجسد المبادئ والمصالح التي قامت عليها الدولة الوطنية ، وهي حماية حرية المواطنين أفراد وجماعة ، وتحقيق الأمن والسعادة لهم جميعا على اختلاف دياناتهم ، وطبقاتهم الاجتماعية ، وليس في أي ركن من أركان الإسلام ، أو في أي نص أساسي من نصوصه ما يتعارض مع هذا المبدأ ..

الإسلام يخلو تمامًا من أي سلطة دينية ، وإقامة الشعائر الدينية الإسلامية لا تحتاج لأي وسيط كهنوتي ، والإسلام لم يأت بأي نظام سياسي ، وترك أمور الدنيا الاجتهادات العقل البشري ، مكتفيًا بإعلاء قيمة العدالة ، وقيمة الأخوة ، وقيمة المساواة ، اعتبر القلب المؤمن مرجعًا وحيدًا نحتكم له ، ونرضى بحكمه فيما لم ير د فيه نص .. ولا شك أن أمور الدنيا ، خاصة في هذه العصور الحديثة تقع كلها في الجانب المتروك لاجتهادات العقول ..

أما النظام أو بالأحرى النظم السياسية التي أتبعتها الدول الإسلامية في الماضي ، فهي نفسها النظم التي أتبعتها الدول المسيحية مع اختلافات غير جوهرية فرضها خلو الإسلام من السلطة الكهنوتية ، وقد أدى عدم وجود هذه السلطة إلى أن جميع الحكام المسلمون بين السلطة الأمنية والسلطة الدينية . وهذا ما فعله قبلهم أباطرة بيزنطة ، إذ كان الإمبراطور البيزنطي رأس الدولة ، ورأس الكنيسة الأرثوذكسية في وقت واحد .

لكن القراءة السائدة للنصوص الإسلامية ، وللتاريخ الإسلامي تبدأ من أن الإسلام ليس مجرد دين ، ولكنه دين ودولة ، ونظام كامل للحياة بجميع مجالاتها الروحية والعملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وربما بالغ الأصوليون ، وتطرفوا حتى وصلوا إلى حد الدعوة لأسلمة كل شيء في الحياة العامة والخاصة ، حتى العلم الذي أتفق البشر على أن نشاط ذهني إنساني لا وطن له ، ولا دين له .

هذه القراءة التي تنتمي للعصور الوسطى هي التي يجب علينا أن نعيد النظر فيها ، وأن نواجهها ونقاومها بقراءة جديدة أكثر موضوعية تتفق مع جوهر الإسلام ، وروح العصر الذي نعيش فيه ، وبعبارة أخرى يجب أن نتحرر من الخطاب الديني السائد ، لأنه خطاب قديم تجاوزه الزمن ، وأنه لا يعبر عن الإسلام تعبيرًا حقيقيًا ولا يتفق مع روحه ، ولأنه يحكم علينا باعتزال العالم ، وإعلان الحرب عليه ، فيجب أن نتحرر من هذا الخطاب ، وأن نصل إلى خطاب جديد ، أي إلى فقه جديد ..

لقد قام الخطاب الديني السائد على جملة من القواعد والمنطلقات منها تجريد النص من ملابساته العملية ووضعه خارج الحياة وخارج التاريخ ، ليتسلط على الناس من فوقهم ، دون أن يستجيب لحاجاتهم ، أو يتطور مع الزمن ، وهذا هو المعنى المفهوم من إغلاق باب الاجتهاد ، فالإغلاق يجمد النصوص والأخبار الدينية ، ويجعلها بمنأى عن أن تكون موضوعًا للتفكير والمناقشة ، ويمنعها من الدخول في أي حوار مع الواقع الحي ، لأنها في نظر الذين أغلقوا باب الاجتهاد نصوص كاملة مكتفية بنفسها تخاطب الواقع من فوق الواقع ولا تتحاور معه . أنها أوامر ونواه يجب على المسلمين أن يصدعوا بها ، ويذعنوا لها ، وليست إجابات عن أسئلة أو حلولا لمشكلات ، فالدنيا كلها لا تساوي جناح بعوضة كما يقول البعض ، والنص الديني سلطة علينا عليا لا يمكن أن تدخل في أي مساءلة ، وليس للمسلمين أن يبحثوا فيها عما يحقق مصالحهم ، أو يلبي حاجاتهم ، أو يؤكد صلتهم بالحياة ، أو يساعدهم على أن يتطوروا مع الزمن .

ولا شك أن إغلاق باب الاجتهاد في القرن الثالث الهجري كان سياسة اتبعها الحكام المسلمون وتواطأ معهم فيها فقهاؤهم الذين كانوا يعملون في خدمتهم ، فالإبقاء على باب الاجتهاد يظل مفتوحًا يشجع المسلمين على التفكير لأنفسهم ، ويحررهم من طغيان السلطة المطلقة ، والرأس الواحد ، ويسمح بالتعدد ، وهو شرط من شروط الحرية ، فنحن أحرار لأننا مختلفون ، وأن كلامنا يرى المسألة حيث ينظر . وإذن فمن حق كل منا أن يفكر لنفسه ولجماعته ، أما إغلاق باب الاجتهاد فهو القاعدة التي كان لابد منها حتى يقوم عليها نظام الطغيان في الدولة الإسلامية ، إذ لم يعد للحقيقة الدينية إلا مصدر واحد هو الأمير وفقهاؤه ، أو هم الفقهاء الذين يعملون في خدمة الأمير ، ويأتمرون بأمره دون أن يقعوا في تناقض لأنهم لا يتبعون إلا سلطة الدولة ولا يخدمون سيرا سواه ، على عكس رجل الدين المسيحي الذي كان يستطيع أن يتمرد على الدولة ويلجأ للكنيسة ، أو يعتصم بالدير ، وهكذا حول الحكام المسلمون الميزة التي أنفرد بها الإسلام وهو خلوه من السلطة الدينية إلى نقطة ضعف ، لأنهم اصطنعوا هيئات ومناصب دينية تتبع الدولة ، وتؤدي وظيفة السلطة الدينية دون أن تكون مستقلة عن السلطة الأمنية فعملها هو تبرير سياسة الحكم وإخراجها إخراجًا دينيًا .

والخطاب الديني السائد لا يكتفي بتجريد النص الأول الموحي به من مناسبته التاريخية وملابساته العملية ، بل يتبع هذه الخطة نفسها مع النص الثاني ، وهو التفسير أو الحكم الذي ينتهي إليه الفقهي في زمن معين ، وظرف معين على قدرة علمه واجتهاده . هذا النص البشري الخالص يتحول في الخطاب الديني السائد إلى نص مقدس ، وهذا هو المنطق الثاني في الخطاب الديني السائد الذي يرفع الفقه القديم إلى مستوى الوحي الذي لا يناقش ، ولا يعاد النظر فيه .. والخطاب الديني السائد لا يلتفت إلى الغاية من النص الديني ، ولا يهتدي بروحه ، وإنما يلتزم كلماته ، ويتبع معناه الحر في ، ظانًا أن هذا معنى الحر في هو مقصد الدين ، وأن أي اجتهاد جديد أو تأويل عصري يفرض ما هو بشرى على ما هو إلهي .

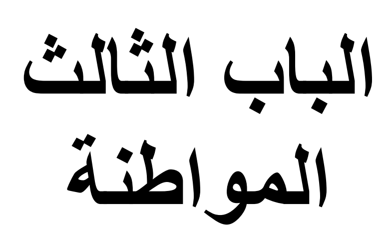
والحقيقة أن تنزيه الوحي ليس هو المقصود من هذه السياسة ، وإنما المقصود هو المحافظة على الأوضاع القائمة التي لابد أن تتأثر بإعادة النظر في فهمنا للنصوص الدينية ، وفتح باب الاجتهاد فيها من جديد .

فإذا كانت هذه هي المنطلقات التي يبدأ منها الخطاب الديني السائد ، فبوسعنا معرفة الطريق إلى الخطاب الديني الجديد .

أن تجديد الخطاب الديني يعني أن ننشئ فقها جديدًا للإسلام تنطلق فيه من أن : الإسلام دين لكل زمان ومكان ، وليس معنى هذا انه يتجاوز التاريخ ويتجاهل قوانينه ، بل معناه أنه يستجيب للتاريخ ، ويتطور معه ، ويخضع لقوانينه ، فهو ليس مجرد عقائد وشعائر ، ولكنه سلوك أيضًا وعمل ، أي أنه تاريخ ، إنه شريعة ثابتة ، وفقه متطور متغير .

والإسلام وحي وتنزيل من ناحية وفهم لهذا الوحي وفقه له من ناحية أخرى ، والوحي إلهي لكن الفقه بشري .. والمسلمون الأوائل أئمة مجتهدون ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا مقدسين ونحن نرجع إليهم ، وننتفع بتراثهم ، لكننا لسنا مقيدين به ، لهم فقههم ، ولنا فقهما ، وباب الاجتهاد مفتوح دائمًا للمجتمع .

وفي النهاية ليس الإسلام مجرد نصوص ، ولكنه قبل كل شيء غايات ، فكل ما يحقق غاية تعير منه ولو بدأ مخالفًا لنصوصه ، وكل ما يتناقض مع الغاية ، أو يبتعد عنها يخالف الإسلام ولو بدأ موافقًا للنصوص .



الباب الثالث
المواطنة



الفصل الأول

ما المواطنة ؟

المواطنة

المواطنة مشتقة من الوطن . وما دام هو القضية وهو الأصل ، فإن كلمة المواطنة يحتويها إطار أوسع وهو الدولة الوطنية ، وهذا يعطي لكلمة المواطنة أبعادًا أشمل وأكمل ، فالوطن هو الأصيل ، والدولة الوطنية هي التعبير عنه ، ولما كانت المواطنة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعنى الوطن ، والهوية الوطنية والثقافة الوطنية ، فهي ليست مفصولة عن كل ذلك .

إذن كلمة المواطنة مستمدة من كلمة وطن بكل ما تحمله من معنى الارتباط بالأرض ، والانتماء للشعب والمشاركة في سلطة الحكم ، وهي بهذا المعنى منظومة من القيم والمشاعر والانتماءات تكرس معنى المساواة وتحترم مفهوم التعددية ، ونسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر بغير استثناء .

إن المواطنة تشمل الملم والمسيحي وغيرهما من أصحاب الكتاب ، كما تشمل المرأة والرجل في دلالة عصرية على نضج المجتمعات وهي تشير أيضًا إلى الحقوق المتكافئة للأغنياء والفقراء .

إن المواطنة بهذا المعنى تضم جوانب سياسية واقتصادية وثقافية ، ومعناها أوسع وأشمل من أن تختزل في واحد من أبعادها دون غيره ، وهو يحدد مفهوم الانتماء ، ويضمن للوطن معنى الولاء ..

إن المواطنة تتأكد من خلال إطلاق حركة ديمقراطية مكتملة ، ينخرط فيها جميع المواطنين من خلال تفعيل حركة الأحزاب ودعمها وتقويتها ، وبجوارها الدور الوطني الفاعل للمستقلين ، حتى يمكن إحداث توازن فعلي بين القوى السياسية والاجتماعية ، والمواطنة في هذا الإطار هي تأكيد لمسألة الهوية الوطنية ، التي لها وجود طبيعي في الوعي الوطني ، وفاعليتها ووجودها رهن بالمناخ العام الذي يحيط بها ، وبالأبعاد الأوسع للقضايا والأوضاع المرتبطة بها ، والمكملة لها ، وبكونها تسري على الكل ، أيا كانت اتجاهاتهم وانتماءاتهم دخل الوطن الواحد ، فهي مواطنة جميع أبناء الوطن .

لقد تكفل الإسلام الغير المسلمين بكل الحقوق التي تحقق لهم حياة أمنة مطمئنة ، وسبق في ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية ، وما تنادي به حقوق سياسته ومدنية واجتماعية ودينية ومالية ، وقضى على التمييز العنصري واللوني والجغرافي ، وترك تراثًا وراثيًا من الأخوة الإسلامية لا يوجد له مثيل حتى الآن ، وفي ظل ذلك ينمو تعايش رائع بين الأطراف في المجتمع الواحد ، دون أن تذوب الفوارق الدينية والمعتقدات .

ليست المواطنة إذن مفهومًا جديدًا ، ولا مفهومهًا غامضًا ، فهي قرين الهوية للوطن ، وهي علاقة وجدانية ترتبط بالوطن ، وهي مبدأ له تاريخ في الوعي الوطني ، ومفهوم يجمع في إطاره كل العناصر التي تشيد على أساسها الدولة الرشيدة ، والحكم الصالح ، والتي توفر لمواطنيها - من ناحية - العدالة والحرية والمساواة دون تمييز ، وتوفر - من ناحية ثانية - علاقة ترابط صحية بين المواطنين والحكم ، وهو ما يعطي الحكم شرعيته ، عندئذ يترسخ معنى الدولة الوطنية .

ليست المواطنة كلمة أو مصطلحًا ، لكنها محتوى يحوي تراكمات الأحداث الوطنية التاريخية ، وإنجازاتها وهمومها ، ومواطن فخرها واعتزازها وطموحاتها وأمانيها .

إن وثيقة رسول الله صلي الله عليه و سلم التي كتبها ليهود المدينة ، وأرسي بها قواعد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وهي نموذج عال من الاتفاقيات والعقود ، ومبادئ سامية في العلاقة بينهم سبق بها الر سول جميع المنظمات الدولية ، وفي ظل هذه الأسس نما تعايش رائع بين الطرفين في المجتمع الواحد ، دون أن تذوب الفوارق الدينية ، والمعتقدات ، فلم يتنازل المسلمون عند دينهم وثقافتهم وحضارتهم ، وكذلك غير المسلمين . " لكم دينكم ولي دين " .

وهكذا تعني المواطنة إن الناس جميعا متساوون في الحقوق والواجبات ، وأنه لا تمايز بينهم بسبب الجنس أو الدين أو العقيدة أو الفرق ، وتعني أيضًا اعتراف كل مواطن بحق غيره من الآخرين في الحرية والحياة الكريمة ، والمشاركة في بناء وتنظيم المجتمع .

والمواطنة بمعنى آخر تعني تكريس احترام مفهوم التعددية ، وتسقط الفوارق المتصلة بالدين أو الجنس أو الأصل بين البشر .

وقد عرف رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه المعروف : (مناهج الألباب المعدنية في مناهج الآداب العصرية) والذي أصدره في أخريات حياته ، ويقول فيه عن الوطنية : (أسعد الناس الذي يميل بطبيعة إلى إبعاد الشر عن وطنه ، ولو بإضرار نفسه ، فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة على الوطن ، بل يجب عليه أيضًا أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه .. فالتقدم لا يتم بدون انجذاب قلوب الأهالي صوب مركز التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم " .

وهذه كلمات من كتاب في التربية الوطنية من باب (الأمة والوطن والوطنية) لفريق من المؤلفين على رأسهم عبد العزيز البشري : " وإن إثما دونه كل إثم أن ينصرف أبناء الوطن عن النهوض بحقوقه قانعين من الوطنية بالنفحات

بما سلف من أخباره ، والتباهي بما درس من آثاره ، فما كانت الوطنية إلا تلك العاطفة التي تزك من نفوسنا حب الوطن ، وترصد أبلغ جهودنا وأنبل مساعينا الخيرة ، والعمل لمجده ، وإذا كان للوطنية الصادقة تظاهر فإن أجلاها وأوضحها الشعور بالواجب الوطني ، فهو مادة القومية الحق ، وهو دليل الوجود السياسي في هذا الوجود .

لقد ارتضى الأقباط مثلا أن يخضعوا لأحكام الميراث في الإسلام ، لأن المسيحية ليست ديانة تشريع ، وكل تشريع لا يتناقض مع نص إنجيلي فهو مباح ، مع العلم بأن أكثر من ٩٥ % من التعاليم المسيحية غير متناقضة مع الشريعة الإسلامية ، وليس من شك في أن الدين الإسلامي ، يمنح كل الحقوق والواجبات بالتساوي مع الآخر ، والمهم هو التطبيق ، وإعمال مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب ، فالمواطنة حركة الناس من أجل اكتساب الحقوق ، وإحداث التغيير ، وتحتاج لتوعية كبيرة ، وللتشجيع على الحركة التي تعني المساواة بدون تمييز .

إن مبادئ الأديان توفر لمعتنقيها أعلى مستويات الانسجام الروحي والمادي ، وتحقق لهم مصلحة الجماعة والفرد معا في تناغم لا تحققه أية مبادئ أخرى من صنع البشر ، والذين يطالبون بإعلان مبادئ حقوق الإنسان بفرض أنها أكثر قدسية من المبادئ الدينية السماوية المنزلة عن طريق الموصي ، ومن ثم فإن الأديان السماوية هي بالضرورة متناقضة مع الحقوق الإنسانية ، وهو ما لا تقبله المجتمعات المتدينة ، اعتقادًا منها وبحق عن أن الأديان السماوية تقدس الإنسان كمخلوق له مكانته العليا التي حفظها الله تعالى ، وشرع له ما يحمي به تلك المكانة العالية ، وما يرتبط بها من حقوقه حفظ النفس والعقل والمال والدين والنسل . وهو الأمر الذي يسبق زمنيًا ، ويتفوق موضوعيًا على ما تتضمنه مبادئ حقوق الإنسان بشرية الصنع التي لا يزيد عمرها على ستة عقود من السنوات .

إننا إذا نظرنا إلى المواطنة باعتبارها الانتماء إلى الوطن والذود عنه ، وحماية ثرواته ، والتمتع بها وفق أسس الأنصاف الاجتماعي ، والعدل الإنساني ، فهي بذلك لا تتناقض مع ما يطالب به الدين الإسلامي الذي يفرض على الإنسان الحرص على الانتماء إلى قومه ، والتعاون معهم في مواجهة من يريد بهم الشر ، ويفرض عليه أيضًا أن يكون عونًا لأبناء قومه هؤلاء وفي السراء وفي الضراء وحين البأس .. وأن يتفاعل معهم بالتعاطف والحب التماسك والتضامن . كما فرض عليه أيضًا أن يحسن معاملة غير المسلمين الذين يعيشون معه ، وأن يوفر لهم أسس الحياة الكريمة شأن ما يتمتع به المسلم نفسه . وأن يوفر لهم حق عبادة ما يعتقدون فيه طالما أنه منزل من السماء . فالمسلم يؤمن بما أنزله الله تعالى على الأنبياء المكرمين الذين سبقوا محمدًا عليه الصلاة والسلام ، فهم أيضًا مسلمون وموحدون بالله تعالى .

فلا مواطنة حقيقية بدون دين ، ولا تزين حقيقي بدون مواطنة ، وادعاء التناقض بينهما نوع من العبث الضار بكل شيء ، فهو دعوة يجب التصدي لها ، والوقوف ضدها بكل قوة .. غن محاولة التلاعب بمفهوم المواطنة تلاعب بمقدرات الأمة المتوارثة جيلا وراء جيل ، لكن من حق الجميع البحث في إحياء مفهوم المواطنة دون المساس بجوهرها ومكوناتها ومفرداتها ، ويهدف تحديث بنية العلاقة بين المواطن والدولة من خلال توفير المناخ والبنية الأساسية والتشريعية والإدارية التي تشجع المواطن على المشاركة ، وتمكنه من ممارسة حقوقه المشروعة .

ولقد كان أو لدرس من الدروس المستفادة من هجرة الرسول صلي الله عليه و سلم من مكة إلى المدينة المنورة هو ترسيخ مبدأ المواطنة الذي طبقة الرسول في أول يوم وطئت فيه قدماه أرض المدينة ، بل يذهب البعض إلى أن النبي بدأ تنفيذه قبل دخوله يثرب ، وذلك حينما بعث الصحابي الجليل مصعب بن عمير في مهمة بأول سفير للإسلام إلى المدينة ، فمبدأ المواطنة في مجمله أن يعيش المواطنون في البلد الواحد كل ينم برينه ، على أن يكون الكل متساوين في الحقوق والواجبات لهذا الوطن .

ولقد وقع النبي صلي الله عليه و سلم معاهدات مع قاطني المدينة المنورة من أهل الكتاب وغيرهم بحيث يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، بحيث يكونوا يدًا واحدة لحماية الوطن ، حتى يرجح البعض أن هذه المعاهدات كانت أول وثيقة عرفتها البشرية لحقوق الإنسان ، وتنادي جميع الديمقراطيات في العالم الآن بتحقيق ذلك المبدأ .

إن الانتماء للوطن من الدين ، فحينما خرج الرسول صلي الله عليه و سلم من مكة ودعها بدمع وجراجة ، ونظرات حانية ، وقال : والله إن أعلى أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلى قلبي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت . ففي هذا القول تجسيد للحب ، والانتماء لوطن مهما يلقي الإنسان فيه من مصاعب .

إننا نرى اليوم في تشريعات الدول المتحضرة التي تعلي مبدأ المواطنة تطبيقًأ وضمانات للحماية ، وجزاءات تقع بحق من يخالف المبدأ ، ففي فرنسا على سبيل المثال ، وغيرها من البلدان المتقدمة ، هناك تجريم (بالخطر والعقاب) لأي فعل ينطوي على التمييز ضد الأشخاص الطبيعيين أو غيرهم بسبب العديد من مظاهر الاختلاف مثل الأصل أو الجنس أو الرأي السياسي ، أو النشاط النقابي ، أو انتمائهم العرقي أو الديني ، وكل من يمتنع عن توظيف شخص ، أو يخضع توظيفه لشروط معينة .

إن المواطنة ثقافة وقناعة لدى " المواطنين " يفترض أن تتحول إلى سلوك في حياتهم اليومية ، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسة ، بل في مختلف مناخي النشاط المجتمعي ، ولتحقيق هذا الهدف يتعين إدخال تغيرات في الثقافة الاجتماعية - وبالتالي السياسية - أي تغييرات على منظومته القيمية والفكرية ، ومعايير الحكم على الأمور لديه ، فالدعوة إلى ثقافة المواطنة مهمة ، لا تقل أهمية عن تبني مفهوم الموطنة .

المواطنة هي المرجعية في العلاقة فيما بين المواطنين ، أو في الحكم على أحقيتهم في الحصول على امتياز ما ، وعدم الاحتكام إلى مرجعية أخرى سواها في هذا المجال . فالمواطن يجب أن تترسخ لديه القناعة المستندة إلى واقع عملي معاش وهي التي تمثل ركيزة التفاضل بين المواطنين ، وليس لونًا أو جنسًا أو دينًا أو الخلفية الاجتماعية ، أو الحالة الاقتصادية .

إن من أهم سمات الشخصية السوية في الإسلام تقبل الآخر ، وإقامة العلاقات معه على أساس من المودة والرحمة .

فالإسلام منفذ العصر النبوي وحتى العهود المتأخرة من تاريخ الخلاقة الإسلامية - لم يظهر إلا كل المشاعر الطيبة الحسنة تجاه الآخرين الذين لا يدينون به .. روي عن ابن هشام أن النبي - صلي الله عليه و سلم - لم تمض على وجوده في المدينة المنورة غير فترة قليلة حتى اجتمع له إسلام أهل المدينة من العرب ، ولم تبق دار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراد من قبيلة الأوس .. فكتب رسول الله - صلي الله عليه و سلم - كتابًا بين المهاجرين والأنصار ، وأدع فيه اليهود (أي صالحهم) ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، ومن الواضحة أن إقرار اليهود على دينهم يعني أن منهج الإسلام هو كفالة حرية العقيدة .

الشريعة والمواطنة

(آداب البحث والمناظرة) و (علم الأخلاق) علمان يتعلم منهما الدارسون كيف يكون الحوار المثمر ، وكيف يتجنب أطرافه الانحراف عن مقاصده ، وكيف يعتدل مساره حين يتطرق إليه الأعوجاج ، كما يتعلمون منهما ما يفرقون بين الحوار المثمر الذي ينبغي الوصول إلى الحق ، وبين الجدال ، والمخاصمة والمراء التي تطمح جميعها إلى مجرد الغلبة على الخصوم ، واللجاجة في الخصومة .

وكثيرًا ما ينشب النزاع الحاد حول سبب متوهم لا وجود له ، ولو أن الطرفين قد تمهلا وتثبتا من سبب النزاع الحاد حول سبب متهم لا وجود له ، ولو أن الطرفين قد تمهلا وتثبات من سبب النزاع ، لما كان للنزاع نفسه وجود .

فمثلاً نرى فرقًا نتنازع حول مفهوم المواطنة ، ولكل آراؤه نحو هذا المفهوم مع أن علاقة المواطنة تعني التساوي في الانتماء للوطن ، وفي العلاقة بين المواطن والدولة ، وفي التمتع بحقوق وواجبات متساوية ، وهذا يمثل بندًا من بنود التعاقد الاجتماعي بين المواطنين الأحرار ، وبين الدولة . وهناك بند آخر من بنود التعاقد الاجتماعي بين المواطنين الأحرار وبين الدولة أيضًا وهو أن الإسلام دين الدولة ، وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع ، ولا تعارض بين البندين فلئن كان مبدأ المواطنة بجسد خطوط المباشرة بين جماعة المواطنين الأحرار ، وبين الدولة ، فإن مبدأ الشريعة يجسد ما يمكن أن يسمي جان جاك روسو في كتابه (في العقد الاجتماعي) الإدارة العامة أو (روح الجماعة) التي لا تمثل على حد تعبيره أيضًا - الإرادات الراهنة فحسب بل تاريخ الجماعة الماضية وأهدافها .

إننا حين نتحدث عن الوطن والمواطنة ، لا نعقل قط إعلاء الاسم لهذا المبدأ ، وتأكيده عليه .. فالدفاع عن الوطن أغلى قيمة في حياة الإنسان ، وكذلك الحرص على الإسلام والدعوة إليه من أسمى أمانينا .

ربما يكون مصطلح " المواطنة " غريبًا غامضًا .. جديدًا علينا ، أو أنه ربما يبدو مصطلحًا بعيدًا عن الإسلام . لكن الحقيقة والواقع أن " المواطنة " إسلامية المعني والمكان والهوية ، والدولة الإسلامية وضعت أساس المواطنة منذ اللحظة الأولى للإسلام .. فاليهود والنصارى والمسلمون أمة واحدة ، لليهود دينهم ، وللنصارى دينهم ، وللمسلمين دينهم ، كلك أراد الله ، ولو شاء لجعل الناس أمه واحدة يدنيون بدين واحد ، ويعبدون إلهًا واحدًا ، ولم يجعلهم شعوبًا وقبائل ، إنما كانت الحكمة في اختلاف الألوان والأجناس والديانات .. إن الأديان كلها من الله وإلى الله ، وإنها تدعو إلى هدف واحد ، وقصد نبيل .

إن الغرب لم يعرف المواطنة إلا على أنقاض الدين ، - كما يقول المفكر محمد عمارة - لذلك تميزت مواطنة بالعلمانية ، ولم يعرفها إلا بعد الثورة الفرنسية بسبب التمييز على أساس الدين والعرق والجنس واللون .. وأن المواطنة الكامل هي في الإسلام ، وأن مرجعية القانون - الإسلام - هي الضامنة للحقوق والواجبات ، بدلاً من جعلها علمانية ، يقررها حاكم ، ويمنعها آخر .

إن حرصنا على مبدأ المواطنة حرص على المساواة ، وحرصنا كذلك على الشريعة الإسلامية ، حرص على تأكيد الهوية الإسلامية للوطن ، والإسلام يكفل الحقوق الكاملة للمسلمين ولغير المسلمين ، بل يجعل من يظلم غير المسلم خصمًا للرسول صلي الله عليه و سلم - يوم القيامة - .

إن الشريعة الإسلامية - شأنها شأن كل الشرائع السماوية - تهدف إلى الارتقاء بالإنسان وإلى عمارة الأرض ، وإشاعة الإسلام والمحبة والتعاون ، ونشر القيم العليا والفضائل ، فالمقصد الأساسي هو الخير ومصلحة الجماعة والفرد في ظل منظومة الفضائل والقيم السامية ، وعلى المسلم التوجه بفرطته السليمة لتحقيق هذا الهدف مستخدمًا ما عقله وقلبه .

إننا عندما نتحدث ونكتب عن موضوع التجديد والخطاب والفكر المعاصر ، لابد من أن نؤكد على أن هناك شقا يتعامل مع الثوابت من الإسلام ، وهو ما يطلق عليه علوم العقيدة والتوحيد .. وهذا لا جدل فيه ولا يخضع للتحديث ، فهو جوهر الإيمان ، وأصلاً ليس هناك ما يسمى تحديثا أو تجديدًا في الإسلام ، إنما نتناول ما يجب أن يقال أو يكتب أو يسمع بما يساير الفكر المعاصر ، والأحداث المتطورة التي تحتاج منا فعلاً أن نتحدث ونكتب عما يجب أن يكون عليه الخطاب . أما الشق الآخر الذي يتعامل مع المتغيرات فهو ما يعرف بعلوم الفقه والشريعة .. وهذا مجال رحب للتحديث والتجديد بما يتلاءم مع الزمان والمكان ، والإنسان وجنسه ، بل حتى يتغير مع الإنسان نفسه تمشيًا مع ظروفه الحياتية والصحية والبيئية والعقلية ..

لقد كرم الله بني آدم بعيدًا عن جنسهم ودينهم ، فالجميع لهم قداسة الوجود وحرية الاعتقاد ، فساعة الحساب آتية لا ريب فيها ، لذا فإن الآخر ومعه المسلم على أرض واحدة ، وفي وطن واحد ، وأيضًا المجتمعات الدولية المغايرة للمجتمع المسلم .. الجميع لهم حق حرية الاعتقاد طبقا لما جاء به الإسلام : (لا إكراه في الدين) .. (لكم دينكم ولي دين) ، وتقف حدود الحرية عند حدود حرية الطرف الآخر .. فلا عدوان إلا على من أخرجنا من ديارنا ، أو حال بيننا وبين حرياتنا العقائدية .

لذا فإن دستور العلاقة مع الآخر لابد أن يركز على نقاط الائتلاف والبعد عن نقاط الاختلاف (باستثناء ما يحدث في فلسطين) كما أن مصالح الوطن تستوجب تكاتف عناصر الأمة باختلافها ، وهذا يتفق مع صحيح الدين . فالأوجب التعايش مع الآخر ، واحترام اختياره العقائدي ، والتعاون معه للبناء والسلام ما لم يدخل في دائر ة العداء بالعدوان .

لقد اختلف أهل الإسلام مذهبيًا منذ المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي .. فكانت الفتنة الكبرى التي خلقت انقسام الآمة بين شيعة وسنة ، مع أن الجميع يؤمنون بالله وبرسوله ، وينحصر الخلاف بين الطرفين في آراء تاريخية لا تؤثر في صلب العقيدة ، وهذه نقطة يوظفها أعداء الإسلام لإشاعة الفرقة والفتنة بغرض إضعاف الجميع ، والانتفاض على الإسلام والمسلمين .

إذن لابد أن يتجاوز الخطاب الديني عن مثل الخلافات المذهبية ، وأن نبعد عما يثير شبهة مغرضة فنحن مطالبون بحماية الإسلام ، وبحماية أوطاننا ومقدساتها ، ولن تكون إلا بالتآزر والتكاتف والتعاون المثمر ..

إننا ونحن نتعرض في خطابنا عن المرآة فلابد أن نوضح الحقائق ونبينها حتى لا تكون هناك آراء متضاربة وانقسام وفتن ، فقد خلق الله الناس متساوين من الحق الإنساني ، وفي الكرامة لا فرق بين ذكر وأنثى ، ولا أبيض وأسود ، ولكن بسبب التكوين البيولوجي والخلقي بين الرجل والمرأة ، ترتب على ذلك اختلاف في الواجبات المدنية وتوابعها ، مع استمرار التساوي في القمة ، فشهد التاريخ الإنساني كله (وليس الإسلامي فحسب) انتقاصًا في مشاركة المرأة في الوصول لأعلى السلم الهرمي للمجتمع لأسباب تاريخية وبيولوجية وفسيولوجية . ذلك أن المجتمعات القديمة كانت تحتاج إلى القدرات العضلية - أكثر من العقلية - وتلك بالطبع تناسب طبيعة الرجل ، وهذا أسهم وفرض أن يقود الرجل المسيرة البشرية وعملية إعمار الأرض مع وجود حالات استثنائية ، وبذلك ظلت المجتمعات محرومة من نصف طاقتها ، وهمشت دور المرأة في العطاء . ولكن مع تطور الحياة العصرية أنزوت قيمة العضلات في المجتمع ، ورفعت قيمة العقل والإبداع ، وهنا بدأت المرأة تسترد مكانتها الاجتماعية الطبيعية تدريجيًا .

وبالنسبة للمرأة في الإسلام ، فإن لها كل الحقوق الإنسانية بالتساوي مع الرجل ، فلم يحرمها شيئًا مما أفاد به على الرجل ، ولم ينجسها حقها ، بل أشاد بها وجعلها أساس كل تقدم ورقي ونهضة إذا أحسنت تربيتها وقامت بواجباتها خير قيام .

وها هي المرأة اليوم تعتلي كل المناصب ، وتشغل كل الميادين ، وقد أحرزت تقدمًا في مسيرتها ، وأصبحت النصف الآخر فعلا المكل لبناء المجتمع ، فنراها اليوم وزيرة وقاضية ومحامية ومدرسة وطبيبة ومهندسة ، ورئيسة وزراء ، وداعية إلى غير ذلك من مختلف الميادين بحيث أصبحت مشاركة في كل عناصر الحياة ومقوماتها ، والدعوة إلى الإصلاح في جميع المجالات إلى جانب كونها أم ترعى أبناءها ، وترسى دعائم البناء ، وترسخه من أجل الأجيال بالتنشئة لصالحة والرعاية الكافية ، وصيانة بيتها وزوجها ومالها ، وهي بحق جديرة بذلك ..

إن السمو الأخلاقي في المرتكز على مبادئ الحق الخير والعدل والحرية والمحبة والتسامح والتعاون والإيثار والشهامة والصدق والأمانة والقناعة والعمل وارتقائه ، وتطبيق ذلك سلوكيًا وقدوتنا رسول الله صلي الله عليه و سلم - كان وكأنه قرآن يمشي على الأرض - وهكذا الأخير في مبدأ لا يسانده سلوك عملي .. فلا صلاة لمن لم يأمن من جاره شره ، ولا صلاة لمن أعتاد الكذب والغش والكراهية والاحتكار ، وكذلك ما يقال عن الصلاة يقال عن المناسك والشعائر من صوم وحج . فصدق المسلم في عقيدته مرتبط بسلوكه ، فالإسلام لا يعرف الانفصام ، فازدواجية الشخصية عند المسلم بارتياده المساجد وأدائه الحج والعمرة وقيامه بالصوم مع عدم توافر ما يقابله سلوكيًا مرفوض ، ومنهي عنه ، فالإسلام عقيدة ومناسك وسلوك ، منظومة شاملة كاملة لا يجوز تجزئتها .

الوحي والشريعة

تتكون كل ديانة في جوهرها من " وحي " وتفسير لذلك الوحي ، والوحي ثابت لا يتغير ، لأنه يمثل التعبير الفعلي عن الإرادة الإلهية ، ويتضمن الحقائق الخالدة ، أما التفسير فهو ما يثيره الوحي من رد فعل في العقل الإنساني . ونظرًا لأن هذا العقل داخل في الزمان فهو مقيد به . فالوحي يبقى على مر القرون دون أن يخضع لأي تغيير ، في حين أن التفسير يتعرض على مر العصور لضغوط القوى الداخلية والخارجية ، تلك الضغوط التي تعطي الجماعة شخصيتها في كل فترة من فترات التاريخ .. وقد بدأ الفكر الإسلامي من الوحي الديني ، وتأثر بعوامل شتى ، ثم أخذ يشق طريقه بقواه الخاصة .

وقد خلق الإنسان ليسبح بحمد الله وحده ، ويعبد خالقه ويعظمه ويطيعه .. ووضع الله الإنسان في مركز الكون حتى يكون عليه سلطان ، ولكي يكون سيدة أو بالأحرى المتصرف به ، والإنسان المسلم في حقيقته مسلم لإرادة الله ، والذي يميزه هو على التحديد هيمنة الله الكاملة على جميع سلوكه . وهذا يستلزم أن تكون كل حياته حتى أدق ما فيها مرتبطة بالله تعالى ، قال تعالى : " ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " (ق ١٦) . فالمسلم إنسان يعيش تحت نظر الله ، والجماعة الإسلامية تشكل مجتمعًا تحتل فيه فكرة الله مكانة مركزية .

إن الشريعة الإسلامية هي أبرز مظهر يميز أسلوب الحياة الإسلامية ، وهي لب الإسلام ولبابه ، وهي جملة الأوامر الإلهية التي تنم حياة كل مسلم من جميع وجوهها ، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية ، كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية (بالمعنى المحدود) وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصورة التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى .

ظهر التشريع الإسلامي إلى الوجود ونما في ضوء خلفية سياسية وإدارية متنوعة الصور ، فقد كان عصر النبي عصرًا فريدًا في بابه من هذا الوجه ، وتلاه عصر حافل بالحركة والتفاعل ، هو عصر الخلفاء الراشدين في المدينة ، ثم جاء حكم بني أمية الذين كانوا أول أسرة حاكمة في الإسلام ، وكان يمثل من وجوه كثيرة ذروة ما انتهت إليه النزعات الملازمة لطبيعة تكوين الجماعة الإسلامية في عهد الرسول . وتم أيام حكم بني أمية إنشاء الإطار العام لمجتمع عربي إسلامي جديد .. وبالرغم من أن التشريع الإسلامي قانون ديني فإنه من حيث الجوهر لا يعارض العقل بأي وجه من الوجوه . فهو لم ينشأ من عملية وحي متواصل فوق العقل ، وإنما نشأ التشريع الإسلامي من منهج عقلاني في فهم النصوص وتفسيرها ، ومن هنا اكتسب مظهر عقليًا مدرسيًا ، ولكن على حين أن القانون الإسلامي يبدو كنظام عقلاني على أساس اعتبارات خاصة بالمضمون ، فإن صبغته القانونية الشكلية لم تتطور إلا قليلاً ..

والتشريع الإسلامي ذو منهج منظم ، وهو يؤلف مذهبًا متماسكًا ، ونظمه المتعددة مترابطة بعضها مع بعض ..

الإسلام دين الوسطية والاعتدال وحسن السريرة والنقاء ، والتنزه عن الحق والحسد ، وتقديس القيم ، وكلها أسباب قبول العمل الصالح عند الله .

المؤمن سهل يألف ويؤلف ويسامح ويعطي ويحب ويتعفف ، ويصدق ولا ينافق ، دستوره العمل وإتقانه ، إلى جانب فضيلة الصدق والبعد عن الكذب ، فبدون الصدق لا يكون الإنسان سويًا ، وقد فتشت عن هذه الفضيلة وطرقت كل باب ، وصادفت كل إنسان حيث تكون الحاجة ، فلم أرها في أحد ، ولم أجدها إلا فيما ندر .

ويدعو المنهج الإسلامي إلى العلم ، وهو يطلب ولو في الصين ، فالبحث عنه وطلبه فريضة من المهد إل اللحد ، وليس العلم هو العلم الديني فقط بل العلوم كلها بفروعها وأنواعها كل فيما يخصه حتى يتكون لدينا متخصصون في كل العلوم بشتى أنواعها فكلها منظومة واحدة ، كما يدعو المنهج إلى الحج والعمرة لمن استطاع على أن يعمل بفضائلها ، وإلا فدق خس الخسران المبين .

إننا لو نظرنا إلى خطابنا الديني وما يدعو إليه ، نجده في حاجة ماسة إلى نظرة عميقة كي نقدمه بها ، وأن نعلم أن نبذ الدنيا وكراهيتها وهجرها ، والاكتفاء بالعمل للآخرة بأداء المناسك والشعائر ، والتفرغ لها ، لا يتفق مع الفرض من خلق الإنسان . فالمؤمن يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدًا ، للآخرة كأنه يموت غدًا ، فطريق الوصول إلى الله يمر عن طريق إعمار الأرض ، ومجاهدة النفس ، حتى يتحقق للمجتمع الإسلامي الحياة الكريمة ، ويتساوى مع المجتمعات الأخرى غير المسلمة التي كرست كل الجهد لتعمير الأرض ، وتطوير الحياة .

لابد أن يفهم المسلم الهدف من خلقه ، وأن الإسلام دين يسر لا عسر فلنوغل فيه برفق ، والحلال بين الحرام بين ، ويجب أن يكون كل مسلم ملم بالسياسات الشرعية ، مطلوبًا منه أركان الإسلام الخمسة ، قواعد الصلاة والصيام والحج والعمرة ، والمثل العليا ، ومقاصد الشريعة ..

إن الشريعة وهي السما ضمانة أساسية لاستقرار المجتمع الإنساني وانتظام أحواله وضبط علاقاته فبدونها تسود الفوضى ، ويعم الاضطراب وتنتهك الأعراض والحرمات ، وتفتال الحقوق ، وتتعرض الأنفس والأموال لأخطار جسيمة .

لفظ الشريعة في الاصطلاح الإسلامي العام يطلق على أحكام الإسلام نفسه ، قال تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوصينا إلين .. (الشورى ١٣) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتنظيم العلاقات في المجتمع الإنساني كله ، علاقة الإنسان مع ربه ، علاقة الإنسان مع نفسه ، مع غيره على المستوى الفردي والجماعي .

وتنقسم أحكام الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام : عقيدة ، عملية فقهية ، خلفية تهذيبية .. أما الاجتهاد في الإسلام برهان المرونة ، ووسيلة الصلاحية للتشريع الإسلامي لكل زمان ومكان .

ومن واجب الفقهاء تقريب الشرع إلى الناس ، وتيسير حياتهم في ظلاله ، وهو دعوة لكسر قيود التقليد ، والتخلص من أسر الجمود ، والعودة بالفقه إلى سابق عهده هاديًا للناس إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، معًا .

إن القول بغموض مصطلح المواطنة يبدو قولاً خارج العصر ، لأنه يصعب علة المرء أن يتصور في هذا القرن الحادي والعشرين أنه يمكن لأحد أن ينبعث مفهوم المواطنة بالغموض ، فمثل هذا الاعتقاد قاصر من الناحية النظرية ، وخطير من الناحية العملية ، فالمواطنة هي التعبير المتحضر والآمن عن انصهار الاختلاف الإنساني في الدين أو العرق أو اللغة أو اللون أو الأفكار ليصبح هذا الاختلاف حقًا مفترقًا به من حقوق الإنسان .. في ذات الوقت الذي تصبح فيه هذه المواطنة هي المعيار القانوني والسياسي الوحيد الذي به تتحدد حقوق والتزامات الإنسان المواطن في مواجهة السلطة .

المواطنة إذن ليست تعبيرًا غامضًا لأنها المفهوم الوحيد القادر على تحقيق المزج والتصالح بين كون الإنسان مواطنًا ، وكون المواطن إنسانًا - هذا من الناحية النظرية .

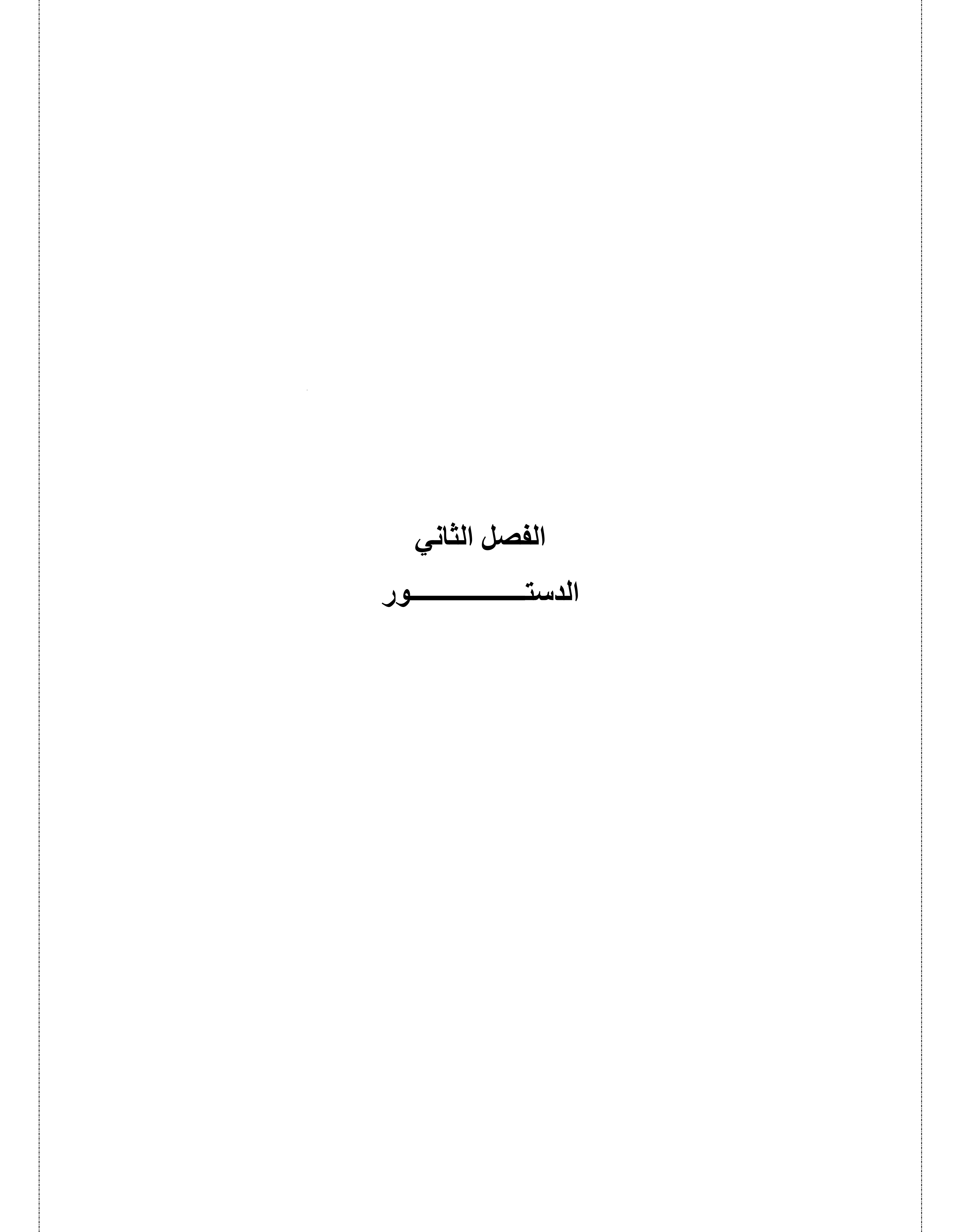
أما من الناحية العملية فخطورته من تجارب القوة والانهيار في حالات بعض الشعوب كأن مناطها وجود أو غياب فكرة المواطنة .

إن مفهوم المواطنة مفهوم دائم التطور ، نظرًا لارتباطه بعملية التطور الاجتماعي والسياسي في كل مجتمع ..

والمقصود بالمواطنة عدد من الناس يسكنون في مكان واحد بصفة دائمة ، وعليه فجميع الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود ما داموا يعيشون في أرض واحدة مواطنون بصرف النظر ، دياناتهم وعقائدهم ، فهم قد نشئوا على أرض واحدة ، واستظلوا بسماء واحدة وتنفسوا من هواء واحد ، وأكلوا وشربوا طعامًا وشرابًا واحدًا ، ولنا في رسول الله صلي الله عليه و سلم أسرة حسنة فقد عقد معاهدة مع جميع سكان المدينة من اليهود وغيرهم ، تتضمن أن هذه المدينة المنورة وطنهم جميعًا ، لا فرق في ذلك بين مسلم غير مسلم ، وأن على سكانها جميعًا دون تفرقة أن يدافعون عن مدينتهم إذا ما تعرضت لأذى .

المواطنة تعبير ير بط بين عنصرين : " المواطن " الإنسان المنتمي للوطن و " الوطن " المكان . وهي التي توجب حقوقًا للمواطن وللوطن ، والوثيقة النبوية التي تعرف باسم " صحيفة المدينة " أو " دستور المدينة " وهي وثيقة نظمت الحياة في المدينة بين المسلمين وبين اليهود بل وبين عدد قليل من المشركين . وهذه الوثيقة تعتبر أول نظام يحدد العلاقة بين مواطني الدولة الواحدة ، وتقوم على أساس الانتماء إلى الدولة وليس على الانتماء إلى العقيدة الدينية ولا العصبية القبلية ، ولا إلى اللون أو الجنس .

لقد كفل الإسلام لغير المسلمين كل الحقوق التي تحقق لهم حياة آمنة مطمئنة ، وسبق في ذلك كل المواثيق الدولية والعالمية ، وما تنادي به من حقوق سياسية ومدنية واجتماعية ودينية ومالية ، وقضى على التمييز العنصري واللوني والجغرافي .



الفصل الثاني

الدستـــــــــــــور

الدستور : الصحيفة

مصطلح الدستور من المصطلحات المعربة ، التي دخلت العربية من اللغات الأخرى ، ويعني هذا المصطلح حديثًا : مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ، ومدى سلطتها إزاء الأفراد .

الصحيفة هي دستور الدولة العربية الإسلامية الأولى ، صيغ لينظم القواعد الأساسية لدولة المدنية ورغبتها ، ويعتبر وجود دستور سنة من سنن الإسلام السياسي ، تدعو إلى الفخار ، وإلى العرض عليها بالتواجد كي لا تغيب هذه السنة من قسمات هذه السنة من قسمات الدولة ومقوماتها في دنيا الإسلام السياسي ، وواقع السياسة عند المسلمين .

وفي هذا الدستور الذي قامت على أساسه دولة متحضرة في المدينة . يستطيع المتأمل أن يرصد الكثير من المبادئ والقواعد التي مثلت معالم على درب تطور وتقدم وتحضر وتحرر إنسان ذلك العصر .. بل والتي لازالت تحمل الكثير من الخير لإنسان العصر الذي نعيش فيه ..

ولقد استن هذا الدستور سنن التكافل بين رعية الأمة وجماعتها في مختلف الميادين سواء كانت تلك الميادين مادية أو معنوية .. فالأمة متكافلة ومتضامنة في الحق (وأن النصر للمظلوم ، ... وهي متكافلة ومتضامنة في المساواة القانونية ، وهي متكافلة متضامنة ، كذلك ، في المعاش والأموال ..

وقد تميزت هذا الدستور عن القرآن ، وإن لم يخالف روحه ومبادئه .. ورعية هذه الدولة لم تقف عند الجماعة - الأمة - المؤمنة ، بل كانت رعية سياسية ، اتخذت من المعيار السياسي ، والإطار القومي ميزانًا حددت وميزت به الرعية من الأغيار .. فهي قد شملت ، إلى جانب الجماعة المؤمنة بالإسلام : سكان المدنية ومن حالفهم وولاهم وتبعهم ولحق بهم ، بمن فيهم من العرب الذين تهودوا ، ومن الأعراب الذين أسلموا ، وانخرطوا في الرعية السياسية ، ولما يدخل الإيمان بعد إلى قلوبهم .. وكذلك الذين نافقوا النبي والمؤمنين ، فاظهروا الإسلام ، واستتروا كراهية الإيمان بالدين الجديد .

ولقد استخدم هذا الدستور مصطلح " الأمة " بمعنى الرعية السياسية .. وهو يعبر عن هذا البناء السياسي - الاجتماعي ، الجديد .. لقد نص على أن المؤمنين والمسلمين هم أمة واحدة من دون الناس فهم أمة الدين ، وجماعته المؤمنة به - ثم نص على : أن اليهود أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. فقرر التسوية في المواطنة ، وحقوقها وواجباتها بين هذه الرعية السياسية ، وأقر التمايز الديني القائم في داخل هذا الإطار " القومي السياسي " (أنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة) إنها دولة لا تستبعد غير المسلمين الذين ارتضوا الحياة داخل هذه الدولة الواحدة ، التي يحكمها هذا الدستور .

وهذا الدستور الجديد لهذه الدولة الجديدة لم ينسخ - جملة وبإطلاق - كل أعراف الجاهلية ، بل أقر منها ما هو صالح لا يتعارض مع روح الشريعة ، ولا يتصادم مع التطور الجديد ..

وإذا كان هذا الدستور قد مثل - القانون الأعلى - الذي نظم الواجبات على الرغبة .. والذي ضمن لها الحقوق ، فإنه قد استثنى الظلم والإثم ، وقرر ألا حماية لظالم أو آثم حتى ولو كان من الرعية التي ارتضت الحكم بهذا الدستور ..

وإذا كانت المدينة قد مثلت وطن الدولة التي حكمها هذا الدستور ، فلقد قرر هذا الدستور أن هذا الوطن حرم آمن لرعية هذه الدولة .. وقرر في ذات الوقت ، وفي نفس النص ، أن لا حصانة لظالم أو آثم ، حتى لو كان معتصمًا بالمدينة عضوًا برعية دولة هذا الدستور .. " وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وإثم " .

وإذا كان تطور المجتمعات ، وتعقد شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، قد فرض ويفرض التطور في الآفاق وفي الصياغات اللازمة للدساتير المعاصرة .. فإن قراءة هذا الدستور الأول للدولة العربية الإسلامية الأولى من الضرورات النافعة للأمة ..

لقد حدد لنا - اقتداء بالقرآن الكريم - أن المراجع عند الاختلاف هو كتاب الله وسنة رسوله .. ففيها المبادئ والفلسفات والأطر الحاكمة للواقع المتغير دائمًا والمتطور باستمرار ..

وتعتبر وثيقة المدينة ألا نموذج الأكمل في التحاور والتعايش الإيجابي والتعاون فيما يحقق مصالح الجميع ، وكذلك ما ورد في القرآن الكريم من حوارات الأنبياء والرسل عليهم السلام مع أقوالهم ، مما يكون نبراسًا للمسلم في محاورة الآخرين ، والإسهام في إصلاح الناس في مختلف المجتمعات .. فالحوار يبرز لا تباع الديانات والفلسفات المعتبرة محاسن الإسلام وفضائله ، إلى جانب التعرف بما فيه من قواعد شاملة للحياة الإنسانية ، والقضايا المتعلقة بالمشترك الإنساني ، وبرامج التعاون بشأن إنقاذ المجتمعات الإنسانية من الفتن والحروب والظلم ، ومن موجات الفساد والتحلل وتفكك الأسرة ، بالإضافة إلى معالجة الأخطار التي تهدد البيئة .

مستقبل المواطنة

يجب أن يعي كل مواطن أن ما لديه هو جزء من كل ، وأنه يحتاج للتفاعل مع بقية المواطنين ليكتمل الكل ، ويتصل الأمر هنا بوجود قناعة مشتركة لدى جميع المواطنين بأن كل مواطن يستطيع أن يسهم من الموقع الخاص به في تدم ونهضة وطنه سواء أعظم هذا الإسهام أو تواضع .

صحيح إن حضارة الأمم تقاس بمقدار ترسيخها لمفاهيم حقوق الإنسان والمواطنة والتسامح الثقافي ، ولا تتحقق المواطنة إلا من خلال انصهار الكل في واحد ، حيث المساواة في الحقوق والواجبات ، والمشاركة السياسية ، والوجود الفعال ، والتأصيل الديمقراطي ، وفي جميع مناشط الحياة ، فالكل في حق الحياة سواء ..

إن جوهر التسامح يكمن في حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، ومن أجل الحرية الفكرية ، وتلك الحرية العقائدية ، اندلعت الحروب ، وأريقت الدماء ، وحوكم بعض المفكرين ، وأعدم البعض منهم . فقد أعداء سقراط ، وحكوم جاليليو ، وأحرق برونو فوق كتبه ، وأحرقت كتب ابن رشد ، وغيرهم كثيرون ، والتسامح الفكري يني أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين في الفكر يضفي على الأفكار والأشياء معنى وثراء ، وأن حق التباين جوهري في حياة الناس ، ففي التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه ، وحرية الاعتقاد تعني أن " لا إكراه في الدين " ، وأن الإيمان ثمرة للإرادة الإنسانية الحرة بغير قهر ، أو إرغام أو تسلط ، وفي تعاليم المسيح المثالية ، تزخر آيات الأناجيل بالدعوة إلى العدالة والمحبة والتواضع ، وإنكار الذات وقبول الآخر ، والقدرة على هزيمة الخطيئة ، وكلها عناصر للتسامح .

إننا جميعًا في مواجهة تحديات متعددة من أجل مستقبل أفضل يتمتع فيه مسيحيو الأمة ومسلموها بجميع الحقوق والواجبات ، ويكون المعيار الأوحد والتميز الشخصي هو القدرة والإمكانية وثراء الفكر ، وإتقان العمل ، والقدرة على المشاركة المجتمعية .

لقد انشغلت بعض الدول بالمواطنة ومستقبل بلادهم ، ووجدوا فيها دافعًا للتقدم والازدهار ، فالبريطانيون مثلا انشغلوا بموضوع المواطنة على مدة عام ٢٠٠٦ وحتى مطلع ٢٠٠٧ فاجتمعت مجموعة من المراكز البحثية والمؤسسات المدنية التي تعمل في مجالي التطور الديمقراطي والمجتمع المدني في إطار مشروع وطني موضوعه : " مستقبل المواطنة " في العشرين عامًا المقبلة أي في ٢٠٢٦ حيث قدموا تقريرهم الختامي للمشروع للجنة قومية معنية بالشئون الدستورية .. وتقول القراءة العامة للتقرير إنه حمل الكثير م الأفكار الثمينة ، وتناول المواطنة تناولاً دقيقًا على المستويين المفهومي والعملي ، كما عكس التقرير كيف أسفرت نقاشات عام كامل عن بلورة رؤية عميقة لمستقبل المواطنة في بريطانيا تكون محل إجماع لتهيئة كل ما من شأنه توفير سياق مجتمعي لتعظيم مواطنيه في أفضل صورها ..

ومن هنا ندرك أهمية الحرية للبلاد المتطلعة للتقدم ، فإذا كانت بعض الدول الغربية تحرص على تطبيق هذا المبدأ ، فإن من الأسس التي يقوم عليها الإسلام المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، ومن بين هذه الحقوق حرية التعبير عن الرأي والحق في التنعل وغيرها من الحقوق .

وقد كان يسمح للإنسان بإبداء رأيه في كثير من الأمور السياسية والفكرية في بداية عصر النبي صلي الله عليه و سلم ، استنادًا إلى قول الله تعالى : " وشاورهم في الأمر " وقد استشار النبي أصحابه في اختيار مواقع القتال والمعارك ، وكان النبي يسمع لهم ، ويحبذ من آرائهم ما فيه المصلحة ، وكذلك عند اختياره صلي الله عليه و سلم للنابغين من أصحابه لنشر تعاليم الإسلام .. وسارت الحياة على هذا المنهاج في كل التصرفات تدريب على الحرية ، وإعمال الفكر ، مع نبذ فوضى الحرية ، والدعوة إلى الحرية الملتزمة بالضوابط الآمنة ، ففوضى الحرية تعني عدم تقيد العقل البشري بسقف يحول بينه وبين إبراء رأيه في أي موضوع ، وقد حث الأديان السماوية على الحرية المسئولة التي تسمح للإنسان بإبراء رأيه في حدود لا يلحق معها أذى ، أو إهانة للمقدسات أو الرموز الدينية عن طريق الإقناع العقلي المنظم كما كان يحدث بين أئمة الفكر الإسلامي ، وعلى هذا يسمح للمواطنين بالتعبير عن آرائهم ما دامت تلتزم بالقوانين .

إن المواطنة فكرة جامعة تضم بين ظهرانيها أبناء الشعب الواحد على تنوع المكونات الدينية والسلالية والعرقية والقبلية والطائفية التي يشملها هذا الشعب ، وهي بمثابة القاسم المشترك الذي يربط بين هذه المكونات ، ويحقق ترابطها وائتلافها الوطني في إطار الدولة .

في مكة وقبل الهجرة كان الذين أسلموا يكونون جماعة مؤمنة تتحدى المقومات الأساسية للمجتمع المكي القائم على الشرك والظلم والاستبداد .. وبعد الهجرة أصبحت هذه الجماعة نواة مجتمع جديد ، فأقامت للإسلام دولة . هذه الدولة لها مقومات وأجهزة ووزارات ، فإن أي دولة لابد أن ترتكز على دستور قوي ، تحكم نصوصه ومواده علاقات المواطنين الذين تظلمهم الدولة .. سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . هذه الدولة الإسلامية لم تكن دولة " دينية " بالمعنى الذي تعرفه اليوم من هذه المصطلح ، إلا أنها لم تفصل الدين عن الدولة ، بل ميزن بينها ، وبدأ تكوين عدد من الوزارات كوزارة المالية ، أو الجهاز المالي للدولة ، وتوحدت المكاييل والموازين ، وأنشئت

وظائف متعددة في إطار الجهاز المالي للدولة . كما تكونت وزارة للعدل للفصل في المنازعات ، ونظر المظالم ، وتولاها علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، كما ثبت أن الرسول صلي الله عليه و سلم ، قام بالنظر في القضايا وخصومات الناس بنفسه ، وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أما وزارة الداخلية فكانت تتولى تنفيذ الأحكام الصادرة ضد المدنيين ، وهكذا ...

لقد بلغت الآفاق الإسلامية - في حقوق المواطنة - آفاقًا لم تعرفها ديانة من الديانات ، ولا حضارة من الحضارات ، قبل الإسلام ودولته التي قامت بالمدينة المنورة على عهد رسول الله صلي الله عليه و سلم .. وكما مثل دستور هذه الدولة - الصحيفة والكتاب - أول نص دستوري يقيم كامل حقوق المواطنة وواجباتها بين الرعية المتعددة دينيًا - المؤمن واليهود - فلقد مثل العهد الدستوري الذي كتبه رسول الله - صلي الله عليه و سلم - وهو رئيس الدولة للنصارى - عهده لنصارى نجران - مثل التجسيد والتقنين لكامل حقوق المواطنة وواجباتها .

لقد قرر هذا العهد كامل العدل مع غير المسلمين من رعية الدولة الإسلامية ، وكامل الحرية ، فقد جعل حرية الاعتقاد عليه الصلاة والسلام فريضة إسلامية مقدسة ، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان يمنحها حاكم ، ويمنعها آخرون ، وأصبح لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فهم شركاء فيما لهم وفيما عليهم ، وحماية الأنفس والوفاء والأموال والأعراض وأماكن العبادة والحريات .. ومع تقرير هذه الحقوق ، قررت الشريعة الإسلامية واجبات المواطنة ، فنصت على أن يكون الولاء والانتماء للوطن ، وليس للأعداء الذين يتربصون بهذا الوطن ويكيدون لأهله .. هكذا قررت الشريعة الإسلامية - وليست العلمانية - كامل حقوق المواطنة وواجباتها منذ اللحظة الأولى لقيام دولة الإسلام ، الأمر الذي جعل الدولة الإسلامية قائمة على التعددية الدينية طوال تاريخ الإسلام .

ومن السعادة أن يكون الوطن والانتماء شعار الحملة القومية الجديدة للمهرجان الثقافي القومي - القراءة للجميع - الذي افتتحته السيدة الفضلى سوزان مبارك ، وأن تكون الإبداعات التي أنتجتها عقول كبار الكتاب والأدباء والمفكرين في الأدب والشعر والقصة والمقال والرواية والمسرح والأغنية ، وغيرها من الفنون الأخرى ، هي الزاد الذي ينهل منه شبابنا المبكر في جميع مكتباتنا المنتشرة في المدن والمراكز والمحافظات ، بالإضافة إلى المجموعات الكاملة لكبار المفكرين والفلاسفة ، إلى جانب الأنشطة الثقافية والفنية الأخرى التي تقام على هامش المهرجان في شكل ندوات ومحاضرات وأمسيات شعرية وأدبية وفنية تدور حول قضية الوطن والانتماء ..

ويأتي الاهتمام بهذه القضية تأكيدًا بأن غرس بذور الانتماء في عقول الأطفال والشباب من الصغر وتنشئتهم على حب بلدهم ، أو وطنهم من البداية سيكون له مردود الإيجابي ، ونتائجه المثمرة فيهم عندما يصبحون كبارًا يافعين نافعين لأوطانهم ، مؤمنين بأن هذه الوطن هو ملاذهم الأول والأخير ، وكيانهم الذي يدافعون عن مقدساته ، ويضحون من أجله ، وأن هذا الحب يحميهم من كل التيارات الغربية القادمة إليهم من الخارج مع مظاهرة العولمة وبعض أفكارها التي قد لا تتناسب مع عاداتهم وتقاليدهم العريقة ، ويقيهم من شرورها ويحفظ عليهم هويتهم العربية ..

وقد جاءت قضية الانتماء للوطن لتؤكد أن هذا الانتماء عندما يمتلك الإنسان ، ويملأ قلبه وعقله بحب وطنه ، بل وكل مشاعره سيجعله منزها عن كل غرض بعيدًا عن أي انحراف يخشى الله والوطن في كل تصرفاته ، وفي أدائه لعمله ويصبح مثلاً أعلى في الأمانة النزاهة والشرف ، فيعتدي به الآخرون .

ومن أجل ذلك أيضًا كانت النظرة إلى الخطاب السائد ، وكانت الدعوة إلى تحديثه وتطويره حتى يكون إذا أثر ملموس وواضح في تغيير السلوك ، وأنماط الأفراد ، وتعاملاتهم ، مع سرد السير والمشاهد والمواقف من الإسلام التي تؤكد هذا الانتماء وهذا الحب وهذا الثقافي فمن سبيل التعاون والتماسك ، والإيثار ، وحب الخير والعمل له ، البعد عن الشر والنهي عنه ، وهكذا يكون الخطاب ..

الهوية الجماعية

إن اقتناع المسلمين جميعًا بأنهم يكونون جماعة أو " أمة " قد وحد بينهم على الدوام في الشعور بالتضامن والتكافل ، ولكن العالم الإسلامي في الرحب تعيش فيه شعوب وفئات اجتماعية مختلفة المشاعر والمصالح ، وأغلب الظن أن هذه الشعوب والفئات المتعددة ليست على استعداد للتضحية بمصالحها الحيوية في سبيل وحدة إسلامية أعظم ، وليس هذا من قبيل المصادفة ،لأن الدين الإسلامي يتيح للأفراد والجماعات مجالات واسعًا وأفقًا رحبًا للتفسير . ولا توجد كذلك في الإسلام سلطة عليا لتقرير ما هو التفسير الصحيح ..

إن الحضارة والدين ، وإن لم يكونا هما العاملين الوحيدين في تكوين الهوية الجماعية للبشر ، فلا شك في أنهما يقومان بدور مهم في تكوين هذه الهوية ، ولو سلم الرأي العام في الغرب بأن الإسلام هو عدوه الطبيعي ، لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن عليهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم . وذلك على التحديد هو الذي يمكن أن يدفع المسلمين كافة ، بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم في المشاعر والمصالح ، إلى اتخاذ موقف عدائي موحد ضد الغرب ...

إن من الواضح أن الأديان يختلف بعضها عن بعض من وجوه كثيرًا اختلافات مهمة ، ولكننا لو أمعنا النظر فيها عن قرب لتأكد لدينا كذلك أنها تتخذ في عدد من السمات المشتركة ذات الأهمية البالغة .

وتصدق هذه الملاحظة على مستوى البشرية بوجه عام ، ولكنها تصدق بدرجة أكبر على الأديان الإبراهيمية الثلاثة : وهي اليهودية والمسيحية والإسلام ..

إن الدين يستجيب لحاجة عميقة في الإنسان ، ويستطيع أن يمدنا بالمعنى الأخير للحياة .. بمصدر وجودنا وغايته .. وهو يستطيع أيضًا أن يضمن لنا قيمًا عالية ومعايير غير مشروطة .. أي علة مسئوليتنا والهدف منها ، والأديان حريصة على سعادة الإنسان ، وذلك بتقديم التوجه الديني الأساسي - أي السند والعون ، والأمل ، ومنحنا الكرامة الإنسانية ، والحرية الإنسانية ، والحقوق الإنسانية أي الأساس الذي يرتكز عليه العمق النهائي ..

إننا إذا نظرنا إلى الأديان الإبراهيمية الثلاثة لتأكدنا من وجود أرض مشتركة بينهما تقوم على العلاقة التاريخية التي تربط الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، وتدعمها حقيقة كونها ديانات تنتسب إلى أبي الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام ، كما تتفق جميعها على الإيمان بعقيدة التوحيد . إن المسيحية تعترف بالكتاب المقدس لليهودية ، والإسلام يعترف بالكتب المقدسة لليهودية والمسيحية . وقد قامت على مر التاريخ علاقات وثيقة وعميقة بين المؤمنين بالأديان الثلاثة ، أدت إلى مناقشات مستفيضة لأفكارهم وإلى تبادل الخبرات والتجارب بينهم . ولا يعني هذا عدم وجود اختلافات أساسية كثيرة بين الديانات الإبراهيمية ...

والواقع أن الاختلاف والتشابه كثيرًا ما يكونان متداخلين ، ومسألة العلاقة بين الإنسان والله هي أحد الأمثلة الواضحة على هذا التداخل .

إن أهم استعارة تشير إلى قرب الإنسان من الله تنطوي على فكرة أن الله قد جعل الإنسان خليفته على الأرض . وقد جاء في آيات كثيرة إن الله قد جعل البشر خلفاء على الأرض ..

إن الإسلام جاء بشريعة منزلة ، وأعمال الإنسان هي أهم معيار يحتكم إليه في تقرير حاله ، غير أن الحال يختلف عن ذلك ، حيث يضع المفكرون الذين يقيمون وزنًا كبيرًا للأعمال الإيمان في منزلة أعلى منها ..

إن الأمر يحتاج للبحث والدراسة ، وليس على المستشرقين الغربيين وحدهم الإسهام في حوار الأديان بدراستهم لأديان الشرق وحضاراته ولغاته ، بل ينبغي على الباحثين الشرقيين أيضًا بوصفهم مستغربين أو دارسين للغرب . أن يعكفوا على دراسة المسيحية والحضارة الغربية بحيث يمكنهم من الخارج ، أن يتعرفوا على مشكلات الغرب ويشاركوا على هذا الأساس بدورهم في الحوار ، وإن كان هناك عدد غير قليل من الباحثين العرب قد دبجوا بحوثًا قيمة وجديرة بكل التقدير عن التاريخ الأوربي والآداب العربية ...

إن الإسلام ديانة ذات شريعة ويقدم للإنسان التعاليم التي توجه حياته بأكملها - ونصوصه المقدسة - وهي القرآن الكريم والسنة المشرفة - قد احتاجت على الدوام إلى التفسير . ومن أجل ذلك طورت الشريعة الإسلامية عددًا من القواعد التي تتسم بمرونة شديدة ، وذلك مثل الضرورات تبيح المحظورات ، والتعاليم الشرعية تتغير بتغير الزمن ، مع التأكد المستمر بأن المشرع يجب أن يكون في خدمة المصلحة العامة ، إلى جانب صياغة مجموعة كبيرة من مقاصد الشرع : كحماية الحياة ، والعقل ، والذرية ، والملكية ، وهكذا سمح الإسلام ، في كل العصور ، بالتفكير في مبادئه تفكيرًا عقلانيًا مع وضع الواقع دائمًا موع الاعتبار .

الخاتمــــــــة

لقد خلق الله الأرض للإنسان ليعيش عليها في يسر وسهولة ييسر له ذكر خالقه ، وفي تسخير السماوات والأرض للإنسان نعمة من الله لهذا الإنسان ، ولذلك كان كل تسخير لما خلق الله بقصد به غير طاعة الله بمثابة كفر بالنعمة ، وخروج بالأمور عن مقتضياتها التي خلقت من أجلها .

إن مهج البحث في الإسلام ، أيا كانت مجالات هذا البحث لابد أن يرتكز على هذا الأساس ، ترابط عضوي بين الدنيا والدين ، والحياة الآخرة . فالحياة وسيلة إلى غاية ، وإذا صلحت الوسيلة صحت الغاية ، وتحقق الهدف من الحياة . وفي هذا يقول الله تعالى : " وأتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا " (القصص ٧٧) . وفي تقديم الآخرة على الدنيا ، والموازنة بين الآخرة ككل . والنصيب من الدنيا دلالة على عظم الوزن النسبي للآخرة ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

" من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب " (الشورى ٢٠) .

ولا يعني هذا المنهج عدم جواز الأخذ عن غير المسلمين ، ذلك أن الإسلام أطلق سلطان العقل من كل ما يقيده ، وخلصه من كل تقليد للآباء والأجداد ، ورده إلى مملكته يقضي بحكمه وحكمته ، مع الخضوع في ذلك لله وحده ، والوقوف عند شريعته .

ولا يمكن الحال كذلك اتهام أي حركات للتجديد في تلك الحدود - بتهمة استيراد الأفكار والنظريات ، فتلك تهمة قديمة حديثة ، أسبقت أن وجهت إلى رسول الله صلي الله عليه و سلم ، وقد قال الله تعالى في ذلك :

" وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .. " وهنا يرد عليهم القرآن الكريم بأن الفيصل هو صلاحية الفكر وصدقه ونفقه ، لا معرفة آبائهم وأجدادهم ، فيقول : " أو لو كان آبائهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون " (البقرة : ١٧٠) .

ومن ناحية أخرى فمع أن الإسلام عقيدة وشريعة إلا أنه يحصن على الاستفادة من الأفكار الأخرى التي لا تتعارض مع أصوله المقررة ، أو قواعده العامة ، والحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق الناس بها ..

ومع تعدد الكتب والمذاهب الفقهية ، وغزارة الفقه الإسلامي ، فإن المسلمين قد لا يجدون في حياتهم المتطورة حكمًا فقهيًا صريحًا ، لبعض ما يطرأ من مشكلات ، الأمر الذي يتعين معه أن نولي قضية الاجتهاد - في حدود النصوص والمصادر الإسلامية - اهتمامًا متزايدًا ..

إن التزاوج بين ما هو كامن في النفس ، وما صادقت عليه الشريعة الإسلامية من تقدير للحرية ، والتنظيمات المعاصرة ، يفجر الطاقات الكامنة في ميادين المعارف والعلوم والفنون ، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من الافتراء في تلك الحدود ..

وإذا كان الله قد تكفل بحفظ كتابه كما جاء في قوله تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (الحجرة ٩) فإن ذلك لا يعني حفظ الدين الإسلامي كمفهوم ديني فقط ، وإنما يعني حفظه كعقيدة وشريعة في إطار القرآن الكريم ، يسترشد بها المسلمون في حياتهم ، ويطبقونا في دنياهم ، وفي هذا لا يستطيع أي حاكم أن يحكم بهواه ، وتلك ضمانة كبرى ليس للمسلمين فقط ، بل لغير المسلمين كذلك ممن يعيشون على أرض إسلامية ، وفي هذا يقول الله تعالى : " فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق " (المائدة ٤٨) .

إن الدين الإسلامي دين شامل وكامل ، دين دنيا وآخرة ، وكفاه أن الله سبحانه وتعالى قرر ذلك في قوله جل شأنه : " اليوم أكملت لكن دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " (المائدة ٣) .

ومع أننا لا ينقصنا ، والحمد لله ، الإيمان بعظمة الإسلام كعقيدة وشريعة ، وبأهمية الفكر الإسلامي ، فإنه ينقصنا بيان الأصول والمبادئ الأساسية في الإسلام بلغة العصر ، وأسلوب ربطها بما يجري في هذه الحياة ..

إن عولمة الحياة الإنسانية المعاصرة تشكل في الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر ، فالنمو المتصاعد للثقل النوعي للبلدان النامية في الاقتصاد العالمي ، وفي السياسة الدولية ، ونهضتها الثقافية - التجديدية (سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها ، أو بتنشيط التراث الثقافي في التقليدي لهذه البلدان وإحيائه مجددًا) ، والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية - التقنية ، وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى ، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيري ، والسياحة العامة ، كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم ، وغيرت رؤية الناس ، وإدراكهم لهذا العالم الجديد ، ومن ثم كان التجديد والتحديث للخطاب أمرًا محتومًا مقضيًا ..

وبالإضافة إلى ذلك فإن تطور العلم ، الذي أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهامًا كبيرًا ، أغنى كثيرًا الرصيد العقلي للإنسانية جمعاء ، بحيث ساعد بدوره على تكوين نمط جديد من التفكير ، وظهور أساليب وطرائق متجددة مبدعة في دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية ، بحيث يعاد تشكيل اللوحة العالمية من منظور وحدة التاريخ العالمي ، والتطور الثقافي - الحضاري للإنسانية بأكملها ..

إن المجتمع البشري أصبح في هذا العصر مسكنًا واحدًا ، ولهذا فإن التجديد ضرورة ، والتحديث مهم للغاية إلى جانب الحوار الذي أصبح هو الآخر ضروريًا ، إضافة إلى أنه أكثر ملائمة وتوافقًا مع روح العصر التي تتسم بالتسامح والتعايش مع الآخر ، ولابد أولا من تحديد سياسي واجتماعي - ثقافي للبلد أو للإقليم الذي يجري فيه الحوار ، حيث أن الاتجاهات الخاصة بالحوار يمكن أن تكون ذات أهداف متشعبة ، ووفق مستويات مختلفة أيضًا ..

إن العالم المعاصر ، يتسم بالتنوع والتعددية ، ويرتبط ببعض عبر آلاف من أقنية الاتصال ، ولذا ندرك بصورة أكبر فأكبر ، إن بلوغ تدين أكثر ملائمة واتساقًا مع الظروف العصرية الراهنة ، يمكن أن يحدث فقط في شروط تؤمن التحرر من الكراهية الطائفية ، والشعور بالتفوق والتميز ..

نحن نعيش اليوم في عصر لم يعد فيه مكان للانعزال والتقوقع . فالعالم أضحى مثل قرية كونية يعتمد فيها كل على الآخر ، وهذا أمر يقتضي تعاونًا وتألفًا ..

هناك تصورات غريبة عن الإسلام ، وهذه التصورات تسيء إلى الإسلام والمسلمين ، وتصدم مشاعرهم ، ولابد أن نشير إلى خطا هذه التصورات ، وعدم اتفاقها مع الواقع ، وأن هذا هو ديننا يتحدث عن نفسه ، ويعلن عن صفائه ونقائه وشفافيته ، وهو ما حاولنا أن نركز عليه في تناولنا للإسلام والكشف عن صورته الصحيحة ..

ولا يخفي على أحد أن هناك من يروج على ألسنة وأقلام بعض الكتاب والعلماء المغرضين ، وعبر وسائل الإعلام المزيفة والجاهلة من أن الإسلام هو العقبة الكبرى أما السلام العالمي ، والحظر الأكبر الذي يهدد ما يسمى بالعالم الحر ، وأنه هو العدو الذي تتنافس في رسم صورته الإرهابية أقلام متميزة ، وأدوات اتصال مريبة ..

إن الدين الإسلامي ، وأي دين آخر ، ولا يمكن بحكم طبيعته أن يكون عدوانيًا ، أو يصدد عنه العدوان ، أو يهدف إليه ، وأن مسألة العداوة يجب أن تفهم من داخل السياق التاريخي الذي تعيش فيه شعوب العالم الثالث ، إسلامية كانت أو غير إسلامية ، وتشعر بتخلفها عن الدول الصناعية المتقدمة وتبعيتها لها ، كما تسعى بالضرورة سعيًا متعثر للتخلص من ذلك التخلف ، وتلك التبعية .

إن الإسلام لا يمثل أي تهديد للعالم ، بل إن العكس من ذلك هو الصحيح ، فأكثر المسلمين يشعرون في عصرنا الحاضر بأنهم مظلمون ومهددون ، وإذا كان هذا الشعور قد تسب في ظهور بعض الاتجاهات اللا عقلية - أو التصرفات المتطرفة تجاه الأجانب والسياح بوجه خاص في بعض البلاد العربية ، فإن المسئول عن ذلك في المقام الأول هو بعض القوى الغربية التي تهيمن على العالم ، وتخون اليم والمثل العليا التي تتشدق بها (مثل حق الشعوب في تقرير المصير ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ..) وتطبيق معايير مزدوجة تضر بمصالح الشعوب العربية والإسلامية ، وأقرب دليل صارخ على الظلم الواقع على المسلمين والعرب هو مأساة فلسطين والعراق وما نكبتنا به من مجازر ، وتدمير وتخريب وتجويع . وإذا كانت هذه المآسي وأمثالها قد ولدت ردود الفعل العنيفة عند البعض المتشردين ، فلا يجوز أن تدفع الغربيين إلى رسم صورة مشوهة للإسلام كعدو للغرب ، بل يجب أن تدفعهم للبحث عن أسباب هذه الحركات المتطرفة ، وتحثهم على مراجعة موازينهم ، ومعاييرهم المزدوجة ، وتقنعهم بتغير مواقفهم المتميزة - التي ترجع لأسباب قديمة ومعقدة - ضد المسلمين والعرب - بحيث يبنون لهم إنهم يريدون أن يفهموهم لا أن يحاربوهم .

ولابد من الدعوة إلى الحوار السمح بين الأديان ، وتأكيد أوجه التشابه والتقارب والعناصر المشتركة بينها ، وضرورة إسهام الباحثين العلميين في هذا الحوار الذي لابد أن يعود بالخير على البشرية كافة .

وهناك محاولات لعدد كبير لمفكرين المجددين ، والدعاة المجتهدين لتجديد خطاب يحمل الصبغة الإسلامية ، ويبين سماحة الإسلام ، ومرونة الشرع واتساع صدره على مدى التاريخ الإسلامي ، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد في تفسير النصوص المقدسة ، وعدم التشبث بآراء القدماء لمجرد قدمها باعتبار تغير الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية ، والدعوة إلى التحدث والإبداع والمواءمة بين المثال الثابت والواقع المتغير ، ما دام الاجتهاد والتفسير يقعان داخل إطار الإيمان الصادق ، والنظر العقلي الصائب .

إن عين الأخر ترى ما لا نراه ، وحضارتنا لا نعطيها نحن القدر الكافي في الاهتمام ، وبحكم التعود والاطمئنان إلى المألوف والموروث تغيب عنا دقائق تاريخية وخفايا اجتماعية كثيرة ينتبه إليها الأجنبي الغريب بنظرة واحدة ، من أجل ذلك وجب علينا أن نقدم للآخر صورة حقيقية واقعية عن الإسلام ، وعن حضارتنا حتى ندرأ عن أنفسنا النظرة السيئة التي ينظر إلينا بها الغريب .

وأيضًا أردت أن أشارك بجهد شديد التواضع في مواجهة حملات التشويه والافتراء الضاربة على الإسلام ، والمسلمين والعرب ، وهي الحملات الكاذبة التي أرجو أن يفطن العقل الغربي نفسه ذات يوم قريب إلى أنها تخجله ، وتنفي عنه فضيلة التمسك بالحقيقة ، والبحث عنها والإعلان من شأنها فوق كل شيء ، ومهما تكن التضحيات ..

نعم إن كتاب الله يحفظه الله ، وللإسلام رب يحميه ، وتلك حماية مطلقة وباقية ما بقي الزمن ، ولكن هذه الحماية المطلقة للإسلام تتحول فيما يتعلق بالمسلمين إلى حماية معلقة على شرط ، أن يبادروا هم إلى التحرك بجدية في الاتجاه الصحيح ، يتغيرون فيتغير التاريخ ..

إن الله يدافع عن الذين آمنوا وجاهدوا وثابروا وصبروا وصابروا ، أما القاعدون عيالاً على الله فينبغي ألا ينتظر من الله مددًا ، ولن يكون جزاؤهم إلا من جنس ما عملوا ..

وأقول للقارئ الكريم إنني في إنتاجي السابق حرصت في كل ما قدمت من قبل على أن أحضر نفسي في حدود سماحة الإسلام وسماحة الأديان والسلام العالمي ، وفي إطار الفكر الإسلامي المعاصر ، ونظرته إلى غير المسلمين ، وفي التعاملات والسلوك الذي يجب أن يكون عليه الإنسان لتحيا الأمة ، وتنهض الشعوب . غير أني أعلم وأوقن إلى أن غيري من الباحثين المتخصصين في هذا المجال أقدر مني على الخوض في بحار ذلك الميدان الشاسع ..

وقد أقدمت على العمل في هذا الكتاب ، وبذلت ما بذلت في سبيل تحقيق رغبة تمنيت أن تكون من خلال إيماني العميق بالسماحة والعدل والحرية التي نادي بها الإسلام ، ويجدر ربنا أن نطور فكرنا تجاه تناول مثل هذه القضايا التي نقدمها للآخرين ..

إن القارئ العربي المسلم سيفيد هذا المؤلف أعظم الفائدة إن استطاع أن يرى فيه الفرصة لأخذ فكرة صادقة عن ديننا السمح ، والخطاب الموجه للناس عنه بأسلوب سهل ميسر مقنع ، وفكر متطور يساير العصر ، ويواكب الحياة المعاصرة ، وأيضًا معرفة الحضارة الإسلامية ، وعما يدرس ويبحث عن الإسلام وأهله ، وعن الحضارة الإسلامية ، وعما يدور حول ذلك كله في صورة صادقة تنقل للآخر .

والله من وراء القصد

د / خالد الزواوي



المراجـــــــع

المــراجــــع

- القرآن الكريم
- الأحاديث القدسية
- مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - إحياء التراث الإسلامي ط ١ بإشراف الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٦٩ .
- فقه السنة : السير سابق - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ - بيروت - لبنان ١٩٧٧ .
- في ظلال القرآن : سيد قطب ط ٣ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ١٩٦١ .
- تفسير الجلالين للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المخلي ، والعلامة جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، مزيلا بكتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، دار الغد الجديد ط ١ - القاهرة ٢٠٠٧ .
- موطأ الإمام مالك : تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ط ٢ - المكتبة العلمية د . ت .
- الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
- عيون الأخبار ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .
- الأمالي ، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي جـ ١ ، ٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ .
- الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
- قاموس الأديان الثلاثة : تحقيق نور الدين خليل - مؤسسة صوري الدولية للنشر والتوزيع - الإسكندرية ، ٢٠٠٧ .
- العهد الجديد : دار الكتاب المقدس - شركة الطباعة المصرية ط ١ سنة ٢٠٠٦ .
- معجم ألفاظ القرآن الكريم : إعداد مجمع اللغة العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
- معجم ديوان الأدب : تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ط ١ - الشركة المصرية للنشر - لونجمان ٢٠٠٣ .
- معجم أعلام القرآن الكريم : د . محمد الونجي - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ٢٠٠٤ .
- معجم السراج الوجيز : وجدي رزق غالي - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العرب ي- مطبعة دار الكتب المصرية - بيروت - لبنان ١٩٤٥ .
- لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (خطب) - الجوهري ، الصحاح ، الفيروز أبادي ، القاموس المحيط .
- الخصائص ، لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٢ جـ ١ القاهرة ١٩٩٩ .
- آفاق العصر : د. جابر عصفور - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ .
- الأسلوبية ، دارسة في تحليل الخطاب ، فرحات بدري الحربي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط ١ ، بيروت ٢٠٠٣ .
- الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب ، وتحليل الخطاب - شركة أبو الهول للنشر ط ١ ، القاهرة ١٩٩٦ .
- البلاغة والأسلوبية : د . محمد عبد المطلب - الشركة المصرية العالمية للنشر - مكتبة لبنان ط ١ القاهرة ١٩٩٤ .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب : مجدي وهبه - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٤ .
- علم الدلالة : د . أحمد مختار عمر ، عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٨ .
- الخطاب والقارئ ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب د. حامد أبو أحمد - مركز الحضارة العربية ط ٢ القاهرة ٢٠٠٢ .
- تيارات الفكر الإسلامي د . محمد عمارة : - طبعة القاهرة ١٩٨٣ .
- الأدب في موكب الحضارة الإنسانية : د . مصطفى الشكعة - دار الكتاب اللبناني - بيروت ط ٢ ، ١٩٧٤ .

- تاريخ الإسلام : شم الدين الذهبي ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٦٧ .
- تاريخ الرسل والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧٩ .
- العصر الإسلامي ، د . شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- الإسلام والإيمان : د . عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة ١٩٦٩ .
- سماحة الإسلام : أحمد محمد الحوفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٧ .
- اللغة واللون : د . أحمد مختار عمر ، دار المعارف بمصر ١٩٩٦ .
- الحيوان ، للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الأسرة ـ هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٤ .
- بين يدي الله ، عبد الرزاق نوفل ط ١ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ ب ت .
- العصر الجاهلي : د . شوقي ضيف ط ١٥ ـ دار المعارف بمصر ١٩٨٤ .
- تهذيب سيرة ابن هشام : د . عبد السلام هارون جـ ١ مكتبة ربيع ـ حلب د . ت .
- سيرة الرسول : عن طبقات ابن سعد ـ دار الفكر للجميع ١٩٦٨ .
- حياة محمد : د . محمد حسنين هيكل ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥ .
- معجم التعابير الإصلاحية : د . محمد البطل ـ الشركة المصرية العالمية ـ لونجمان ـ ٢٠٠٠ .
- البيان والتبيين : للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ الذخائر ٢٠٠٣ .
- نظرات في القرآن : محمد الغزالي ط ٢ ـ دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثني ببغداد ١٩٦١ .
- دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني : محمود محمد شاكر ـ مكتبة الأسرة ـ هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٠ .
- التصوير الفني من القرآن : سيد قطب ـ دار الشروق ط ٤ ـ ١٩٧٨ .
- كيف يعمل العقل ؟ محمد خلف الله : سلسلة الفكر الحديث ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر د . ت .
- التعليم المعاصر : د . خالد الزواوي ـ مؤسسة حورس الدولية ـ الإسكندرية ٢٠٠١ .
- مشاهد أبكتني : د . خالد الزواوي ـ دار الوفاء الدنيا الطباعة والنش رـ الإسكندرية ٢٠٠٢ .
- سماحة الأديان والسلام العالمي : د . خالد الزواوي ـ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـ الإسكندرية ٢٠٠٤ .
- إكساب وتنمية اللغة : د . خالد الزاوي ـ مؤسسة حورس الدولية ـ الإسكندرية ٢٠٠٥ .
- قصص الحيوان من القرآن : د . خالد الزواوي ـ مؤسسة حورس الدولية ـ الإسكندرية ٢٠٠٨ .
- عالم المعرفة : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت
الأعداد : (١١ ـ ١٢ ـ ٤٣ ـ ٦٣ ـ ٨٧ ـ ٨٩ ـ ١٢٨ ـ ٢٣٣ ـ ٣٠٢).
- البطالة : د . خالد الزواوي : مجموعة النيل العربية ـ القاهرة ٢٠٠٤ .
- الشباب والفراغ .. د . خالد الزواوي ـ مؤسسة حورس الدولية ـ الإسكندرية ٢٠٠٧ .

المحتـــــوى

المقــدمـــــة ----- ٥
الباب الأول هذا الدين ----- ٨
الفصل الأول الإسلام والحقوق الإنسانية الإسلام ----- ٩
الإسلام والحقوق الإنسانية: ----- ١٠
الإسلام والحرية : ----- ١١
الإسلام والعدل : ----- ١٢
الإسلام والمرأة : ----- ١٤
الإسلام والشورى : ----- ١٥
الإسلام والعلم : ----- ١٥
العلم والعلماء : ----- ١٧
الإسلام والعمل : ----- ١٧
الفصل الثاني العقــــــــــل ----- ٢٠
الإسلام والعقل : ----- ٢١
مهاجمة العقل : ----- ٢٥
الإسلام والغرب : ----- ٢٧
الإسلام والزمان ----- ٣١
لماذا تخلفنا ... ؟ ----- ٣٣
الباب الثاني الخطاب ----- ٣٦
الفصل الأول ماذا يراد .. ؟ ----- ٣٧
الخطاب : ----- ٣٧
الدعوة والداعية : ----- ٤٢
دعاة الديانات : ----- ٤٣
أسس الدعوة : ----- ٤٦
مناهج الدعوة : ----- ٤٨
خطبة الجمعة : ----- ٥٤
المعاصرة : ----- ٥٧
الفصل الثاني التطور ----- ٥٩
أسباب التطور وملامحه : ----- ٥٩
محاولات التجديد : ----- ٦٠
مهمة التجديد ----- ٦٤
الحديث القديم ----- ٦٦
المجددون في القديم ----- ٦٨
التاريخ الإسلامي ----- ٧٢
الترجمة ----- ٧٥
المؤتمرات والندوات ----- ٨٠
نحن والعالم ----- ٨٢

الباب الثالث المواطنة ---------- ٨٤
الفصل الأول ما المواطنة ؟ ---------- ٨٥
المواطنة ---------- ٨٦
الشريعة والمواطنة ---------- ٨٩
الوحي والشريعة ---------- ٩١
الفصل الثاني الدستـــــــــــور ---------- ٩٣
الدستور : الصحيفة ---------- ٩٤
مستقبل المواطنة ---------- ٩٥
الهوية الجماعية ---------- ٩٧
الخاتمـــــة ---------- ٩٨
المراجـــــع ---------- ١٠٢
المحتـــوى ---------- ١٠٥
المؤلف : ---------- ١٠٨

كتب للمؤلف : على موقع بنك المعلومات العربي أسك زاد

Askzad.com

- الصورة الفنية عند النابغة : الشركة المصرية العالمية للنشر ـ القاهرة ١٩٩٢
- تطور الصورة في الشعر الجاهلي : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ـ الإسكندرية ٢٠٠٠ .
- التعليم المعاصر (قضاياه الفنية والتربوية) : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ـ الإسكندرية ٢٠٠١ .
- مشاهد أبكتني : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـ الإسكندرية ٢٠٠٢ .
- اللغة العربية ك مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ـ الإسكندرية ٢٠٠٣ .
- الجودة الشاملة في التعليم (وأسواق العمل في الوطن العربي) : مجموعة النيل العربية ـ القاهرة ٢٠٠٣ .
- البطالة في الوطن العربي (المشكلة والحل) : مجموعة النيل العربية ـ القاهرة ٢٠٠٤ .
- الماء ـ الذهب الأزرق في الوطن العربي : ـ مجموعة النيل العربية ـ القاهرة ٢٠٠٤ .
- سماحة الأديان والسلام العالمي : دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر ـ الإسكندرية ٢٠٠٤ .
- إكساب وتنمية اللغة : مؤسسة حورس الدولية للتوزيع والنشر ـ الإسكندرية ـ ٢٠٠٥ .
- تطور الصورة في الشعر الجاهلي ط ٢ : مؤسسة حورس الدولية للتوزيع والنشر ـ الإسكندرية ٢٠٠٥ .
- الشباب والفراغ .. ومستقبل البحث العلمي : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ـ الإسكندرية ٢٠٠٧ .
- قصص الحيوان في القرآن : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ـ الإسكندرية ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨ .

كتب تحت الطبع :

فاروق شوشة وروائعه

الحوارات الإلهية

وجوه من الشرق

المؤلف :

دكتور خالد محمد الزواوي

- دكتوراه في الأدب العربي من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى .
- عضو هيئة تدريس اللغة العربية ، وعمل بالتدريس في الكويت وفي مصر .
- له نتاج علمي في اللغة والأدب والثقافة ، ودراسات نقدية وأبحاث ومقالات بالصحف العربية .
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات والملتقيات الأدبية .
- أسهم في الدورات التدريبية لتطوير اللغة .
- حصل على وسام عيد العلم وجائزة الدكتور محمد شوقي الفنجري ، وجائزة الاستحقاق من لبنان ، وجائزة نادي الأهرام للكتاب ، وجوائز وشهادات تقدير ...
- عضو اتحاد كتاب مصر ، وعضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ونادي الأهرام للكتاب